تاريخ
العالم الاسلامي
الحديث والمعاصر
الجزء الثاني
قارة إفريقية

إعداد
الدكتور/ إسماعيل أحمد ياغي
محمود شاكر



ص.ب: ١٠٧٢٠ ـ الرياض: ١١٤٤٣ ـ تلكس ٤٠٣١٢٩
المملكة العربية السعودية ـ تلفون ٤٦٥٨٥٢٣ ـ ٤٦٤٧٥٣١

رقم الإيداع
٩٢/٨٦٠٨

المملكة العربية السعودية، ص.ب ١٠٧٢٠ - الرمز البريدي ١١٤٤٣
تلكس ٤٠٣١٢٩ - فاكس ٤٦٥٧٩٣٩، هاتف ٤٦٤٧٥٣١ / ٤٦٥٨٥٢٣


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة

الفصل الأول: مصر ... ٧

- الحملة الفرنسية على مصر ... ١١
- محمد على وبناء الدولة الحديثة ... ٢١
- الثورة العرابية ... ٢٧
- الاحتلال الإنكليزي لمصر ... ٢٩
- استقلال مصر واعلان الملكية ... ٣٨
- معاهدة سنة ١٩٣٦ ... ٣٩
- ثورة ٢٣ تموز سنة ١٩٥٢ ... ٤٣

الفصل الثاني: السودان ... ٤٧

- العرب والسودان ... ٤٧
- الحكم المصرى في السودان ... ٤٩
- الثورة المهدية ... ٥٢
- الحكم الثنائي ... ٥٤
- النضال السياسي والكفاح الوطنى ... ٥٦
- مؤتمر الخريجين ... ٥٩

الفصل الثالث: ليبيا ... ٧١

- المقاومة الليبية ... ٧٤
- استقلال ليبيا ... ٨٦

الفصل الرابع: جمهورية تونس ... ٩١

- تاريخ تونس الحديث ... ٩٣
- مقدمات التدخل الفرنسى في تونس ... ٩٦
- تونس تحت الحماية الفرنسى ١٢٩٨ - ١٣٧٦هـ ... ١٠٠
- كفاح الشعب التونسى في سبيل الاستقلال ... ١٠٤

الفصل الخامس: جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية ١١٧
ـ الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٢٥
ـ سياسة فرنسا في الجزائر ١٢٨
ـ حركات المقاومة الجزائرية ١٣٢
الفصل السادس: المملكة المغربية (مراكش) ١٤٥
ـ الأطماع الاستعمارية في المغرب ١٤٦
ـ التنافس الاستعماري على مراكش ١٤٧
ـ الاحتلال الفرنسي ١٤٩
ـ اسبانيا في مراكش ١٥١
ـ ثورة الأمير محمد عبدالكريم الخطابي ١٥٢
ـ تدخل فرنسا ضد الريفيين ١٥٤
ـ النضال السياسي السلمي ١٣٤٥ ـ ١٣٦٣هـ ١٥٧
ـ دور النضال في سبيل الاستقلال التام ١٣٦٤ ـ ١٣٧٦هـ ١٦١
الفصل السابع: موريتانيا ١٦٩
ـ التنافس الاستعماري ١٦٩
ـ السياسة الاستعمارية ١٧٠
ـ المقاومة الموريتانية ١٧٠
الفصل الثامن: الصومال ١٧٣
ـ استفتاء سنة ١٩٥٨ ١٨١
ـ استقلال الصومال البريطاني ١٨٢
الفصل التاسع: بلدان افريقية ١٨٧
ـ دول وسط إفريقية «دول الصحراء» ١٩١
ـ تشاد ١٩٢
ـ لمحة جغرافية ١٩٢
ـ السكان ١٩٣
ـ تاريخ تشاد ١٩٤
١ ـ مملكة كانم ١٩٤

٢ ــ مملكة واداى ١٩٥
٣ ــ مملكة باغيرمى ١٩٦
ــ الأمير رابح ١٩٧
ــ الفرنسيـون ١٩٧

ــ **مالى** ٢٠٢
ــ لمحة جغرافية ٢٠٢
ــ المناخ ٢٠٣
ــ المياه ٢٠٣
ــ السكان ٢٠٣
ــ النشاط البشرى ٢٠٤
ــ التاريخ ٢٠٥

١ ــ امبراطورية غانا ٢٠٥
٢ ــ امبراطورية الصوصو ٢٠٦
٣ ــ مملكة مالى ٢٠٧
٤ ــ امبراطورية الصنغاى ٢٠٨
٥ ــ مملكة البامبارا ٢٠٨
٦ ــ دولة الحاج عمر الفولانى ٢٠٨
٧ ــ ساموري توري ٢٠٩

ــ الاستعمار ٢٠٩

ــ **النيجر** ٢١١
ــ لمحة جغرافية ٢١١
ــ المناخ ٢١٢
ــ المياه ٢١٣
ــ السكان ٢١٣
ــ النشاط البشرى ٢١٤
ــ التاريخ ٢١٦

ــ **فولتا العليا** ٢١٧
ــ لمحة جغرافية ٢١٧
ــ المناخ ٢١٨

- السكان ٢١٨
- النشاط البشرى ٢١٨
- التاريخ ٢١٩
- **جمهورية إفريقية الوسطى** ٢٢٠

الفصل العاشر: دول غربى إفريقية ٢٢٣

١ - السنغال ٢٢٣
- لمحة جغرافية ٢٢٣
- الاستعمار ٢٢٤

٢ - غينيابيساو ٢٢٧

٣ - غينيا ٢٢٩

٤ - سيراليون ٢٣٠
- لمحة جغرافية ٢٣٠
- انتشار الإسلام ٢٣٠
- السكان ٢٣١
- الاستعمار ٢٣٢

٥ - ساحل العاج ٢٣٦
- لمحة جغرافية ٢٣٦
- السكان ٢٣٦
- انتشار الإسلام ٢٣٧
- الاستعمار ٢٣٧

٦ - التوغو ٢٣٨
- لمحة جغرافية ٢٣٨
- السكان ٢٣٨
- انتشار الإسلام ٢٣٩

٧ - بنين ٢٤٠
- لمحة جغرافية ٢٤٠
- انتشار الإسلام ٢٤٠
- استعمار الفرنسي ٢٤١

٨ - نيجيريا ٢٤٢
- لمحة جغرافية ٢٤٢
- لمحة تاريخية ٢٤٢
٩ - الكاميرون ٢٤٧

الفصل الحادى عشر: الدول الإسلامية في شرقى إفريقية ٢٥١
١ - الحبشة ٢٥١
٢ - تانزانيا ٢٥٦
- لمحة جغرافية ٢٥٦
- تاريخ تانزانيا ٢٥٨
٣ - جزر القمر ٢٦١
- لمحة جغرافية ٢٦١
- لمحة تاريخية ٢٦٢

الفصل الثانى عشر: الأقليات المسلمة في إفريقية ٢٦٧
- شرقى إفريقية ٢٦٧
١ - كينيا ٢٦٨
٢ - أوغندا ٢٦٨
٣ - موزامبيق ٢٦٩
٤ - مالاوى ٢٧٠
٥ - مالاغاشى ٢٧٠
- غربى إفريقية ٢٧١
١ - ليبريا ٢٧١
٢ - غانا ٢٧١
٣ - غينيا الإستوائية ٢٧٢
٤ - الغابون ٢٧٣
- وسط إفريقية ٢٧٣
- جنوبى إفريقية ٢٧٤
- الجزر الإفريقية ٢٧٥

المراجع العربيــــة	٢٧٧
المراجع الإنجليزية	٢٧٩

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين وبعد:

فهذا الجزء الثانى من كتابنا «تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر». ويضم الأمصار الإسلامية في القارة الإفريقية. كما يشمل الأقليات المسلمة في هذه القارة على أنها جزء من المسلمين. وإن كانوا خارج حدود أمصاره.

وإفريقية قارة تصل نسبة المسلمين فيها إلى حوالي ٦٠٪ فتعد بذلك قارة إسلامية. وقد خضعت مع مطلع التاريخ الحديث للاستعمار الأوربى حتى شمل أجزاءها كلها لا تستثنى سوى رقعتين صغيرتين ليستا من دار الإسلام. ومهما قلنا في هذا الاستعمار. وحاولنا أن نزيد دوافعه الاقتصادية فإن الدوافع الصلبية تبقى هي الغالبة. إذ كانت هجمته العنيفة بعد إخراج المسلمين من الاندلس. وقيام محاكم التفتيش فيها. وقد رافق الدافع الصليبي كل مراحل الاستعمار. فنلاحظ الإرساليات النصرانية تندفع مع جنوده. وتبقى مع حكوماته. وتستمر باستمرار نفوذه. ويحميها دائماً. ويدافع عنها دفاعه عن كيانه. ويعد المتنصرين في كل مكان والنصارى من رعاياه. كما نلاحظ الظاهرة الصليبية في التمييز عند المستعمرين التمييز الصارخ بين المسلمين والنصارى في كل أرض وطأتها أقدام الاستعمار. وإن كانت واضحة بشكل خاص في هذه القارة. فالمدارس، والمستشفيات، والمساعدات، وإقطاعات الأرض كلها للنصارى. تؤخذ من المسلمين، ومن حساباتهم لتعطى لأولئك وذلك حتى رافق كلمة المسلمين الفقر. والجهل، والمرض وما ظهرت هذه الجوانب الاجتماعية في شعب إلّا أضعفته وأذلّته، وهذا ما حاق بشعوب هذه القارة نتيجة الأستعمار الذي منيت به، وهذا مانلاحظه من خلال استعراضنا لتاريخ أمضار هذه القارة من الأرض، هذا إلى جانب الحرب الشديدة التى شنت على المسلمين ومؤسساتهم، والإبادة التى تعرض لها المسلمون

في هذه الأمصار اثناء ثوراتهم التى قاموا بها. محاولين النهوض، أو مطالبين بالمساواة. أو على الأقل معرفة معنى الحياة وتذوُّقها.

وقد دخل الإسلام إلى هذه القارة منذ بداية انطلاقة الفتح الإسلامى لنشر الدعوة وإزالة معالم الظلم بعد أن ران على المجتمعات وذاقت مرارته الشعوب. فانتشر الإسلام مع الفتح ورافقه لغته العربية. فكانت أمصار شمالى إفريقية. وهى التى تعد اليوم ضمن إطار العالم العربى وقد بدأنا بهاموضوعاتنا. وبعد الفتح انتشر الإسلام عن طريق التجارة. فاجتاز الصحراء حتى عمها. وتدخل ضمن هذه المناطق اليوم دول الصحراء أو وسط إفريقية الشمالية فجعلنا هذه البلدان الجزء الثانى. كما وجد طريقاً من غربى القارة سلكه التجار. كما سار فيه الدعاة، وتشكلت الإمارات فعملت على نشر الإسلام وحماية الدعوة. وأسلمت قبائل بإسلام أمرائها فتوسع إنتشار الاسلام هناك. وكانت بلدان غربى إفريقية، وعلى الطريق نفسه حدث في شرق القارة فكانت بلدان شرق إفريقية.

ولم يكن انتشار الاسلام ليقف عند حدودٍ مرسومةٍ. وإنما تجاوز ذلك وإن لم تصل نسبة أتباعه إلى أكثر من النصف فعاشوا هناك على شكل أقليات تختلف نسبتهم بين مكان وآخر فكانت هذه الأقليات آخر الموضوعات التى تعرضنا لها.

وقد اعتمدنا في تاريخنا على التقويم الهجرى تمييزاً للشخصية الإسلامية، وخاصة أن المسلمين لايعرفون تاريخهم في مراحل عزّهم إلا بهذا التقويم، فعندما ضعف شأنهم اتخذوا التقويم النصرانى مفروضاً من الاستعمار، واستمر اتخاذه مبدأ بعد جلاء الأجنبى ـ مع الأسف ـ وإن كانت معظم الأمصار الاسلامية تصدر مراسيمها وقوانينها بالتقويم الهجرى قبل النصرانى إشارةً إلى إسلامها ولكن لاتدون به تاريخاً لذلك فلا يحفظ إلا الثانى: وكنا من هذا المنطلق نضطر أحياناً لوضع التقويمين، ولربما اقتصرنا أحياناً أخرى على النصرانى لما له من ذكرى في النفوس وحفظ مع الأيام، وهذا على غير رغبة منا ولا رضى.

ولم نحرص أثناء كتابتنا على تفصيل الأحداث واستشفاف الأهداف من خلفها، وإنما كان همنا إعطاء الإطار العام للتاريخ الحديث والمعاصر. والخطوط العريضة لسير الحوادث، وذلك كله بعد أن رسمنا الهيكل العام لأهداف الاستعمار، وكيفية تنفيذ أغراضه من خلال حكومات اعتمدها. سارت على

منهجه، وادعت العمل لمصلحة البلاد. وتعلم أنها باقية ما اتبعت الخط المرسوم لها، فإن خالفت خلفها غيرها أكثر طواعية، وإن أكثر إدعاء أعلى صوتاً. وإن كان هناك أمور سرية لا تكشفها الوثائق، ولا تتحدث عنها الجهات المسؤولة.

وأخيراً فإنّا نرجو من الله أن يوفّقنا، وأن يسدد خطانا، ويصلح أمور أمتنا، ويرشد قادتها إلى الخير والى اتباع الطريق السوى، وأن يلهمنا الصبر على ما ابتلينا به. فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم.

دكتور اسماعيل احمد ياغى
محمود شاكـر

الفصل الأول
مصــــر

يبدأ تاريخ مصر حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م، والتى بدأت معها الهجرات السامية من الجزيرة العربية، والتى ظلت تتسرب وتتدفق خلال العصور القديمة، ثم في عصور الأسرات المالكة الأولى إلى أن كان عصر الهكسوس. وخضعت مصر إلى حكم الفرس، واليونان، والرومان، وأخيراً دخلت مصر في العهد الإسلامي. فمصر بالفتح العربى دخلت عصراً جديداً وكان دخولها نطاق العروبة والإسلام مما قواها ودعمها، فأصبحت مصر خلال عصور التاريخ الإسلامى قلعة من قلاع الإسلام قامت فيها دول قوية، وكثيراً ما أغرت حكامها بالاستقلال، فاستقل بها، الطولونيون، ثم الإخشيديون، ثم دخلها الفاطميون واتخذوها عاصمة لخلافتهم، ثم انتقلت مصر من حكم الفاطميين إلى حكم الأيوبيين، وقامت بدور هام في حماية الأمصار الاسلامية من الغزو الصليبى، وقامت بعد الدولة الأيوبية دولة المماليك فكان فيها سلاطين عظام، مثل السلطان «قطز» الذي هزم المغول في عين جالوت، فصد بذلك هذا التيار المدمر، وحمى غربى العالم الإسلامى من ويلاته. وقد بقى سلاطين المماليك، والشعب في مصر يكافحون الخطر الصليبي إلى جانب الخطر المغولى ويردونه عنهم وعن بلاد الشام، وهكذا كانت مصر مركز الثقل في العالم الإسلامى، وظلت مصر تحت الحكم المملوكى إلى أن خضعت للحكم العثمانى في أوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى). ودخلت مصر نطاق الدولة العثمانية فأفاد العثمانيون من علمها وحضارتها، إذ انتقل مع السلطان الفنانين، والمفكرين، والعلماء إلى استنبول بصفتها أصبحت عاصمة الدولة الكبيرة، ومركز الحركة، حيث أفاد من فنهم وعلمهم وخبرتهم حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر.

وكـانت فكـرة احتلال مصر لأهمية موقعها الجغرافية والاقتصادية قد راودت الأوسـاط الفرنسية مراراً في القرن الثاني عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) لأسباب كثيرة، منها الحرب الصليبية التي ما انقطعت في يوم من الأيام، ومنها الإفادة من خيرات مصر، ومنها رغبة فرنسا في تكوين إمبراطورية فرنسية في الشرق لغزو الهند، وجعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية، وذلك من أجل القضاء على النفوذ البريطانى في الهند والشرق ضمن الصراع والتنافس الاستعمارى القائم، وهناك أسباب أخرى ثانوية للحملة منها إبعاد نابليون عن فرنسا للتخلص منه، وحماية التجار الأجانب في مصر. ويعد الكثير من المؤرخين الغربيين أن تاريخ مصر الحديث يبدأ بالحملة الفرنسية، ولكن المؤرخين المسلمين يعدون هذه الحملة بدءاً لانتشار الفساد، ودخول الوهن إلى منفوس.

الحملـة الفرنسية على مصـر :

انـطلقت الحملة من ميناء طولون الفرنسى في ذى القعدة ١٢١٢ هـ (أيار ١٧٩٧ م)، وكـانت تتكـون من أربعـين ألف جندى بقيادة نابليون بونابرت، فوصلت إلى الإسكندرية (خليج أبى قير) بعد شهرين، واستولت على المدينة، واستمرت الحملة في سيرها، فاستولت على دمنهور، ثم الرحمانية، ورشيد، ثم توجهت الحملة إلى القـاهرة بعد وقوع معركة فاصلة قرب الأهرام، وتقهقرت جيوش المماليك إلى الصعيد، ووزع نابليون منشوراً باللغة العربية بهدف توطيد نفوذه في مصر، وادعى بأنه جاء لينقذ المصريين من الحكام الظالمين، وأضاف أنه يحترم القرآن، وأن الناس جميعا متساوون عنده، كما ادعى أنه مسلم، وأن الفرنسيين أيضاً مسلمون. وواضح تماما أن هذا المنشور كان فيه تودد وتزلف من نابليون إلى شعب مصر. ولكن المؤرخ المصرى المعـاصر للحملة «عبـدالرحمن الجبرتى» كشف كذب نابليون وسوء نيته عندما وصف دخول الفرنسيين إلى الأزهر الذي انطلقت منه الثورة على هؤلاء: «وبعد هجعة من الليل، دخل الافرنج المدينة كالسيل، ومروا في الأزقة والشوارع كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من متاريس. . ثم دخل أولئك الوغود إلى الجامع الأزهر. وهم راكبون الخيول، ووجـوه من البـاب الكبـير، وخرجوا من الباب الثانى، حيث موقف الحمير، وداسوا فيه المشاة بالنعالات، وهم يحملون السلاح والبندقيات، وتفرقوا

في صحنـه ومقصـورتـه، وربـطوا خيولهم بقبلته، وعاشوا بالأروقة والحجرات. وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين الكتبة، ونهبوا ما وجـدوه من المتـاع والأوانى والقصاع والودائع. ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض، وداسوها بأرجلهم ونعالاتهم، وشربوا الشراب، وكسروا أوانيه، وألقوه بحصنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروة من ثيابه وأخرجوه، ووجدوا في بعض الأروقة إنساناً فذبحوه، ومن الحياة أعدموه، وفعلوا بالجامع الأزهر، ماليس عليهم بمستنكـر، لأنهم أعداء الدين، وأخصام متغلبون، وغرماء متشمتون، وضباع متكـالبون، وأجناس متباينون، وأشكال متعاندون. وتهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب، وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجاة بأنفسهم يطالبون، .وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع».

ومهما يكن من أمر، وبعد أن استقر نابليون في القاهرة، عمل على تنظيم جهاز يدير بواسطته أمور البلاد، فدعا كبار العلماء، وشيوخ الأزهر، والاعيان، وكلفهم اختيار أعضاء الديوان الذين كان عليهم مشاركته في الحكم، وبعد هذا الاجتماع تم الاتفـاق على تأليف الديوان من الشيخ السادات، والشرقاوى، والبكرى، والصاوى، والفيومى، والعريشى، والسيد عمر مكرم نقيب السادات الأشراف وغيرهم، غير أن نابليون اختلف مع هؤلاء الرجال في أمورٍ كثيرة منها الضرائب، والغرامات، وقطع رواتب الأوقاف للفقراء، ومصادرة الدور والمنازل، والمساجد. والمبانى الأثرية وهدمها، وانتهاك حرمة الأزهر، وتمزيق المصاحف إلى غير ذلك مما أثار هياج الشعب المصرى، فكانت ثورة القاهرة الأولى والتى نتج عنها تعطيل الديوان الوطنى، وإعدام المشايخ، ومصادرة أملاكهم. وفقد نابليون كل إمكانية للتعاون مع الشعب المصرى، وانتشرت الاضطرابات في باقى أنحاء القطر المصرى.

وفقدت الحملة الفرنسية كل أمل لها بالسيطرة على مصر بعد أن قضى على الأسطول الفرنسى في خليج أبى قير بالاسكندرية على يد الأسطول الانكليزي. هذا فضلاً عن تعاون الدولة العثمانية، وبريطانيا في القضاء على الحملة الفرنسية بالتعاون مع الشعب في مصر وفي بلاد الشام، حيث فشلت الحملة الفرنسية على

بلاد الشام، ولم تستطع احتلال «عكا» فتركها نابليون وعاد إلى فرنسا. وخلال وجود الحملة الفرنسية في بلاد الشام قامت ثورة القاهرة الثانية التي فشل نابليون في القضاء عليها فغادر البلاد إلى فرنسا سراً، وترك مكانه (كليبر) ليفاوض السلطة (الدولة العثمانية) بشأن الجلاء عن مصر، وتم توقيع اتفاقية العريش ١٢١٥ هـ (١٨٠٠م) بين فرنسا والعثمانيين إلا أن هذه المعاهدة لم تنفذ بسبب تدخل انكلترا وإصرها على جلائهم دون أسلحة، فرفض (كليبر) الذي قتل على يد سليمان الحلبى، وقامت انكلترا بالتدخل عسكرياً، فأجبرتهم على الجلاء في شهر ربيع الآخر ١٢١٦ هـ (أيلول ١٨٠١م). ولم يكن تدخل انكلترا في مصر لحماية الدولة العثمانية أو الشعب المصرى بقدر ما هو تحقيق لأطماعها في احتلال مصر والسيطرة عليها إما عن طريق المماليك الذين أصبحوا يؤيدونها، أو عن طريق احتلالها المباشر كما حدث في حملة «فريزر» ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧م) التي فشلت بسبب مقاومة الشعب المصرى لها. والذي لاتختلف عنه فرنسا عن انكلترا.

وبعد خروج الفرنسيين من مصر، بقيت القوات الانكليزية فيها مع بعض القوات العثمانية فحصل تسابق وتنافس بين المماليك والعثمانيين للاستئثار بالسلطة مما مهد السبيل أمام محمد على للاستيلاء على مصر، فالمماليك يعدون أنفسهم أصحاب الحق الشرعى وتساندهم بريطانيا للإفادة منهم، والعثمانيون كانوا يرون أنهم أنقذوا مصر من الفرنسيين بالقوة، وكانوا يرغبون في خروج الانكليز لتعود البلاد إلى حظيرة الدولة العثمانية. فاضطر الانكليز للخروج من مصر عام ١٢١٨ هـ (١٨٠٣م) بعد توقيع صلح «إميان» مع فرنسا، ولكنها عادت لاحتلال مصر كما أشرنا (١٢٢٢ هـ) غير أنها فشلت.

وكانت بعض آثار الحملة الفرنسية على مصر إيجابية مثل: معرفة النظام، والاتصال بالعلم، ووجود مطبعة، ورسم مصور لمصر، ومعرفة الأسلحة الحديثة، كما كانت هناك آثار سلبية منها: انتشار الخمر، والمجاهرة بالمعصية، والاعتداء على الحرمات، وكل ذلك غيّر من طبيعة الشعب وأفسد أخلاقه.

وهكذا عاد العثمانيون إلى مصر، وبدأوا بإبعاد أمراء المماليك عن الحكم، كما عينوا الولاة الواحد بعد الآخر، وكان آخرهم خورشيد باشا، ولكن أمراء الشعب انتخبوا محمد على ليكون والياً عليهم، وأجبروا السلطان العثمانى على أن يصدر

مرسوماً بتعيينه (محمد على) ليكون حاكماً على مصر وكان ذلك عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م)، فوافق السلطان على ذلك، وطلب زعماء الشعب من محمد على أن يحكم بموجب الشريعة، وأن يزيل المظالم والأعمال غير المشروعة، وأن لاينفرد بأعماله دون استشارة الشعب وزعمائه فوافق محمد على.

محمد على وبناء الدولة الحديثة في مصر :

تولى محمد على ولاية مصر عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥م)، واتسم عهده بانتهاج سياسة داخلية مختلفة عما سبقها، وأخرى خارجية. أما الداخلية فقد وطد سلطانه بادىء الأمر فقضى على المعارضين لحكمه من المماليك (مذبحة القلعة) والجنود الألبان. والأتراك وغيرهم (وأرسلهم في حملات عسكرية) وكذلك تخلص من زعماء الشعب فنفاهم إلى الصعيد وإلى دمياط وصادر ممتلكاتهم. ثم أخذ يعمل على إرساء نهضة ثقافية وعمرانية واسعة. غير أنها كانت نهضة افرنجية فقسم مصر إلى عدد من المديريات (سبع مديريات) وكل مديرية إلى عدد من المراكز، وكل مركز إلى عددٍ من الأقسام، وإنشاء الديوان العالى، ومجالس أخرى لكل إدارة من الإدارات: مجلس الحربية ومجلس الزراعة، والتعليم وغير ذلك، ويكون رؤساء المجالس مجلس الشورى ومهمته استشارية فقط. وقد احتفظ محمد على لنفسه بالرئاسة العليا، وأشرف على كل كبيرةٍ وصغيرةٍ مما حدا ببعض المؤرخين إلى أن يطلقوا على تاريخ مصر إذ ذاك عصر (محمد على).

كما اهتم بالتعليم، فأنشأ المدارس الابتدائية والتجهيزات (الثانوية) الحديثة، ثم المدارس العالية كالطب، والهندسة، والمدارس الحربية، بالإضافة إلى البعثات الخارجية. وكانت الحكومة تقدم الطعام، والمأوى، والرواتب للتلاميذ فأقبل الناس على التعليم الحديث بعد أن لاقى معارضة في بادىء الأمر، وأصدر جريدة رسمية للدولة هى جريدة (الوقائع المصرية) باللغتين العربية والفرنسية ومازال حتى اليوم بالهدف نفسه. وعنى محمد على كذلك بالزراعة فقام بمسح الأراضى الزراعية جميعها، وعد نفسه مالكاً للأرض، ووزع الأراضى الزراعية للفلاحين يزرعونها لحسابه، وأمدهم بالآلات والمواشى، وحدد هو نوع الزراعات التي يزرعونها واحتكر بيع المحاصيل، وأدخل زراعة القطن، وبدأ بإنشاء القناطر الخيرية، كما

أسس عددًا من المصانع لسد حاجة الجيش من سلاح وملابس، هذا فضلاً عن صنـاعـة النسيج، إضافة إلى نشاط التجارة الخارجية في عهده. واهتم كذلك بتأسيس جيش جديد على نمط حديث. ففرض التجنيد الإجبارى على الفلاحين المصريين، وأنشأ أسطولاً بحرياً قوياً. وهكذا دبت في مصر في عهده روح عامة أيقظت الأفكار، ودفعت العمل المستمر في جميع ميادين النشاط البشرى. وفي الوقت نفسه أبقت الفلاح عبداً للطغاة، وأوجدت فيه روح الذلة والانقياد الأعمى.

وفي مجال السياسة الخارجية، فقد كانت تراود محمد على أفكار وأمانى وأحلام بتكوين امبراطورية واسعة مستغلاً بذلك ضعف الدولة العثمانية، فكان له ذلك عندما كلفه السلطان العثمانى بالقضاء على الحركة الوهابية، فأرسل حملة عسكرية إلى الجـزيرة العـربية ١٢٢٦ـ١٢٣٤هـ (١٨١١ـ١٨١٨م) وقضت على الـدولـة السعودية الأولى، وأتبعها بحملة أخرى إلى السودان فأخضعته ١٢٣٥ـ١٢٣٧هـ (١٨١٩ـ١٨٢١م)، وأردفـهـا بحـمـلة ثالـثـة إلى اليونـان ١٢٣٨ـ١٢٤٣ هـ (١٨٢٢ـ١٨٢٧م)، وأخيراً أرسل حملة رابعة احتلت بلاد الشام وجزءاً من تركيا ١٢٤٧ـ١٢٥٦ هـ (١٨٣١ـ١٨٤٠م). وأحـرز انتصارات كاسحة وتكونت دولة واسعـة تحت حكمـه، وأثار ذلك مخاوف الدول الأوربية وعلى وجه الخصوص بريطانيا. فدعت هذه الدول إلى عقد مؤتمر في لندن. وتم توقيع معاهدة لندن ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، وفيها فرض على محمد على الانسحاب من جميع الأراضى التى احتلها، وإعادتها إلى الدولة العثمانية التى عجزت عن مقاومته. وإبقاء مصر ولاية وراثية له ولأولاده من بعده. وأرغم محمد على بالقوة بعد أن رفض شروط معاهدة لندن على الانسحاب وعاد إلى مصر. شريطة أن يتم تعيينه سنوياً من قبل السلطان العثمانى، وأن يسرح الجيش المصرى ويخفض عدده إلى ١٨ ألف جنـدى، وأن يلغى الصناعـات الموجودة في البلاد، وأن تسرى قوانين الدولة العثمانية على مصر باعتبارها ولاية عثمانية تتمنع باستقلالها الداخلى، وأن يدفع محمد على للدولة العثمانية عائدات سنوية قدرها «٤٠٠٠» ألف جنيه، وأن يضم السودان إلى مصر مقابل دفع ميزانية سنوية للدولة العثمانية.

وهكذا تحطمت أمانى وأحلام محمد على بتكوين دولة واسعة لأسباب منها:

وقوف الدول الكبرى الأوروبية ضد هذه الدولة لتهديدها مصالح تلك الدول، إضافة إلى سوء معاملة أهالى الشام من إبراهيم باشا.

وعلى العموم، فإن مصر في عهد محمد على أصبحت في القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) دولة كبيرة قوية شغلت السياسية العالمية بسياستها وغزواتها وأحداثها وأبدى الشعب قدرة عجيبة في الاستجابة للوعى والنمو والتطور والنهوض، فكان أن تآمرت الدول الغربية - كما أشرنا - على مصر وعمدت إلى حصرها ضمن حدودها بعد انتصاراتها الواسعة الكاسحة.

توفي محمد على عام ١٢٦٦هـ - ١٨٤٩م، وكانت مصر قد دخلت مرحلة تاريخية جديدة في حياتها السياسية والثقافية. وقد حاول خلفاؤه الاستمرار في النهضة، فلم يتمكنوا إذا لم يكونوا على المستوى الذي كان عليه من حيث الكفاءة والقوة والذكاء - عدا ابنه إبراهيم الذي لم يحكم سوى سبعة شهور - بل كان حفيده عباس الأول ١٢٦٦ - ١٢٧١هـ (١٨٤٩-١٨٥٤م) قاسياً شاذ الطباع سيء الظن بمن حوله حتى أسخط الجميع ومات مقتولاً، وكان عهده عهداً رجعياً قليل الإصلاحات حتى أنه ألغى بعض المدارس العالية، وكان ميّالاً للانكليز، ولم يكن خلفه (عمه محمد سعيد) يمتاز عنه كثيراً وإن كان محبا للاصلاح مستنيراً فقد كان ضعيف الإرادة سهل الانقياد، محبا للأجانب مشجعاً لهم على العمل في مصر (وخاصة الفرنسيين) متساهلا معهم إلى أبعد الحدود حتى أصبح عددهم في مصر أضعاف ماكان في عهد والده محمد على، إذ من المعلوم أن الطاغية يستطيع أن يرفع اسم بلده عالياً لكنه في الوقت نفسه يميت في شعبه العزة، ويعوده على المذلة فإذا انتهى الطاغية انهارت بلدة دفعة واحدة، كما أن جيشه إذا هزم في معركة لم يستطع بعدها مواصلة القتال.

ومنذ عهد محمد على كانت كل من فرنسا وانكلترا تتسابقان على الفوز بالسيطرة على طرق المواصلات المصرية لتربط مصير التجارة المصرية بالتجارة في بلادها، ولتسيطر على طريق التجارة بين الشرق والغرب، وكانت فرنسا ترغب في شق قناة السويس وعارضت انكلترا ذلك فأرادت مد خط حديدى بين الاسكندرية والسويس، وقد عرض المشروعان على محمد على غير أنه رفضهما. وبقيتا مصر في عهد عباس وسعيد مسرحاً للتنافس الانكليزي - الفرنسى ، وكان الأول ميالاً

للانكليز والثـانى ميالاً للفرنسيين. وقد استطاعت بريطانيا بفضل نفوذها على عبـاس أن تحصـل منـه على امتياز سكـة حديد الاسكندرية ـ السويس، كما استـطاعت فرنسا في عهد سعيد باشا بالحصول على امتياز حفر قناة السويس ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) والـتي بدىء بتنفيذ المشروع فيهـا منـذ عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م)، وقد تحمل مصر أكبر قسط من نفقاته، كما اشترت القسم الأعظم من الأسهم (١٧٧,٦٤٢) سهماً من مجموع (٤٠٠) ألف سهم. وقد جر هذا المشروع على مصر الاحتلال الانكليزي. وكانت مدة امتياز القناة ٩٩ سنة.

على أن الخـديوى اسماعيل ١٢٨٠-١٢٩٧هـ (١٨٦٣-١٨٧٩) الذي خلف سعيداً حاول تعـديل شروط امتياز القنـاة فأخفق في الوصول إلى نتيجة تخدم المصلحة الوطنية. لكنه حصل من السلطان العثمانى على شروط وراثة العرش، وحق مصر في زيادة قواتها البرية والبحرية دون تحديد. فاندفع إسماعيل في تقوية الجيش وتسليحـه وزيادة عدده، والتـوسـع في التعليم، وقيام نهضـة عمرانية، وتـطلبت كل هذه المشروعات والمنشآت أموالاً ضخمة اقترضها من الأجانب، وكانت وسيلةً من وسائل التدخل الاستعمارى في شؤونها الداخلية ويعد الخديوى إسماعيل هو المسؤول عن الديون المصرية، لأنها أنفقت إلى جانب المشروعات الحيوية على أعمال لا مسوغ لها، إقامة حفلات، إنشاء قصور، ودور الصور، والقيام بالسياحة إلى أوربا، وإقام الحفلات [حفلة افتتاح قناة السويس ١٢٨٦هـ (١٨٦٩م)] ورشـوات وهدايا للسلطان العثمانى، إلى غير ذلك ولم يصرف من مجمـوع الـديون (٩٨ مليون) سوى ٣٩ مليوناً للأعمال العامة جسور، سكك حديدية، مصانع، حفارات وغير ذلك في حين لم تتعد ميزانية مصر (١٠ ,٥) مليون جنيه.

عمد الخديوى إسماعيل إلى إرهاق الشعب المصرى بالضرائب لسداد الديون، ورهن معـظم موارد البـلاد لدى الأجانب مما أتاح لهم السيطرة على الاقتصاد المصرى. وعندما بلغت الضائقة المصرية المالية حدها ١٢٩٢هـ (١٨٧٥ م) قام إسماعيل بطرح حصة مصر من أسهم القناة للبيع بثمن بخس (أقل من ٤ مليون جنيه)، وترتب على ذلك أن أصبحت انكلترا التى اشترت الأسهم هى صاحبة الكلمة العليا في شؤون القناة. ومع ذلك فلم تحل المشكلة المالية، وتزعزعت ثقة

البيوت المالية الأوربية بالحكومة المصرية، فاضطر الخديوى إسماعيل أن يقبل بإنشاء صندوق الدين الذي تقوم على إدارته لجنة ثنائية فرنسية ـ انكليزية مهمتها مراقبة مالية البلاد واستيفاء الديون، وكان قبوله بذلك اعترافاً منه بشرعية التدخل الأجنبى ، وقد ثبت بالفعل أن اللجان الثنائية أصبحت تتدخل في تعيين الوزراء أو عزلهم مع تعيين الموظفين الأجانب برواتب ضخمة. وفرضت الدولتان انكلترا وفرنسا أن يكون لهما إسهام في الوزارة المصرية، فشكل (نوبار) باشا وزارة مختلطة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) كان من بين أعضائها وزير انكليزي للمالية وآخر فرنسى للأشغال.

ولكن هذه الوزارة لم تخلص في إصلاح حالة البلاد المالية، فأحالت ٢٥٠ ضابطاً على التقاعد فقام هؤلاء بمظاهرة أمام الوزارة المالية مطالبين برواتبهم المتأخرة وإعادتهم إلى الجيش، وضربوا نوبار باشا، وناظر المالية الانكليزي وأهانوهما، مما دفع إسماعيل إلى إقالة الوزارة وإلى تكليف نجلة الأمير توفيق تأليف وزارة جديدة ـ بقى فيها الوزيران الأجنبيان ـ وبقيت لهما سلطتهما السابقة في رفض كل قرار تصدره الوزارة ولا يوافقان عليه، وانتهى بالوزير الانكليزى أن أصدر قراراً مالياً بإفلاس الحكومة المصرية وعدم قدرتها على تسديد ديونها.

تولى إسماعيل الذعر من النفوذ الأجنبى، واستعان ضده بالحركة الوطنية النامية التي ارتفع شأنها وازداد خطرها بسبب التدخل الأجنبى، وتجاوبت معه نفوس أبناء الشعب الواعية ممثلة في مجلس شورى النواب الذي أحدثه إسماعيل سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) وتحركت العواطف الوطنية، واتفقت الآراء على ضرورة إسقاط الوزارة المختلطة وتأليف وزارة مصرية بحتة، فعقد زعماء الحركة الوطنية اجتماعاً أسفر عن تقديم مجلس الشورى عريضة إلى الخديوى شرحوا فيها الوضع، وكذبوا إدعاء الوزير الانكليزى بعدم قدرة مصر على الوفاء بديونها، فما كان من إسماعيل إلا أن استجاب لطلبهم، وألفت وزارة جديدة برئاسة شريف باشا جميع أعضائها من المصريين فبدأت بإصلاحات منها: وضع دستور للبلاد أصبح الوزراء بمقتضاه مسؤولين أمام مجلس النواب، ومنها تنفيذ مشروع التسوية المالية الذي اقترحة مجلس شورى النواب. وكان من نتيجة ذلك أن انكلترا وفرنسا قد حملتا السلطان العثماني على إصدار مرسوم بعزل إسماعيل وتعيين ابنه توفيق مكانه في عام ١٢٩٧هـ .

تولى الخديوى توفيق الحكم ١٢٩٧ـ١٣١٠هـ ، ولكنه كان ضعيف الشخصية متخاذلاً عديم الهمة، مستسلماً للنفوذ الأجنبى، وقد عاد التسلط الاستعمارى في زمنـه إلى سابق عهـده من التحرك وتهديد سلامة البلاد. فلما تسلم العرش، واستقالت وزارة شريف باشا طلب من شريف نفسه إعادة تأليفها بشرط أن تحكم وزارته بمقتضى دستور جديد، ولكن الخديوى رفض ـ بتحريض من قناصل الدول الأجنبية ـ مشروع الدستور الذي تقدم به شريف، وكان يقضى بأن يكون للمجلس رأى فى إدارة البلاد. فاستقال شريف باشا وألف رياض باشا وزارة جديدة حكمت البلاد حكماً مطلقاً، وأهملت مجلس شورى النواب وحجرت كل الأفكار، وكمت الأفواه، ولاحقت الحركة الوطنية بالتنكيل.

وساءت علاقة توفيق بالشعب، إذ أقصى ممثليه وكل موظف مدنى حرم من عمله في إدارة الحكم، واتبع طريقة الحكم المطلق، وسمح بعودة المراقبة الثنائية الأجنبية فاشترطت فرنسا وانكلترا عدم فصل المراقبين دون موافقة حكومتيهما، وبهذا تطورت المراقبة من شكلها المالى إلى شكل سياسى ينافى سيادة الحكومة المصرية. وقد وافق توفيق على تكوين لجنة لتصفية الديون ليس فيها سوى مندوب مصرى واحـد، فقررت اللجنة وجوب إصدار «قانون التصفية» الذي يقضى بتقسيم ايرادات الدولة إلى قسمين: قسم تتصرف به الحكومة المصرية لشؤونها الخاصة، وقسم يخصص لتسديد أقساط الدين وفوائده.

وهكذا أخذ تدخل الأجانب في شؤون مصر الداخلية يزداد على مر الأيام حتى غزت المؤسسات الأوربية المالية والاقتصادية أرض مصر. فأنشأت فيها شركات لتكـرير السكـر وللمقاولات والمصرف العقارى برؤوس أموال أجنبية مما جعل المصريين عاجزين عن منافسة الأوروبيين في الميادين الاقتصادية لأن هؤلاء يتمتعون بامتيازات خاصـة. وأصبحت مصر مرتعـاً للأجانب يسرحون فيها ويمرحون. وأصبحت وظائف الدولة وقفاً عليهم، ترى فيها كثيراً من الأوروبيين وقليلاً من المصريين.

وأدرك النابهون من الشعب المصرى ما يراد بوطنهم من شر، فاضطرمت في نفوسهم عوامل الحقد على الوضع القائم، وازداد شعورهم بحقوقهم واستعدادهم للمـطالبـة بها، ولاسيما أن الرأى العام المصرى كان قد تكون في أواخر عهد

إسماعيل، وقد ساعد على تكوينه رؤية الحقد الصليبي عند الأوربيين وانتشار التعليم، والصحف اليومية بين الأهالى فأدركوا ما للشعب من حقوق. هذا إلى وجود زعماء مفكرين (الشيخ جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده) اتصلوا بالشعب عن طريق التدريس والصحف، وبدآ ينشران تعاليمها عن الحركة الدستورية ومكافحة الاستعمار فقبلها الكثير من أبناء الشب. كل هذه العوامل التى ذكرناها كانت مقدمات للثورة العرابية. غير أن السبب المباشر للثورة يعود إلى اضطهاد الضباط المصريين في الجيش والتمييز بينهم وبين غيرهم من الضباط الأجانب، وقصر الترقيات على الضباط الأجانب والدخلاء دون المصريين وإنقاص عدد الجيش وعدم انتظام دفع رواتب أفراده. وأثار ذلك حنق رجال الجيش واستياءهم من إهمال الحكومة واضطهادها للأحرار، فتجاوبت نفوسهم ومشاعرهم مع مشاعر الشعب وكانت بداية الثورة العرابية.

الثورة العرابيـــة :

تزعم الحركة الوطنية الضابط أحمد عرابى الذي اتفقت آراء زملائه على إنابته مع اثنين من رفاقه (عبدالعال حلمى، وعلى فهمى) في تقديم عريضة إلى الحكومة تتضمن عزل وزير الحربية وإنصاف الضباط الوطنين. ولما عمد رئيس الوزارة إلى اعتقالهم وشرع في محاكمتهم أمام مجلس حربي، اقتحم رجال الجيش مكان المحاكمة وأخرجوهم وساروا معاً في مظاهرة إلى قصر عابدين، وطلبوا من الخديوى عزل وزير الحربية (عثمان رفقي باشا) فلم يسعه إلا قبول طلبهم وعين مكانه محمود سامى باشا البارودى، لكن رياض باشا رئيس الوزراء الذي انزعج من حركة الضباط أخذ يكيد لهم وينتهز الفرصة لعقابهم مما أدى إلى استقالة البارودى. حينئذ قرر الضباط إسقاط الوزارة، فأخذ أحمد عرابى في الاتصال بنواب البلاد السابقين وزعماء الحركة الوطنية، وحصل منهم على توكيل بالمطالبة بالدستور.

وفي ١٢٩٨هـ (٩ أيلول ١٨٨١م) نظم الضباط والجيش مظاهرة رافقتها جماهير الشعب على الجانبين، وسارت إلى قصر عابدين حيث تقدم أحمد عرابى من الخديوى مطالباً إياه بإقالة الوزارة، وإعادة الحياة الدستورية، والدعوة الى

انتخاب مجلس نيابى جديد، وزيادة عدد أفراد الجيش، كما نصت عليه المراسيم السلطانية (١٨ ألف جندي). فردَّ الخديوى ردًا جافاً قاسياً مهيناً حينما قال: «ما أنتم إلا عبيد إحساناتنا ولا حق لكم بهذه المطالب» فأجابه عرابى على الفور: «متى استعبدتهم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحراراً.. نحن لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم». وأعلن عرابى أنه لن يغادر المكان حتى تجاب مطالب الشعب، فاضطر الخديوى إلى الإذعان وكلف شريف باشا تأليف الوزراة الجديدة.

وقدم شريف باشا دستوراً جعل الوزارة مسؤولة أمام المجلس ونص على حق النواب في سنَّ القوانين وفرض الضرائب. فوافق عليه الخديوى وأجريت الانتخابات لمجلس النواب الذي انعقد في ١٢٩٨هـ (تشرين الثاني ١٨٨١م). وعندما عرض الدستور على المجلس اختلف النواب مع رئيس الوزراء على نصوصه، إذ لم يكن يعطى المجلس حق مناقشة الميزانية خوفاً من الاصطدام مع لجنة المراقبة، فأعلن النواب تمسكهم بهذا الحق، وأعلنوا في الوقت نفسه احترامهم لالتزامات الحكومة فيما يتعلق بالديون.

ولما اطلعت فرنسا وانكلترا على هذه التطورات أصابهما الذعر خوفاً على مصالحها الاستعمارية، فأرسلتا مذكرة مشتركة إلى الخديوى تعرضان عليه المساعدة ضد المجلس إذا اقتضى الأمر. وقبل توفيق المذكرة أملاً في الانتصار على الحركة الوطنية معتمداً على الدول الأجنبية، الأمر الذي أثار مشاعر النواب وسخطهم فأعلنوا تمسكهم بحقهم وإصرارهم عليه. ولما أصر رئيس الوزراء على معارضتهم حملوه على الاستقالة وشكل وزارة ثورية برئاسة محمود سامى البارودى تولى أحمد عرابى فيها وزارة الدفاع.

قدمت الوزارة الجديدة مشروعاً إصلاحياً شاملاً واقترحت تعديل الفقرة الخاصة بالميزانية من الدستور بشكل يجعل للمجلس حق النظر في الميزانية باستثناء قسمها المخصص لتسديد الديون الأجنبية للحيلولة دون التدخل الأجنبى في الشؤون الداخلية المصرية. فأقر المجلس هذا التعديل، وأصدر الخديوى مرسوماً باعتماد الدستور ١٢٩٩هـ (١٨٨٢م).

لكن انكلترا وفرنسا عارضتا ذلك، وعملت انكلترا على إثارة الفتن والقلاقل

في مصر لكى لاتفلت مصر من يدها، فحرضت الخديوى على رفض مطالب الوزارة (الدفاع) وخاصة عندما سرح عرابى عدداً من ضباط الجيش غير الوطنيين وأحال بعضهم إلى المحاكمة. وهكذا تجدد الخلاف بين الوزارة والخديوى، مما حدا بانكلترا وفرنسا إلى إرسال أسطوليهما إلى مياه الاسكندرية دعما للخديوى الذي تلقى منهما مذكرة تشجعانه فيها على ضرب الحركة الوطنية، وإبعاد عرابى، ونفى الضباط الأحرار إلى الأرياف. وقد استجاب الخديوى للمذكرة، فاستقالت الوزارة احتجاجاً على موقفه. وانتقل الخديوى توفيق إلى الاسكندرية ليكون تحت حماية الأسطول الانكليزي الذي أعدته بريطانيا لاحتلال مصر، ورفضت فرنسا مشاركتها في ذلك بعد أن تبين لها أطماع انكلترا في احتلال مصر دون مشاركتها.

لكن عرابى أعلن الثورة على الخديوى الذي لقى دعماً من السلطان العثمانى، فقصفت المدفعية البريطانية مدينة الاسكندرية وقاوم الشعب في مصر مقاومةً باسلةً، غير أن الانكليز تمكنوا من التغلب على المصريين واحتلوا المدينة. وانسحب أحمد عرابى وجيشه إلى (كفر الدوار) جنوب الاسكندرية حيث أقام تحصينات منيعة استطاعت الصمود وردت الانكليز على أعقابهم. فاتجه الأسطول الانكليزى إلى قناة السويس. وقد أخطأ عرابى في عدم ردمها وصدق وعود بعض الانكليز من أنهم لن يستخدموا القناة في القتال مراعاة لحيادها. ومع ذلك فقد اجتاز الأسطول الانكليزى القناة، وأنزل قواته في الاسماعيلية، ومنها تقدم إلى التل الكبير حيث استطاع عرابى أن يصل إليه مع الجيش المصرى، وأقام فيها على عجل بعض التحصينات. وهناك دارت معركة غير متكافئة في الاستعدادات الحربية تغلب فيها المستعمرون على المقاومة المصرية ودخلوا مصر، رمضان ١٢٩٩هـ (أيلول ١٨٨٢م) وكانت بداية الاحتلال البريطانى والذي استمر قرابة خمسة وسبعين عاماً.

الاحتلال الإنكيزي لمصـــر :

بعد أن تغلب الانكليز على الجيش المصرى ودخلوا مصر، عقدوا محكمة عسكرية حكمت على عرابى ورفاقه بالإعدام، ثم خُفّف الإعدام إلى النفى المؤبد، وقد قضوا على الحركة الوطنية وسيطروا على كل شيء في مصر (عسكريًا،

وسياسيًا، وإداريًا، واقتصاديًا، وماليًا، واجتماعيًا). **فمن الناحية العسكرية**، حلّوا الجيش الوطنى وشكلوا جيشاً صغيراً قوامه ٩ آلاف جندى تحت قيادة انكليزية وانحصرت مهـامة في حفظ الامن، والقضاء على الحركة الوطنية، وكبح جماح الثـورات والانتفـاضـات الـوطنية. ومن النـاحية السياسية، قضـوا على الحياة الـدستـورية فحلّوا مجلس النـواب واستعـانـوا عنـه ببعض الهيئـات كمجالس المديريات، ومجلس شورى القوانين، والجمعية العمومية على أن تكون قراراتها استشارية فقط وغير ملزمة. وأما الوزراء فقد أصبحوا طوع إرادة الخديوى الذي اتبع أسلوب الحكم المطلق وعليهم من ينفذوا الأوامر التي تصدر إليهم منه بناء على وحي تعليمات من المعتمـد الـبريطانى في مصر (الملك غير المتوج) اللورد «كرومر». **ومن الناحية الإدارية**، أبقى الأنكليز التقسيمات الادارية السابقة، غير أنهم نزعوا من حكام المديريات حقهم في الإشراف على قوات الشرطة وألحقوها بوزارة الداخلية ليشرف عليها مفتش الوزارة العام (انكليزي). إذ جعلت بريطانيا إلى جانب كل وزير مستشاراً إنكليزياً يملي عليه أوامر المعتمد البريطانى، ومفشتاً عامـاً انكليزياً يشرف على أمـور الـوزارة، كما أصبحت معظم الوظائف الهامة والعـالية بيد المـوظفـين الإنكليز. **ومن النـاحية المالية والاقتصادية**، فقد ألغى الانكليز نظام المـراقبـة الثنـائية، وأصبحت الأمور المالية تحت إشراف المراقب الانكليزي الذي أصبح مستشاراً مالياً للحكومة المصرية، الأمر الذي دعا إلى احتجاج فرنسا على هذا التدبير. ومع ذلك أصبحت المراقبة المالية لمصر تحت النفـوذ الـبريطانى المبـاشر. وقد عمل الانكليز على ربط اقتصاد مصر بعجلة الاقتصـاد الـبريطانى عن طريق ترقية إنتاج المحاصيل الزراعية وخاصة القطن لتزويد المصانع الانكليزية به، وإهمال الصناعات الوطنية كى تصبح مصر سوقاً لتصريف المنتجـات الانكليزية، ولم يهتموا بالتجارة إلا بمقدار مايكفى سهولة تصـدير المـواد الأولية إلى انكلترا الأجنبية بإقـامة الشركات والمصانع والمصارف الأجنبية في البلاد، واستغلال ثرواتمصر لصالحها.

وكـانت سياسـة بريطانيا من **الناحية الاجتماعية**، تقضى بتشجيع الانحلال الخلقى في مصر، وإهمال التدابير التى تحول دون انتشار الربا والبذخ، وشرب الخمر، فكثرت المفاسد الاجتماعية. وإضافة إلى ما تقدم فقد رسمت بريطانيا

سياسة للتعليم ترمى إلى الحد من توسعته، وإلى تحويله إلى جهة تخدم مصلحتهم الاستعـمارية بحسب منـاهـج مرسومة لتقوية اللغة الانكليزية، وإهمال التاريخ الإسلامي وتعديله وفق مصلحتهم، وإهمال اللغة العربية والدين الإسلامى، كما أكثروا من المدرسين الانكليز.

وإضافة إلى كل ما تقدم حول السياسة الانكليزية التي اتبعت في مصر، فقد عمدت بريطانيا إلى قتل الروح الوطنية لدى الشعب المصرى، إذ حجرت على حرية الفكر، ولاحقت الوطنيين الشرفاء بالاعتقال، والسجن، والنفى، والتنكيل، وحرمتهم من وظائف الدولة، وفرضت رقابة شديدة على النوادى، والصحف، والاجتماعات بحيث لم تجرؤ على انتقاد تصرفات سلطات الاحتلال. ومع كل ذلك فقد فشلت جميع محاولاتها في قتل الروح الوطنية لدى الشعب في مصر. وإذا كانت الروح الوطنية قد استكانت خلال حكم الخديوى توفيق ١٢٩٧-١٣١٠هـ (١٨٧٩-١٨٩٢م) إلا أنها عادت إلى ظهور بمجىء الخديوى عباسى حلمى الثانى.

استأنف الشعب المصرى نضاله الوطنى عندما تولى الحكم الخديوى عباس حلمى الثـانى ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) خلفاً لوالده توفيق، وكان الخديوى عباس متعاطفاً مع الوطنيين. فقد اختلف الخديوى عباس حلمى مع الانكليز مرتين: المرة الأولى عام ١١٣١هـ (١٨٩٣م) وكانت الأزمة الأولى عندما أقال مصطفى فهمى رئيس الحكومة المصرية الذي عرف بمسايرته للانكليز، وعيّن محله حسين فخرى باشا المعروف بروحه الوطنية. ويقال إن سبب ذلك عندما وقع بين يدى الخديوى منشور موجه من موظف بريطانى في وزارة الداخلية إلى الموظفين في الأقاليم، يطلب مهم أن يوجهوا رسائلهم إلى مدير البوليس البريطانى لا إلى وزير الـداخلية المصرى، فانـزعج الخديوى عباس من ازدياد النفوذ البريطانى وحمل المسؤولية لمصطفى فهمى، فأقاله وعين محله حسين فخرى. وعندما علم كرومر بذلك أبرق إلى لندن، ثم أمر عباس باستبعاد حسين فخرى، واستعادة مصطفى فهمى. وتمسـك كل من الطرفين برأيه، وأخيراً انتهت الأزمة بحل وسط وهو استبعاد حسين فخرى واستبدال رياض بمصطفى فهمى، ويوعد من الخديوى بأن يأخذ ويعمل بنصائح بريطانيا في جميع الأمور المهمة مستقبلاً.

أما الأزمة الأخرى، فقد حدثت في ١٣١٢هـ منتصف كانون الثانى (١٨٩٤م) في الصعيد، عندما كان الخديوى يستعرض الجيش المصرى بوجود السردار (القائد العام) هربرت كتشنر قائد الجيش، فوجه الخديوى بعض الملاحظات الفنية على مسمع من الضباط الانكليز وكذلك وجه بعض الملاحظات عندما كان يزور المستشفى وانتقد المترجم الذي يتكلم اللغة العربية برطانة انكليزية. وتطورت الأزمة في (وادى حلفا) عندما كرر عباس انتقاده لفرقة الجيش السودانى ولبعض البريطانيين عندما كان يستعرض مع «كتشنر» فرقة سودانية. وقد أثار هذا كله «كتشنر»، وهدّد بالاستقالة، ثم أخبر اللورد كرومر الذي أبرق إلى لندن، وبعد مشاورات واتصالات انتهت الأزمة باستجابة الخديوى لمعظم الشروط التي وضعها الانكليز، فأصدر بياناً أثنى فيه على الجيش والضباط الانكليز، كما أصدر مرسوماً بنقل «ماهر» من وزارة الدفاع الى محافظة القناة.

كان الوطنيون المصريون يدعمون الخديوى عباس ويشدون أزره، وقد كان من نتيجة ذلك أن بعثت الحركة الوطنية مرة أخرى، وذلك بجهود جمال الدين الأفغانى، وتلميذه الشيخ محمد عبده، اللذان لعبا دوراً في توعية الشعب في مصر، وتعبئة شعوره الوطنى، بفهمه للإسلام.

وزاد انتعاش الحركة الوطنية بظهور مصطفى كامل على مسرح السياسة المصرية. ومصطفى كامل شاب مصرى أنهى دراسته الثانوية في مصر، ثم رحل إلى فرنسا وأتم دراسة الحقوق في طولون ١٣١٢هـ (١٨٩٤م). وقد بدأ مصطفى كامل عملة الوطنى منذ أن كان طالباً في مصر بالمدرسة الثانوية. إذ كان ينشر في مجلة المدرسة مقالات تتعلق بالقضايا الوطنية وجعل شعارها حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك، كما ألف جمعية أدبية عملت على تشجيع الكتابة والخطابة لإضرام الروح الوطنية بين الشبان. ثم تابع نشاطه هذا وهو طالب في كلية الحقوق في فرنسا، وهناك اتصل ببعض المعتدلين من الفرنسيين والمفكرين والأدباء والصحافيين والسياسيين، وشرح لهم قضية بلاده وأطماع الاستعمار البريطانى، فسهّلوا له اتصالاته، والتنافس الاستعمارى بين الدولتين قائم ومعروف، ونشر في صحفهم مقالات متوالية، شارحاً تعسف الانكليز مستنكراً سياستهم وأساليبهم، ومطالباً بجلاء الانكليز عن مصر. وقد استطاع مصطفى كامل أن يثير هذه

القضية على الصعيد العالمى، وأن يكسب الرأي العام الأوروبى إلى جانب مصر.
وقـد واصـل عمله بعد رجوعه إلى مصر، وحصر مطالب الشعب في أمرين: «الجـلاء والـدستور»، وأصدر جريدة «اللواء» اليومية باللغة العربية إلى جانب صحيفتين أخريين باسم «اللواء» أيضاً تصدران بالفرنسية والانكليزية.

وتجلّى نضاله ونضال من التف حوله من الشبان المصريين في الخطابة وكتابة المقـالات في الصحف المحلية، والأجنبية باذلاً أقصى الجهود في جذب اهتمام الرأى العام العالمى نحو عدالة القضية المصرية، وجعل همه التنديد بالاستعمار ومساوئه ومطالبة الانكليز بتحقيق وعودهم في الجلاء، متخذاً شعاراً وطنياً «مصر للمصريين». واتخذ من بعض الأحداث سبباً في إلهاب الشعور الوطنى وتأجيجه، وأهم هذه الأحداث الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٤م) فطالب الشعب المصرى الاعتماد على نفسه في النضال وقال في هذا المجال: «إن الأمم لاتنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها وإن الشعب كالفرد لايكون آمناً إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع عن الشرف والمال والحياة».

كما استفاد من حادثة «دنشواي» ١٠ ربيع الثانى ١٣٢٤هـ (١٣ تموز ١٩٠٦م) تلك المأساة التي تعتبر من الحوادث المهمة في تاريخ مصر، والتي كشفت عن وحشية الانكليز وحقدهم بشكل لامثيل له في قرية «دنشواي» التي ذهب ضحيتها كثير من رجال القرية على أعواد المشانق ضحية التعسف الانكليزي. وتتلخص حادثة دانشواي بأن خمسة من الضباط الانكليز يصطادون الحمام في دنشواي في موسم الحصاد وأخذ أحدهم يطلق الرصاص فوق البيدر (الجرن) فأصيبت زوجة صاحب البيدر، ومـاتت، واشتعلت النـيران في المحصـول، فلم يتمالك أهلها وأقاربها أعصابهم، وهاجموا الضباط وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها بعض الأهالى، ففر الضباط مسرعين في حر الظهيرة، ومات أحدهم بضربة شمس. فتشكلت محكمة بريطانية للتحقيق، فحاكمت عددًا كبيرا من الأهالى، وحكم بإعدام أربعة منهم، وحكم بالسجن على عدد آخر من أهل القرية، وجلد عدد آخـر. وقـد نفذت أحكام الشنق بالمحكوم عليهم على مرأى من ذويهم وأبناء بلدتهم، وظلت جثث الذين شنقوا معلقة مدة طويلة، كما جلد من جلد بقسوة

ووحشية أمام أهل قريتهم وأهليهم، وعلى مسمع من عويل نسائهم، ونحيب أطفالهم.

أثار ذلك الرأى العام المصرى، وعم الهياج في جميع أوساط الشعب في مصر، وأبدى سخطه على الاحتلال البريطانى. وعرف مصطفى كامل ورفاقه الوطنيون كيف يوجهون المعركة السياسية بحيث توصلوا الى تحريك الضمير العالمى، فثارت ضجة استنكار في مجلس العموم البريطانى كان من نتيجتها استقالة اللورد كرومر المعتمد البريطانى الذي كبل الشعب بالقيود من أول أيام الاحتلال.

وتردد مصطفى كامل على الآستانة ليتخذ من الدولة العثمانية عوناً له للتخلص من الاحتلال لأنها صاحبة السيادة الاسمية على البلاد، غير أن الدولة العثمانية كانت أضعف من أن تقاوم الحكومة الانكليزية.

وفي عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) أسس مصطفى كامل «الحزب الوطنى» وكانت أهم مبادئه استقلال مصر الداخلى وفق معاهدة ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، وجلاء الانكليز عن البلاد، وإيجاد دستور للبلاد، واحترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية، وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية، ونشر التعليم على أساس وطنى، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة، وبث الشعور الوطنى بين طبقات الشعب، والعناية بالشؤون الصحية، وبث روح المحبة بين المصريين والأجانب، وتقوية العلاقات بين مصر والدولة العلية العثمانية.

على أن المنية لم تمهل مصطفى كامل لتحقيق مايصبو إليه من تحرر وجلاء، فتوفى سنة ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وخلفه في زعامة الحزب الوطنى «محمد فريد».
فواصل الزعيم المصرى محمد فريد النضال وحمل على الحكم الاستبدادى وسياسة الشدة والبطش والنفى التي لجأت اليها الحكومة الانكليزية، ودعا إلى الاستقلال والجلاء والحياة الدستورية وحث الشعب على المقاومة. ونجح في إحباط محاولة الانكليز بمد مدة امتياز قناة السويس، حيث هب الشعب المصرى وقام بالمظاهرات الصاخية، وشنت الصحافة المصرية حملة شعواء على سلطات الاحتلال، فأحرزت الحركة الوطنية نصراً ساحقاً. واستمر الشعب في نضاله حتى اضطرت سلطات الاحتلال إلى تأليف «جمعية تشريعية» تحل محل مجلس شورى

القوانين، والجمعية العمومية اللتان أقامها الاستعمار بدلاً من المجلس النيابى، ونتيجة لذلك تعرض محمد فريد للاضطهاد، وسجن ثم أجبر على مغادرة البلاد، فواصـل الـدفاع عن قضية بلاده عدة سنين في أوربا منادياً بحقوقها، شارحاً أوضاعها، مطالباً بزوال الحكم الاستبدادى، وظل محمد فريد يكافح في أوربا حتى توفي في سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وقد أنفق ماله كله في سبيل قضيته.

وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ١٣٣٣هـ (١٩١٤م)، انتهزت انكلترا انضمام تركيا إلى ألمانيا، فأعلنت الأحكام العرفية، وأعلنت كذلك الحماية البريطانية على مصر، وخلعت الخديوى عباس الثانى وعينت مكانه الأمير حسين كامل ـ النجل الثاني للخديوى إسماعيل ـ الذي قبل العرش ولقب بالسلطان حسين كامل. وقد ذهل الشعب لإعلان الحماية، وقام بالقاء قنبلة على السلطان الجديد ولكنها لم تصبه، ثم منعت انكلترا الاجتماعات، وضيقت على الصحافة، وفرضت أسعار الحاجيات ارتفاعاً كبيراً، وعزلت مصر عن العرب، ونكلت بالأحرار وزجتهم في ـ السجون والمعتقلات، وجندت الآلاف من الشبان لخدمة الجيش الانكليزي المحارب وأجبرتهم على حفر الآبار، ومد أنابيب المياه، وتعبيد الطرق الحربية إلى غير ذلك من الأعمال التى أحس بوطأتها الشعب في مصر بكافة طبقاته فكان لابد من قيام الثورة.

ظنت بريطانيا أنها قضت على الحركة الوطنية في مصر، ولكنها انبعثت من جديد بمجرد انتهاء الحرب في مطلع عام ١٣٣٧هـ (١١ تشرين الثاني ١٩١٨م)، وتوقيع الهدنة بين الأطراف المتحاربة، فدعا الوطنيون الأحرار إلى عقد اجتماع في ٦ صفر ١٣٣٧هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩١٨م)، وقرروا ضرورة الاتصال بالعالم الخارجى، والمطالبة بالتخلص من الحماية البريطانية، والإصرار على الاستقلال والحرية، كما قرر المؤتمرون أن يختار الشعب ممثلين عنه للسفر إلى باريس لعرض قضية بلادهم على مؤتمر الصلح الـذي سيعقـد في (كانون الثاني ١٩١٩م). فاختاروا قيادة شعبية ـ حسب ظنهم ـ كان في طليعتها: سعد زغلول، وعلى شعراوى، وعبدالعزيز فهمى. وقابل الوفد المعتمد البريطانى وطلبوا إليه السماح لهم بالسفر إلى باريس، ولكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك ومنعتهم من السفر. فقوبل هذا الرد بالاستنكار من كافة الشعب. وأبرق سعد زغلول محتجاً

إلى الرئيس الأمريكي «ولسن» في ١٣٣٧هـ (١٤ كانون أول ١٩١٨م) الذي نادى بحق الشعوب في تقرير المصير، واحتج على منع الانكليز الوفد من السفر، وطالب بإلغاء الحماية البريطانية على مصر، فلم يتلق جواباً. وقد كان سعد زغلول أيام «كرومر» وزيراً للحقانية، ثم غدا عام ١٣٣٢هـ وزيراً للمعارف والحقانية معاً، ونائباً عن القاهرة، وترقى في المناصب وشغل عدداً منها في ظل الاحتلال.

وازدادت الحماسة الوطنية والوعى الشعبى. وعقدت اجتماعات بين الشعب وقادته، وجمعت عرائض توكيل وقعها آلاف من المواطنين وكانت تلح على ضرورة سفر الوفد لإسماع صوت مصر في حق تقرير مصيرها في مؤتمر الصلح. ولكن بريطانيا لم تستجب لرغبات الشعب، بل عملت على كبح جماحه والقضاء على حركته الوطنية في مهدها، فاعتقلت أربعة من زعماء البلاد، هم سعد زغلول، وإسماعيل صدقى، ومحمد محمود، وحمد الباسل ونفتهم إلى جزيرة «مالطه»، لكن هذا الإجراء أسفر عن غضبة شعبية أدت إلى ثورة عارمة شعارها الاستقلال التام، وفي الوقت الذي كانت تعمل بريطانيا فيه ضد الحركة الوطنية كانت تبرز أعضاء الوفد بعملها هذا فيزداد مركزهم بين الشعب.

وكانت هذه الثورة، ثورة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) أول ثورة شعبية في البلاد العربية على الاستعمار، كما كانت بداية لثورات متتالية في الشام، والعراق، على الفرنسيين والانكليز. وقد شارك الشعب في مصر بكافة فئاته في الثورة، فقد اتخذت الثورة طابعاً عنيفا ومسلحاً، فثارت المدن والقرى وانتزع الثوار قضبان السكك الحديدية، وأعمدة البرق والهاتف، وتوقفت حركة المواصلات، وانعزلت مدينة القاهرة عن غيرها من مدن القطر، ونجحت الثورة في الأرياف كما نجحت في القاهرة، وشكل الثوار شرطة مدنية وطنية لحفظ النظام والأمن في البلاد، كما شكلوا لجاناً وطنية تقوم بتنظيم المقاومة والاتصال بالشعب، وتقديم الخدمات للمحتاجين.

وإزاء ذلك، اضطرت بريطانيا إلى الإذعان لإرادة الشعب والرضوخ لمطالبه، فقررت الإفراج عن المعتقلين السياسيين المنفيين، وسمحت بسفر الوفد إلى باريس. ولكن خابت آمال الوفد عندما أعلن الرئيس الأمريكي «ولسن» اعتراف الولايات المتحدة بالحماية البريطانية على مصر. فاعتمد المصريون على أنفسهم،

واستمروا في كفاحهم، وعادت الثورة إلى ما كانت عليه، وعاد معها الاضطهاد، وتعرضت المدن والقرى للبطش وحكمت المحاكم العسكرية على المئات بالسجن والإعدام. وعمدت بريطانيا إلى سياسة المماطلة والتهدئة السياسية، فبعثت لجنة برئاسة «ملنر» وزير المستعمرات لتدرس مطالب الشعب المصرى وتقترح نظاماً جديداً، فقاطعها المصريون جميعاً، وقامت المظاهرات احتجاجاً على قدومها، وتأكيداً للانكليز بأن المصريين لايقبلون بغير الاستقلال التام، وأنهم يرفضون كل مفاوضة على أساس الحماية البريطانية. ومع ذلك أعلنت اللجنة مشروع «ملنر» الذي أكد على إقرار حقوق جديدة لانجلترا في مصر، وتضمن تنظيماً للحماية بدلاً من أن يرفعها.

رفض سعد زغلول وجماعته المشروع، ولكن انكلترا استطاعت أن تكسب مؤيدين للمشروع منهم عدلى يكن باشا رئيس الوزراء. وقد أدى مشروع «ملنر» إلى انقسام بين الوطنيين في مصر، ثم جرت مفاوضات بين لورد «كرزون» وزير خارجية بريطانيا وعلى باشا رئيس الوزراء، ولكن هذه المفاوضات منيت بالفشل، واستقال عدلى باشا على أثر وذلك. ونفى سعد زغلول ومعه خمسة من زملائه، هم: فتح الله بركات، وعاطف بركات، ومصطفى النحاس، ومكرم عبيد، وسينوت حنا، إلى عدن ثم إلى جزيرة سيشل. وبعد مدة نقل سعد زغلول وحده من منفاه في سيشل إلى جبل طارق. وأدى ذلك كله إلى استمرار الاضطرابات السياسية، ، وأدت هذه الاضطرابات إلى مفاوضات بين اللورد اللنبى وعبد الخالق ثروت باشا. وفي منتصف عام ١٣٤٠هـ (٢٨ شباط/فبراير ١٩٢٢م) أعلنت بريطانيا إلغاء الحماية على مصر واستقلال مصر وتهيئة البلاد للحكم الدستورى بعد أن أن أدخلت بعض أعوانها من النصارى في الحركة الوطنية مثل مكرم عبيد، وسينوت حنا وغيرهما. ولكن بريطانيا علقت هذا الاستقلال بتحفظات أربع هى: تأمين مواصلات الإمبراطورية في مصر، والدفاع عن مصر ضد أى هجوم أجنبى، وحماية الأقليات والمصالح الأجنبية، وقضية السودان (بقاء الحكم ثنائياً). فلم تقبل الثورة بهذا التصريح، واحتجت على التحفظات الأربعة. ولكن الحكومة المصرية أخذت في تنفيذه، وألفت وزارة برئاسة عبدالخالق ثروت باشا، وتألفت لجنة مكونة من ثلاثين من كبار رجال القانون المصريين برئاسة حسين

رشدى باشا لوضع دستور للبلاد، كما أعلن السلطان فؤاد ملكاً على مصر وبذلك تحولت السلطنة الى ملكية في عام ١٣٤٠هـ (١٥ آذار ـ مارس ١٩٢٢م). وأبلغ ذلك إلى جميع الدول، وحصلت مصر من الدول على اعترافها بالوضع الجديد. غير أن الشعب في مصر رفض ذلك الاستقلال المزيف واستمر في جهاده للتخلص من تلك التحفظات التي كانت تعطل الاستقلال الفعلى للبلاد. ومع ذلك أفرج عن زعماء الشعب وسمح لهم بالمشاركة في الانتخابات.

استقلال مصر وإعلان الملكية :

وعلى العموم، فقد أعلن الدستور المصرى في ١٣٤١هـ (١٩ نيسان/أبريل ١٩٢٣م) وعدل بعد عام وصدر قانون الانتخابات، وكان الدستور يعلن أن الأمة مصدر السلطات، ويعطى كل مصرى بلغ الواحدة والعشرين حق الانتخاب، وجرت الانتخابات النيابية وفاز الوفد المصري بأغلبية مطلقة، فاجتمع أول مجلس تأسيسى في ١٣٤٢هـ (١٥ آذار ـ مارس ١٩٢٤م) وأصبح سعد زغلول زعيم الثورة رئيساً للحكومة. وكان هذا الدستور يكفل الحريات العامة للمصريين، وينص على مسؤولية الزارة أمام المجلس النيابي. وعلى الرغم من ذلك، لم تستقر الحال، فقد أدى السخط الشعبى إلى وقوع اغتيالات كان أهمه قتل «السير لى ستاك» قائد عام الجيش المصرى، وحاكم السودان في ١٣٤٣هـ (١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٢٤م)، وقد أدى ذلك إلى فرض إجراءات انتقامية من جانب بريطانيا منها: سحب الجيش المصرى من السودان، ودفع دية مليون جنيه، فرفض سعد زغلول هذه المطالب، واستقال من منصبه. كما تعطل الدستور. ولكن سعد زغلول وافته المنية في عام ١٢٣٤هـ (١٩٢٧م)، وخلفه في رئاسة الوفد مصطفى النحاس، وشكل وزارته الائتلافية الأولى، ولكن الانكليز والقصر أقاموا أمامها العراقيل، وأقال الملك الوزارة وعطل اجتماع المجلس النيابى شهراً. ثم ما لبثت الحكومة التي شكلت برئاسة محمد محمود باشا أن استصدرت قانوناً من المجلس النيابى بتعطيله والدستور لمدة ثلاثة أعوام قابلة للتجديد، فكان هذا عدواناً خطيراً على الحياة النيابية، فقامت مفاوضات بين رئيس الوزراة «محمد محمود»، «وهندرسون» وزير خارجية الحكومة العمالية في بريطانيا أدت إلى وضع مشروع اتفاق بين مصر وبريطانيا.

جوبه هذا المشروع بمعارضة في مصر، فاضطر محمد محمود الى الاستقالة في عام ١٣٤٨هـ (تشرين أول ـ أكتوبر ١٩٢٩م)، وشكلت وزارة حيادية برئاسة «عـدلي يكن» جعلت مهمتها إعـادة الحياة الدستورية وإجراء الانتخابات في موعدها المقرر. وأسفرت الانتخابات عن فوز الوفد، وألف النحاس وزارته الثانية في عام ١٣٤٨هـ (كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٠م)، وقام بمفاوضة وزير الخارجية هندرسون، ولكن الطرفين فشلا في الاتفاق بسبب اختلافهما على مسألة السودان، ثم ما لبث القصر الملكى أن أقام العراقيل في وجه حكومة النحاس، فاستقال النحاس، وخلفه اسماعيل صدقى الذي شكل حكومة جديدة.

أقام إسماعيل صدقى حكومة استبدادية عصفت بالمجلس النيابى والدستور، ووضع دستوراً جديداً ألغى فيه الكثير من حقوق الشعب ثم أجرى انتخابات ظفر فيها بالأغلبية لحزبه المعروف بحزب الشعب. ولم يكن في المجلس النيابى من المعارضين سوى أربعة عشر عضواً من الوفديين، والدستوريين، وظل صدقى يحكم استبدادياً لمدة ثلاث سنوات قامت خلالها اضطرابات كثيرة بين الوفد وبين الحكومة.

إن وزارة صدقى كانت مستبدة بالشعب ضعيفة أمام القصر ، الأمر الذي أتاح للقصر التدخل في تفصيلات الحكم لمصلحته. وقد اضطر إسماعيل صدقى تحت ضغط القصر وتـدخله إلى الاستقـالـة عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٢م)، وهنـا شكل عبدالفتاح يحيى وكيل حزب الشعب وزارة جديدة كانت امتداداً لوزارة إسماعيل صدقى مع فارق بسيط هو أن عبدالفتاح يحيى كان أقل من إسماعيل صدقى جرأة وأضعف شخصية.

ومن الملاحظ أن الذين كانوا بالأمس زعماء الحركة الوطنية أصبحوا اليوم رجال القصر أو مسايرين للانكليز، وإن كانت هناك معارضة ظاهرية، الأمر الذي يضع إشارات استفهام على السابق.

معاهدة ١٩٣٦م (١٢٥٥ هـ)

بدأ الإنكليز يتنبهون إلى سيطرة القصر وفرض سلطانه المباشر على الحكومة، فعملوا على إعـادة التـوازن بين الحكومة والقصر، تحقيقاً لسلطانهم وسياستهم

القائمة على إضعاف الطرفين حتى يظلا بحاجة اليهم. وشكلت بعد ذلك وزارة محمد توفيق نسيم الحيادية في أواخر عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م)، واضطرت الحكومة إلى الاستقالة إزاء الصعوبات. ثم شكلت وزارة حيادية أخرى برئاسة على ماهر، وقامت اضطرابات قوية في البلاد كان أبطالها طلاب الجامعات والمدارس الذين ضغطوا على الأحزاب لتشكيل جبهة وطنية، وتم الاتفاق على هذه الجبهة التي ضمت كل الأحـزاب: (حـزب الـوفـد، الحـزب الـوطنى، حزب الأحـرار الدستوريين، حزب السعديين، حزب الإخوان المسلمين، الحزب الاشتراكي، الحزب الشيوعى). وشكل وفد لمفاوضة الانكليز برئاسة مصطفى النحاس باشا مثلت فيه جميع الأحزاب ماعدا الحزب الوطنى الذي لم يكن يعترف بالاحتلال البريطانى. بعد ذلك قامت مفاوضات بين مصر وانكلترا انتهت بتوقيع معاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وأهم بنودها: استقلال مصر استقلالاً تاماً، وإنهاء الاحتلال العسكرى على أن تحتفظ بريطانيا بعشرة آلاف جندى في منطقة القناة، إلغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة، وتأييد مصر في دخول عصبة الأمم، عودة الجيش المصرى إلى السودان، وبقاء الحكم ثنائياً فيها، حق بريطانيا في استخدام أرض مصر ومواصلاتها في حالة الحرب، واعتراف بريطانيا بسيادة مصر، وتحالف الدولتين ضد أى اعتداء أجنبى، ومدة المعاهدة عشرون سنة. وقد صودق على المعـاهدة من قبل المجلس النيابى المصرى ومجلس العموم الانكليزي. وبدىء بتنفيذ مايتعلق بالامتيازات الأجنبية، فدعت مصر لعقد مؤتمر دولى في سويسرا تنازلت فيه الدول صاحبة العلاقة عن امتيازاتها في مصر ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) ودخلت مصر في العام نفسه عصبة الأمم.

أدت هذه المعاهدة إلى انقسام الوفد على نفسه، وخرج على النحاس بعض كبار أعوانه فأدى ذلك إلى إضعاف حزب الوفد الكبير. وقد انتقد المعارضون المعاهدة لأنها نصت على إنهاء الاحتلال، ولكنها سمحت ببقاء قوات انكليزية في القناة، كما أنها (المعاهدة) جعلت مصر قاعدة للجيوش الانكليزية، هذا فضلاً عن التـزام مصر بانشاء طرق حربية وصيانتها، وتوفير كافة التسهيلات للقوات الانكليزية في حالة الحرب. فكأن المعاهدة تحالف دائم، وتبعية دائمة، واحتلال أبـدى. ونتيجـة لذلك حدثت خلافات بين وزارة الوفد، فأقالها الملك فاروق

بصورة غير مشرفة في ١٣٥٧هـ (٣٠ كانون أول ١٩٣٨م) وتعاقبت على الحكم بعد تلك الحادثة حكومة متعددة.

وإثر قيام الحرب العالمية الثانية ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م)، أعلنت الأحكام العرفية في البـلاد، وأخـذت أزمـات التموين، والأوبئة، والضائقة المالية تستحكم في البلاد، بينما كان الألمان والإيطاليون يهددون الوجود الانكليزي من جهة ليبيا، بل يزحفون ويصلون إلى العلمين غرب الإسكندرية، ويضربون هذه المدينة مع القاهرة بالقنابل. وإزاء هذا الوضع الحرج، أراد الانكليز التقرب من الشعب المصرى، بعـد أن وجدوا الحكومات المصرية لاتمثل الأكثرية، إضافة إلى ميل بعض المسيطرين على الحكم إلى جانب المحور، فطالب الانكليز بوزارة وفدية كي يضمن بقاءها إلى جانبهم، وضغطوا على القصر بتكليف مصطفى النحاس باشا، واستخـدمت القـوة العسكرية لإجبار الملك الذي رفض في بادىء الأمر دعوة النحـاس ثم رضـخ للأمـر وشكلت وزارة وفدية برئاسة مصطفى النحاس في ١٣٦١هـ (٤ شبــاط ١٩٤٢م). واستفــاد الانكليز من المعــاهـدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) فوائد كثيرة يسرت لهم مساعدة مصر المادية لإحراز النصر على الألمان. وخـلال حكم النحـاس أنشئت الجامعة العربية الذي كان له اليد الطولى في إنشائها. وكانت بريطانيا من ورائه تدعمه بهدف كسب الشعور العربى نحوها، وهى في الحقيقة تؤيد الوفد وتدعمه، وتعارضه ظاهراً منذ برز سعد زغلول.

ومن جهة أخرى، انتهزت المعارضة في مصر فرصة اجتماع أقطاب الحلفاء في القـاهرة عام ١٣٦٢هـ (تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٣م) فقدمت إليهم مذكرة تطالب بإعلان استقلال البلاد أسوة بما جرى في الشام، والاعتراف بالروابط التي توحد مصر والسودان. ولكن هذه المذكرة بقيت دون جواب.

وممـا يجدر ذكـره أن أبـرز ما يميز الحياة السياسية في مصر تعدد الأحزاب وتطاحنها وانهماكها بالصراع على مناصب الحكم، فترتب على ذلك تفتيت جهود الشعب، وعدم توحيد قواها لاتخاذ موقف موحد من القضية الوطنية، إضافة إلى فسـاد القصر وتـدخله في كل صغـيرة وكبيرة مما أدى إلى عدم استقرار الإدارة الحكومية. هذا فضلاً عن سيطرة الإقطاعيين وكبار رجال المال على الحياة السياسية.

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بمدة وجيزةٍ اسغنت بريطانيا عن وزارة الوفد عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)، وبدأت الحكومة المصرية الجديدة بتخفيف القيود التي فرضتها الحرب، فقد رفعت الأحكام العرفية، وتظاهرت بتبنى مطالب الشعب في الاستقـلال والجـلاء. فاستؤنفت المفـاوضـات لإعادة النظر في معاهدة عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م). وبعد أن تأسست هيئة الأمم المتحدة، وأصبحت مصر عضواً فيها وعلى قدم المساواة مع بريطانيا ـ اسماً ـ بدأت المفاوضات غير أنها تعثرت كثيراً بسبب رغبة بريطانيا في الاحتفاظ بالسيطرة على مصر والسودان، ولاسيما أنها قد خرجت منتصرة من الحرب، وأدركت أن القصر الملكى لم يكن جاداً في إنهاء ارتباطه مع بريطانيا. لكن المظاهرات الشعبية قامت في الإسكندرية والقاهرة بعنف ضد الانكليز، وانفجرت المشاعر بعد طول كبت في زمن الحرب فقتل عدد من الطلبة وأصيب الكثيرون بجراح فكان لتلك الأحداث أثرها على الموقف البريطانى، وتوصل الطرفان إلى الاتفاق على مشروع «صدقى ـ بيفن» سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م).

قوبل هذا المشروع بالسخط والاستنكار لأنه يربط مصر بعجلة بريطانيا بصورة دائمة، فهو يدعو إلى الدفاع المشترك بين البلدين، ويكسب بريطانياً نوعاً من الـوصـاية على مصر. فلم توافق الحكـومة المصرية على هذه المعاهدة «مشروع المعاهدة» لأنها لا تحقق أمانى الشعب في الاستقلال والجلاء. فعرضت الحكومة المصرية القضية على مجلس الأمن عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) غير أن هيئة الأمم المتحدة الخاضعة لنفوذ الدول الاستعمارية الكبرى لم تستطع إنصاف مصر.

وظهر في الأفق تباشير فجر جديد ينذر بتغير الأوضاع السياسية في مصر، فقد تعـاقبت بعد ذلك الوزارات على الحكم، واضطرب الحكم في الداخل بسبب تدخل القصر في الحكم ويسبب مفاسده وعدوانه على مصالح الشعب، إضافة إلى حرب فلسطين ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)، وهزيمة الجيش المصرى فيها، والتى كشفت عنها مساوئ القيادة السياسية والعسكرية، وتجارتها بالأسلحة الفاسدة، وازدياد النقمة لدى أوساط الشعب كافة بسبب سوء الحالة الاقتصادية والسياسية، وإلغـاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) وإلغاء اتفاقية السودان عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) وذلك عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م)، ونتيجة لذلك هب الشعب

المصرى لمحـاربـة القوات الانكليزية في القناة. هذا فضلاً عن حريق القاهرة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م)، وتغـيـر الـوزارات السريع في منـتصف عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م). كل ذلك أدى إلى قيام ثورة ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز - يوليو ١٩٥٢).

إذ أن الولايات المتحدة أرادت بعد الحرب العالمية الثانية أن تحل محل إنكلترا وفرنسا في مناطق نفوذهما، من أجل إمكانية السيطرة على المعسكر الغربى، وجعله كتلة واحدة أمام المعسكر الشرقى. أو أن تكون زعمية المعسكر الغربى مثل روسيا زعيمة المعسكر الشرقى، وتمكنت من ذلك في بعض المناطق، ولم تتمكن في مناطق أخرى إلا نتيجة انقلابات.

ثورة ٢٣ تمـوز - يوليو ١٩٥٢م:

نفذ الجيش المصرى ثورته في فجر يوم ٥ ذى القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ يوليو - تموز ١٩٥٢م) وأرغم الملك فاروق على التنازل عن العرش لابنه الصغير أحمد فؤاد، وعلى مغادرة البلاد في ٢٦ تموز، وأقيم للملك الطفل مجلس وصاية.

أعلن مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب إلغاء الملكية وإعلان النظام الجمهـوري ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م)، وحـل الاحزاب السياسية، وإلغاء الدستور الملكى (١٩٢٣م) ووضع دستور جديد للبلاد. وقدتولى جمال عبدالناصر الحكم في البلاد إثر استقالة محمد نجيب في ١٤ تشرين - نوفمبر الثاني ١٩٥٤م، واختير جمال رئيساً للجمهورية إثر استفتاء شعبى جرى عام ١٩٥٦م.

وقد أعلنت الثورة المصرية عن أهدافها: القضاء على الاستعمار، والقضاء على الإقـطاع، والاحتكـار وسيطرة رأس المال، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإقامة جيش وطنى قوى، وإقـامـة حياة ديمقراطية سليمة، ورفع مستوى المعيشة، وزيادة الإنتاج.

وقد عملت الثورة على تحقيق اهدافها، فقامت بتحقيق الجلاء عن مصر وذلك بتوقيع اتفاقية (١٩٥٤م) مع بريطانيا مع العلم أن اتفاقية عام ١٩٣٦م كانت مدتها عشرين سنة وينتهى بعام ١٩٥٥م وانتقدت المعاهدة الجديدة التي عدت بمثابة تمديد وتجديد لمعاهدة ١٩٣٦م التي تنتهى بعد عام، إذ جعلت المعاهدة

الجـديدة الحق لبريطانيا في العودة إلى مصر، واستخـدام القناة فيها إذا حدث اعتـداء على تركيا وكـان متوقعاً ذلك، وتم بموجبها جلاء الانجليز عن مصر ١٩٥٦م، وتوقيع اتفاقية السودان ١٩٥٣م.

وكـانت الحكـومـة المصرية تأمـل في انضمام السودان لها، إذ كان إسماعيل الأزهرى رئيس الحكومة السودانية يعمل لذلك، لكن سقطت الحكومة وشكل الحكومة الجديدة عبدالله خليل، وجرى الاستفتاء فرفض السودانيون الانضمام إلى مصر. وفضلوا الاستقلال وتم في مطلع عام ١٩٥٦م.

هذا النقد سبب الخلاف بين الحكومة المصرية والحركة الإسلامية. ثم أممت القناة وحدث الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦ من قبل بريطانيا وفرنسا واسرائيل. وانتهى موضوع القناة لصالح مصر.

وقامت الثورة بوضع دستور للبلاد انتخب على أساسه جمال عبدالناصر رئيساً للجمهـورية (١٩٥٦). كما عملت الثورة على تحقيق الإصلاح الزراعى بالغاء الملكيات الكبيرة، وتوزيعها على الفلاحين، وقامت كذلك بتقوية الجيش المصرى وتسليحـه من الـدول الشرقية، وإقـامة المصانع الحربية، وتأميم قناة السويس ١٩٥٦م ونجم عن ذلك العدوان الثلاثى الذي هزم بفضل صمود الشعب في مصر وتأييد الرأى العام له. وحققت الثورة قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م والتى دامت ٤٤ شهراً، إلا أنها تجربة رائدة وهامة وقوبل الانفصال بالاستياء العام من الشعب العربى. وأنجزت الثورة كذلك مشروع السد العالى، ودخلت معركة التصنيع فأقامت عدداً من المصانع التى تؤمن الكثير من حاجاتها، كما حققت تقدماً كبيراً في ميدان التعليم والصحة وانتشار العمران ورفع مستوى الشعب. ودخلت مصر المعركة الثالثة مع العدو الإسرائيلى عام ١٩٦٧م وخسرت شبه جزيرة سيناء وتعطلت الملاحة في قناة السويس.

وانتهجت الثورة عدداً من المبادىء في سياستها الخارجية، ومنها: تأييد القوى الثورة والتقدمية في البلاد العربية ومساعدتها مادياً وأدبياً، وأصبحت نتيجة ذلك البلاد العربية مفرقة بين مدع لليمين وآخر لليسار، وتقدمية ورجعية، وثورية، واتباع سياسة الحياد الإيجابى، وعدم الانحياز، والتعاون مع دول الكتلة الشرقية

ضد الـدول الاستعمارية الغربية، ولم تترك الحكومة فرصة إلا وضربت الحركة الإسلامية، وتعاونت مع أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

وبعد وفاة الرئيس عبدالناصر في جمادى الآخرة ١٣٩٠هـ (٢٨ أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠م) انتخب «محمد أنور السادات» والذي عمل على متابعة المعركة السياسية لتحقيق الجلاء الإسرائيلي عن الأراضي العربية المحتلة في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧م، ومتابعة خطوات الاتحاد مع البلاد العربية، وقد نجح في هذه الخطوة بتوقيع بيان «بنغازى» في ١٧ نيسان ـ أبريل ١٩٧١م بإقامة اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة بين كل من: مصر وسوريا وليبيا، ولكنه كان اتحاداً شكلياً فقط.

وقد خطط الرئيس السادات لخوض حرب مع العدو، فكانت حرب رمضان ١٣٩٣هـ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٣م) ونجحت القوات العربية المصرية في عبور قناة السويس واقتحام خط (بارليف) وتحرير جزء من الأراضي العربية في سيناء، كما نجحت سورية في المعركة، ثم طلبت سورية ومصر وقف إطلاق النار لما منيتا به من هزيمة الجولان والقناة. وقد وقف العرب جميعاً صفاً واحداً فشاركوا بأموالهم ورجالهم، كما استخدموا سلاح النفط لأول مرة مما كان له تأثير كبير على الكثير من دول العالم التى أخذت تعدل من مواقفها إلى جانب الحق العربى.

ونتـج عن هذه الحرب توسط الولايات المتحدة للقيام بدور الوسيط لتسوية النزاع في الشرق الأوسط، فقام «كسينجر» برحلته خلال عامى ١٩٧٤، ١٩٧٥، تمكن خلالهـا من فك الارتبـاط بين القـوات المتحـاربة على الجبهتين المصرية والسورية تمهيداً لعقد مؤتمر جنيف الذي يضم جميع الأطراف لإيجاد تسوية شاملة للقضية بعد انسحاب إسرائيل من الأراضى التي احتلتها. غير أن ظروفاً جديدة طرأت على الساحة العربية أثر زيارة الرئيس المصرى إلى دولة اليهود في ١٩٧٧م مروراً باللقاءات بين الجانبيين (١٩٧٨م) وانتهاء بتوقيع معاهدة «كامب دافيد» في واشنـطن ١٩٧٩م، وتـطبيع العـلاقـات بين إسرائيل ومصر وتبادل التمثيل السياسي في شباط عام ١٩٨٠م، وعلى الرغم من اعتراض الشعب العربى على هذه الخطوات بما فيهم الشعب في مصر الذي لازال يعبر في كل مناسبة عن معارضته لمرحة تطبيع العلاقات، ثم اغتيل الرئيس محمد أنور السادات، وانتخب بعده «محمد حسنى مبارك» بيتابع المسيرة.

الفصل الثاني
السـودان

تقع جمهورية السودان في قارة أفريقيا وتبلغ مساحتها حوالى ٢,٥ مليون كم[٢] وعدد سكانها «١٨ مليون نسمة». وتختلف السودان عن أى قطر عربى آخر، فيوجد حوالى ربع السكان من الزنوج الوثنيين الذين لايتكلمون العربية، ويشكلون أكثرية في مساحة معينة في الجنوب، وتلعب البعثات التنصيرية دوراً هاماً بينهم بحيث تهدد وحدة السودان الوطنية، وحاول الاستعمار خلال أكثر من نصف قرن تغذية هذه الفوارق بين أجزاء الشعب وتضخيمها فجعل المناطق الوثنية الجنوبية مناطق مقفلة أمام الشمال بعد عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م).

العـرب والسـودان :

يعد السودان أحدث البلاد العربية أخذاً بالطابع العربى الإسلامى، إذ تسربت إليه العناصر العربية عن طريق البحر الأحمر ومصر، ولكن الطريق الثانية كانت أعمق أثراً ولم يتأثر السودان بحركة الفتح العربى الإسلامي في فجر الإسلام، ولم تتوغل الجيوش العربية التي حررت مصر في الأراضى السودانية. واكتفى عبدالله بن أبى سرح عام ٢٥هـ (٦٤٦م) بفرض معاهدات على المالك السودانية النصرانية القائمة في شمال السودان كمملكة دنقلة (المقرة) ومملكة النوبة (المريس) ومملكة علوه (سوبا) وشابه سكان هذه المالك سكان مصر قبل الفتح الإسلامي في الجنس والدين واعتنقوا جميعاً المذهب اليعقوبيى. وارتبطوا جميعاً بالكنيسة القبطية. وكانت النوبة أكثرها اتصالاً بمصر حتى أنها زودت مصر بسلالة حاكمة (٧٥٠-٦٦٠ ق.م.)

واشتد ضغط القبائل العربية على السودان وازداد عدد أفرادها الذين استوطنوا السودان وثبتوا عروبته. وحدثت صدامات عديدة بين النوبيين والقبائل العربية. وأرسـل حكـام مصر المسلمون حملات عديدة لاسباء في الأعوام ٣١، ٢٤٠، ٢٥٦، ٦٦٥، ٦٧٤، ٦٩٠، ٧١٥، ٨٥٤، ٨٦٩، ١٢٧٥هـ ، أيدت القبائل العربية المسلمة وساهمت في نشر الإسلا واللغة العربية. وتدخل سلاطين المماليك في الفتن الداخلية في النوبة وتمكنوا عام ٧١٦هـ من تنصيب ملك مسلم على النوبة.

وقامت في السودان الشمالى ثلاثة ممالك إسلامية هي: مملكة الفونج ٠١١ - ١٢٣٧هـ (١٥٠٥ - ١٨٢١م)، وسلطنة دارفور ١٠٠٥ - ١٣٣٥هـ (١٥٩٦ - ١٩١٦م)، ومملكـة دنقـلا ٩٧٨-١٢٩٨هـ (١٥٧٠-١٨٨٠) في الركن الشمالى. والفـونـج قبائل زنجية زحفت من الجنوب وأسلمت وحالفت القبائل العربية، وأسست مملكة كبيرة، وكانت على نزاع مستمر مع سلطان دارفور حول السيادة على كردفان. ونشر ملوك هذه الدول الدعوة الإسلامية، وشجعوا القبائل العربية على استيطان ممالكهم، ورحبـوا بالعلماء المسلمـين الذين قصدوهم فحببوا لهم الإقامة ومنحوهم إقطاعات، ولم يردوا لهم طلباً ولا شفاعة.

وانتشرت في السودان الطرق الصوفية. فدخلتها الطريقة الشاذلية (نسبة إلى أبي الحسن الشاذلى التونسى (١١٩٦-١٢٥٨) عام ٨٤٩هـ (١١٤٤٥م) ورسخت أقدامها في القرن الثامن عشر الميلادى. وغدت القادرية (نسبة إلى عبدالقادر الجيلانى ١٠٧٧-١١٦٦هـ) أكثر الطرق انتشاراً في الجزيرة، ودارفور منذ القرن السادس عشر. كذلك انتشرت الطريقة النقشبندية (نسبة إلى محمد بهاء الدين النقشبنـدى (١٣٨٩هـ) والـرفـاعية (نسبة إلى أحمد الرفاعى ١١٨٢هـ). وتأثر السودان بالحركة الهوابية (الدعوة السلفية) التى قامت في نجد في منتصف الثاني عشر الهجرى (القرن الثمان عشر الميلادى) بأشكال مختلفة عن طريق أحمد بن إدريس الفاسى.

نشـأ أحمد بن إدريس الفاسى ١١٧٣-١٢٥٣هـ (١٧٦٠-١٨٧٣م) في فاس واتبـع الـطريقـة الشـاذلية، ودرس في القـاهـرة، ثم أقـام في مكـة بعد عام (١٢٣٤هـ /١٨١٨م)، واختلف في مكة مع علمائها فغادرها إلى صبيا في تهامة

عسير عام (١٢٤٣هـ /١٨٢٤م). وتنازع ميراثه بعد وفاته ابنه وتلميذه محمد بن على السنوسى، ومحمد ابن على المرغنى. وقدر لحفيده محمد بن على بن أحمد بن إدريس (١٨٧٦/١٩١٣) أن يؤسس دولة في تهامة عسير أن أقام في دنقلة في السـودان حتى عام ١٩٠٥هـ . أمـا السنوسى (١٧٩١-١٨٥٩) فقد نال تأييد عربان مكة وعاد إلى ليبيا لينشر دعوته في دارفور ومنطقة تشاد والصحراء الليبية.

وكان التلميذ الثاني محمد بن على المرغنى (١٧٩٣-١٨٥٣م) أبعد الجميع أثراً في السودان وساعده على ذلك نسبه العلوى. درس محمد المرغنى النقشبندية، والقادرية، وأخيراً الشاذلية، وتتلمذ على أحمد بن إدريس في مكة. وأرسله معلمه إلى السـودان ليبشر بالـدعـوة فقضى زمنـاً في (كـردفان) و (النوبة) و (سنار) (١٢٣٢/١٨١٧) وتزوج امرأة سودانية. وعاد إلى صبيا «عسير» حيث أقام حتى وفاة أحمد. واعترف به أشراف مكة خلفاً لمعلمه فأسس زوايا في المدينة وجدة والطائف. وأرسل ابنه محمد سر الختم لينشر الدعوة في اليمن وحضر موت، كما أرسل ابنه إلى سواكن حيث اتبعته قبائل (البجاة) و(بنو عامر) ونجح في كردفان ودنقله والنوبة وأسس الطريقة الختمية. وخلف الحسن بعد وفاته عام ١٨٦٩م ابنه محمد عثمان تاج السر ١٨٨٦م). وأيد عثمان المصريين، وقاوم المهدى، وفر بعـد نجاح المهدى إلى القاهرة ومات فيها. وعاد ولداه أحمد وعلى مع الجيش المصرى عام ١٨٩٦. وقاد أحمد الطريقة الختمية، وأعاد إحياءها حتى وفاته عام ١٩٢٨م، فخلفـه في زعـامتها الروحية أخوه على المولود عام ١٨٧٩م. وتجمع الختمية بين الشاذلية والنقشبندية.

الحكم المصرى في السودان :

دخل الجيش المصرى بلاد السودان عامه ١٢٣٥ (١٨٢٠م). فقد أرسل والى مصر محد على باشا جيشاً بقيادة ابنه الثالث إسماعيل فقضى على مملكة الفونج ودخل عاصمتهم (سنار) عام ١٢٣٦هـ (١٨٢١م) ووصل إلى أقصى الجنوب. وتأخر احتلال دارفور إلى عام ١٨٧٤ حينما ألحق الزبير رحمة هزيمة بسلطانها. إلا أن مرسوم السلطان العثمانى في ٢١/١١/١٢٥٦هـ الموافق ٣١/٢/١٨٤١م جعل محمد على حاكماً على النوبة ودارفور وكردفان وسنار وتوابعها وملحقاتها طيلة حياته على الرغم من أن دارفور لم تكن قد خضعت للحكم المصرى. ولم يعط

محمد على، بموجب ذلك المرسوم، سواحل البحر الأحمر من سواكن إلى مصوع لأنها كانت تابعة إلى حاكم جدة إبراهيم باشا (ابن محمد على). وأصبح السودان مع مصر يكونان دولة مصرية واسعة.

حكم السـودان في الـدور المصرى ١٢٣٥-١٣٠٣هـ (١٨٢٠-١٨٨٥) ستـة وعشرون حاكماً وتم في عهد خامسهم (على خورشيد باشا) تأسيس الخرطوم التي غدت عاصمة السودان. وتأسس في الخرطوم في عهد تاسعهم (عبداللطيف باشا) مدرسـة عهد برئاستها إلى رفاعة بك الطهطاوى فكات أول مدرسة حديثة في السودان. وقام محمد على باشا وعباس باشا بزيارة السودان وتفقد أحواله. إلا أن ولاة مصر لم يولوا هذه المنطقة العناية اللازمة ولم يستقروا في إدارتها على خطة واحدة فقد حكمها محمد على كوحدة ثم حاول تجزئتها، وعهد إلى أحمد باشا بتنفيذ هذه المهمـة عام (١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) ولكنـه عاد فقرر الإبقاء عليها موحدة. وجرب عباس باشا التجزئة زمناً، ثم عدل عنها.

خدم المصريون السودان من نواحٍ كثيرة. فقد وحدوا بقعة جغرافية واسعة تضم قبـائـل متبـاينة في اللون، والجنس، واللغة، والدين، والعادات، وأدخلوا إلى السودان الحضارة الحديثة، ونشروا العلم، والمعرفة، ورفعوا المستوى الصحى، والاجتماعى، وأوجدوا حكومة منظمة وعهداً مستقراً. وحسنوا الأوضاع الاقتصادية فأدخلوا زراعـة القـطن، ونشروا استعـمال الملابس المنسوجة بدلاً من الملابس الجلدية، ووحـدوا السـودان كله ومصر في سوق كبـيرة واحـدة، كذلـك حمى المصريون السودان مدة من الزمن من أن تصبح مستعمرة أوروبية وأخروا حدوث ذلك قرناً كاملاً.

ووسع المصريون حدود السودان اتساعاً كبيراً. فقد احتلت القوات المصرية حتى عام ١٢٨٤هـ (١٨٦٦م) كل ساحل البحر الأحمر العربى الغربى وامتداد هذا الساحل على المحيط الهندى من رأس (غردافوى) إلى (بربرة) بحيث اتصلت أملاك الخديوى باملاك سلطان زنجبار. ووافق السلطان العثمانى في ١٢٧٤هـ (أيار ١٨٥٦م) على ضم الساحل من سواكن إلى مصوع إلى باب المندب إلى مصر. وقـاد الـبريطانى «صمويل بيكر» حملة مصرية تمكنت في عام ١٢٨٩هـ (١٨٧١م) من ضم مديرة خط الاستواء (اوغندة) إلى مصر ولولا مخططات هذا

اليهودى البريطانى بيكر لكانت أوغندة ضمن الأراضى السودانية. وتوغل الجيش المصرى في الحبشة في عهد الإمبراطور يوحنا السادس (١٨١٢-١٨٨٩). ودخلت القوات المصرية مدينة (هرر) فتنازل سلطانها المسلم محمد بن على ين عبدالشكور عن سيادته إلى والى مصر في عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م). ومنح الخديوى بموجب مرسوم ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م) ميناء زيلع. وتخطت القوات المصرية نهر جوبا جنوبا فاحتـج سلطان زنجبار وغدا القسم الأكبر من ساحل إفريقية الشرقي خاضعاً لحكم مصر. واعترفت بريطانيا في عام ١٢٥٩هـ (١٨٧٧م) سيادة مصر على جميع الساحل الإفريقي الشرقى من السويس حتى رأس غردافوى ورأس حافون.

وكانت هذه بداية النهاية. فقد ثارت الحرب مع الحبشة واشتعلت نيران الفتنة في السودان وخسرت مصر وخسر العرب إفريقية الوسطى بتخطيط من الدول الاستعمارية (بريطانيا ـ فرنسا ـ ايطاليا ـ ألمانيا) حيث تقاسموا المنطقة، وأعطوا الحبشة جزءاً من البلاد الإسلامية بصفتها دولة نصرانية. وخاض المصريون ثلاث معارك خاسرة ضد الحبشة عام ١٢٩٤هـ (١٨٧٦م)، ونزلت قوات فرنسية في جيبـوتى عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) وقـوات ايطالية في عصب. وحلت الكارثة الكبرى بمصر نفسها التى احتلتها القوات البريطانية في العام التالي ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م).

وتحول رأى السودانيين في الحكم المصرى بعد أن فقد صفته العربية الإسلامية فقد امتعضوا من قبل من تعيين حكام أجانب «افرانج» على مديرية خط الاستواء (صمـوئيل بيكـر) ١٨٧٠-١٨٧٣م»، (شـارل غوردون) «١٨٧٤-١٨٧٦م». ولاحظوا أن هؤلاء الأفرنج يحاربون الإسلام، وينشرون النصرانية، ويضطهدون العـرب والمسلمـين. وازداد عدد الحكام الإفرنج في خدمة الخديوى حتى بلغ عددهم عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) أربع عشر حاكما أوروبياً. وبدأت بوادر الكارثة الكبرى عندما عين صموئيل بيكر «شارل غوردون» حاكماً عاماً على السودان.

وعبر السودانيون عن سخطهم بالثورات. فقد قامت أكثر من ثورة في دارفور ومديرية خط الاستواء. وكان من بين من ثار سليمان بين الزبير رحمة ورابح مولى الزبير. وفشلت هذه الثورات وقتل سليمان وفر رابح عام ١٢٩٦هـ ١٨٧٨م) إلى منـطقة تشاد حيث أسس دولة إسلامية قضى عليها الفرنسيون عام ١٣٣٣هـ

١٩١٤م). وأخيراً قاد محمد بن أحمد الدنقلاوى المشهور «بالمهدى» ثورة ناجحة على حكومة مصر البريطانية بعيد انهيار القوات المصريةلا أمام الغزاة البريطانيين.

الثـورة المهـديـة :

ولد المهدى في قرية قرب دنقله في ٢٧ رجب ١٢٦٠هـ الموافق ١٢ آب ـ أغسـطس ١٨٤٤م. وكـان أبوه عربياً يتعاطى صناعة القوارب الخشبية. ونشأ المهدى نشأة دينية وامتهن حرفة أبيه ولكنها لم تصرفه عن نشر الدعوة التي آمن بها، والتى بدأهـا سراً عام ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م، وجهـراً في العـام التالى وكثر أتباعه. وهزم في ١٢ آب و ٩ أيلول ١٨٨١م قوات مصرية حاولت إلقاء القبض عليه، وفتك في ٢٩ أيار ١٨٨٢م بحملة جديدة، واستفحل أمره في كردفان، واستسلمت له عاصمتها الأبيض في ١٩ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٨٣، ووقع بأسره ست آلاف جندى. واستولى المهدى على دارفور وأعاد على بن دينار بن زكريا سلطاناً عليها. وأباد المهدى حملة (هكس باشا) في ١٨٨٣/١١/٦م وحملة بيكر في ١٨٨٣/١٢/٢٣م. وساعده على انتصاراته أن قوات أعدائه كانت بقيادة مرتزقة أوروبيين، وأن مصر نفسها كانت قد خضعت للاحتلال البريطانى، فلم تعد ثورته موجهة ضد السلطان الخليفة أو الأمير المسلم في القاهرة، بل ضد الإنكليز الذين اعتقلوا الوطنيين ونفوا عرابى وحكموا البلاد.

ولاحت فرصـة ذهبية لبريطانيا والـدول الأوربية للقضاء على النفوذ العربى الإسلامى في شرقى إفريقية، وتمهيداً لذلك أشارت الحكومة البريطانية على مصر بالجلاء عن السودان، فرفض شريف باشا ذلك، واستقال، واعتذر رياض باشا عن تشكيل وزراة تنفذ الرغبة البريطانية، فشكلها «نوبار باشا» في ٦ ربيع أول ١٣٠١هـ (١٨٨٤/١/٤م)، وكانت مهمتها الرئيسية تنفيذ الجلاء عن السودان. وعهد (نوبار) للمرة الثانية إلى (غوردون) بمنصب الحاكم العام للسودان المكلف بالاشراف على الجلاء. وكان على (غوردون) أن يؤمن إجلاء أكثر من خمسين ألف مدنى مصرى يملكون ثلاثة آلاف بيت تجارى بالإضافة إلى إجلاء الأوروبيين والقوات المصرية. وفشل (غوردون) في مهمته، واستولى المهدى على الخرطوم وفقد غوردون حياته في ١٠ ربيع الثاني ١٣٠٢هـ (١٨٨٥/١/٢٦م)، أى بعد عام

واحد على صدور مرسوم تعيينه، وهكذا تكون مصر قد خسرت السودان وإفريقية الشرقية.

لم يثبت المهدى نفوذه إلا في جزء من ممتلكات مصر في إفريقية بينما غدت الممتلكات الباقية نهباً للمستعمرين وفق ما خططوا له. وحاولت الدول الأوروبية تنـظيم اقتسام التركة المصرية فعقدت معاهدات عديدة فيما بينها لهذه الغاية. وارتبطت بريطانيا بمعاهدات مع إيطاليا (١٥/٤/١٨٩١م و ٥/٥/١٨٩٣م)، وألمـانيا ١/٧/١٨٩٠م و ١٥/١١/١٨٩٣م)، وبلجيكـا (١٢/٥/١٨٩٤م)، وشجعت الحبشـة على احتـلال (هـرر)، والقضـاء على إمـارتها الإسلامية عام ١٨٨٧م. واحتلت ايطاليا في شباط ١٨٨٥ ميناء (مصوع)، وتوغلت في أريتريا كما تقدمت في أراضي الصومال حتى نهر (جوبا) الذي كان يفصل ممتلكات مصر عن ممتلكات زنجبار. وشجع الايطاليون أميراً حبشياً اسمه «منليك» على الثورة على إمبراطوره يوحنا، وساعدته وبريطانيا على احتلال (هرر)، ولما قتل الإمبراطور يوحنـا (١٨٧٢-١٨٨٩م) في حربـه مع قوات المهدى في آذار - مارس ١٨٨٩ اعـترفت إيطاليا بمنليلك إمـبراطوراً، وأغرته بعقد معاهدة حماية في ٢ رمضان ١٣٠٦هـ (٢/٥/١٨٨٩م). ولكن نشب خلاف بين ايطاليا ومنليك الـذي لم يعترف بالنص الإيطالى للمادة ١٧ من المعاهدة، وألحق هزائم كبيرة بالإيطاليين لاسـماء في «عدوه» في ١٦ رمضان ١٣١٣هـ (٢٩/٢/١٨٩٦م)، فكانت هذه المعركة سبباً في الحملة البريطانية المصرية على السودان. وبادرت الدول الأخرى إلى أخذ نصيبها من الاسلاب، فاحتلت فرنسا جيبوتى، وسيطرت بريطانية على مديرية خط الاستـواء (اوغنـدا)، وكـانت قد استـولت على (زيلع) و (بربره) «١٨٩٣ - ١٨٩٤». واقتسمت مع ألمانيا ممتلكات سلطان زنجبار. ولم يبق من ممتلكات مصر غير المنطقة الخاضعة للمهدى، فرأت بريطانيا أن الوقت قد حان للقضاء عليه وإنقاذ إيطاليا النصرانية التي أهينت على يد دولة إفريقية (الحبشة) وإن كانت هذه الدولة نصرانية، وقد دعمتها من قبل بريطانية والدول الأوروبية ضد المسلمين.

قررت بريطانيا تجهيز حملة مصرية بريطانية مشتركة بقيادة بريطانية عهد إليها مهمة احتلال السودان. وبدأت الاستعدادات فجأة وعلى حين غرة بناء على أوامر

لندن. وقاوم الخديوى والوطنيون المصريون هذه الفكرة، ولم يرحبوا بالقضاء على دولة عربية إسلامية بمساعدة بريطانيا. ورفض صندوق الدين المصرى الموافقة على إعطاء مصر المال اللازم لتغطية نفقات الحملة. ولكن بريطانيا كانت مصممة غير مكترثة بالمعارضة فساهمت بريطانيا بثلث نفقات الحملة، وقدمت ثلث قواتها وفتحت لمصر حساباً جارياً بفائدة ٢,٥٪ لتغطية باقى النفقات وتحركت الحملة بقيادة كتشنر (٨٢٠٠ بريطانى، ٢٠,٠٠٠ مصرى وسودانى) في أيار ١٨٩٨م، واحتلت دنقله، وهزمت خليفة المهدى عبدالله التعايشى (الذي خلف المهدى في ٩ رمضـــان ١٣٠٢هـ ، ٢٢ أيار ١٨٨٥م)، وأجـبرت قوة فرنسية على إخـلاء فاشوده. وقتل التعايشى في ٣ شوال ١٣١٥هـ ٢٤ شباط ١٨٩٨م فانتهت دولة الدراويش أو الأنصار التي عاشت خمس عشرة سنة، وجعلت في السودان حركة دينية جديدة، وأوجدت كياناً سودانياً.

الحكـــم الثنـــائى :

وبدأ في السودان عهد عجيب دام أكثر من نصف قرن. فقد عقدت معاهدة مصرية بريطاني في ٨ رمضـان ١٣١٦هـ (١٩ كانـون الثاني ١٨٩٩م) أخضع السـودان بمـوجبهـا لحكم ثنـائي مصرى بريطاني مع رفـع العلمـين البريطاني والمصرى. ونجا السودان بموجب هذه المعاهدات من الامتيازات الأجنبية ولم يبق للمحاكم المختلطة أى سلطان فيها. ولكنهاخضعت لحاكم عام بريطانى يعينه الخـديوى بمـوافقـة بريطانيا. وجعـل الحـاكم العام رئيساً أعلى للإدارة المدنية والعسكـرية وحـاكـما مطلقاً متمتعاً بسلطات تشريعية وتنفيذية واسعة. ولم تعد القوانين والقرارات الوزارية المصرية سارية المفعول في السودان ولم يبق لمصر في السودان غير العلم، وبعض القوات المسلحة الخاضعة لقيادة بريطانية، وإعفاء جمركى للبضائع المصرية. وتحملت مصر مسئولية سد العجز في موازنة السودان الذي بلغ ربع مليون جنيه في العام الأول، وتضاعف بعد أربعة أعوام. وازداد ألم المصريين حينما رأوا شريكهم يستقل في حكم السودان يوجهه وجهةً معاديةً لمصر، كما عدّ المصريون يوم توقيع الاتفاقية يوم حزن وأسى.

تقلب على حكم السودان خلال مدة الحكم الثنائي تسعة حكام بريطانيون

من أبـرزهـم «كتشنر» و «ونجت» و «ستاك» و «روبرت هاو». وساعد الحاكم البريطاني ثلاثة أمناء للإدارة والقضاء والمال، بالإضافة إلى عدد من مدراء الدوائر، وشكل عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) مجلس عرف باسم «مجلس الحاكم العام» برئاسة الحـاكم وعضـوية أمنـائـة الثلاثة ومدراء دوائر المعارف، والأشغال، والصحة، والشؤون الاقتصـادية. ومنح هذا المجلس حق إقرار الموازنة وتصديق القوانين والمشروعات وإجراء التنقلات بين الموظفين وممارسة صلاحيات الحاكم في حالة غيابـه. ولكن سلطات الحاكم كانت في الواقع مطلقة لايقيدها إلا الايعازات والتعليمات التى يتلقاها من الحكومة البريطانية بواسطة ممثلها في القاهرة الذي عد مرجع الحاكم المباشر.

ولم تهتم حكومة السودان برفع مستوى السكان أو التقدم بهم نحو الاستقلال الذاتى كما كانوا يدعون. فلم يشترك السودانيون بالحكم بأى شكل من الأشكال، ولم يؤخذ لهم رأى ولم تفتح أمامهم المناصب العالية. واحتل الإنكليز بعد نصف قرن المنـاصب العليا جميعهـا، وأكثر الوسطى، بحيث شغلوا قرابة ١١٪ من المجموع العام للوظائف، بينما نال شركاؤهم في الحكم الثنائي (المصريون) خمس هذه النسبة العددية، ولكنه لم يشغلوا إلا وظائف متوسطة. ولم تزد نسبة الموظفين الســـودانيين عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) على ٣٧٪، فارتفعت إلى النصف عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) واستقرت بعد عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) على ٨٥٪ الى أن تمت سودنة الوظائف جميعها في عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م).

وأبدت حكومة السودان اهتماماً قليلاً في نشر التعليم. فقد وضع عام ١٣١٦هـ (١٨٩٩م) حجر الأساس لكلية «غوردون» التي جمع «كتشنر» تكاليفها في لندن لتخليد ذكـرى الجنـرال «غـوردون». وكـانت في أول أمـرها مدرسة ابتدائية، فأصبحت ثانـوية عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م). وافتتحت أول مدرسة للإناث في السودان عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م)، وارتفع الرقم بعد ثلاثة عشر عاماً إلى خمس مدارس. وفي الذكرى الخمسين للاحتلال البريطانى لم يرتفع مخصصات التعليم في الموازنة لأكثر من ١٠٪، وبقيت نسبة التعليم ٤٪، وعندما استقلت السـودان وجلاء الإنكليز عنها كان عدد المدارس والطلاب فيها مساوياً لعددهم في الأردن التي يبلغ عدد سكانها عشر سكان السودان. ولكن الإنكليز لم يفقدوا عنايتهم

بتخليد قادتهم فافتتحوا كلية «كتشنر» للطب عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م)، وغدت كلية غوردون كلية آداب عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) وأخيراً، في عهد الاستقلال، تأسست جامعة الخرطوم في ١٦ ذي الحجة ١٣٧٥هـ (٢٤ تموز ١٩٥٦م).

واعتمـدت السـودان في التعليم العـالي على الجامعات المصرية. ولما جمدت الصلات الثقافية مع مصر أواخر عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م)، أثر مقتل «السردار لى ستاك»، وجهت البعثات الجامعية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. وبدأت أفواج خريجى جامعة بيروت تصل إلى السودان بعد عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) بعد أن ازدادوا اتصالاً بالعالم العربى، وغدوا أكثر تفهماً لمشكلاته. وعندما أصبحت كلية غوردون كلية جامعية تقـدم طلابهـا إلى فحـوص جامعـة لنـدن كطلاب خارجيين. وأخيراً بدأت حكومة السودان بعد الحرب العالمية الثانية بإرسال بعثات إلى الجامعات البريطانية، أما سكان جنوبى السودان فقد رأت انكلترا أن يحولوا إلى جامعة «ماكريرى» في أوغندة، لتحقيق فصل الشمال عن الجنوب.

واعتمدت السودان، كأكثر البلاد العربية، على المطبوعات والصحف المصرية. وأصدرت حكومة السودان عام ١٢١٦هـ (١٨٩٩م) جريدة «الجازيت السودانية» الرسمية التي نشرت في عددها الأول اتفاقية الحكم الثنائي. وأصدر أصحاب المقطم المصرية جريدة السودان عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) نصف أسبوعية، ثم توقفت عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م). وصدرت مجلة «غرفة التجارة السودانية» عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)، وصـدرت صحف أخرى بعد ذلك كجريدة «الخرطوم» و«كشكـول المسـاح» ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)، وجـريدة «رائد السودان» ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م). وبـلغ عدد الـصحف الصـادرة عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) تسـع صحف، ثم ارتفع الرقم بعد عشرة أعوام إلى أربع عشرة. ووجدت صعوبات شديدة في وجـه الصحف المصرية بعـد مقتـل السردار (لي ستـاك)، وحاولت السلطات البريطانية منع تداولها.

النضال السياسى والكفاح الوطنى :

ولم يبد السودانيون مقاومة تذكر في أول الأمر لهذا الوضع الشاذ الذي عاشوره، وربما كان عصيان (علي دينار بن زكريا) سلطان دارفور أول حركة سودانية لمقاومة

الاحتلال. وسارعت السلطات البريطانية إلى القضاء على السلطان قبل أن يبدأ ثورتـه فهزمته في ٢٠ رجب ١٣٣٤هـ (٢٢ أيار ١٩١٦م)، واحتلت عاصمته «الفاشر» في اليوم التالي. وأصابت السلطان رصاصه قتلته. وبرر الانكليز عملهم العدائي بأن ادعوا أن السلطان كان ينوى الثورة متأثراً بالدعاية العثمانية الألمانية، وأنـه كان على اتفاق مع السنوسى الذي هاجم حدود مصر الغربية. وهدأت الأحوال في السودان بعد ذلك نهاية الحرب.

وكان السودانيون شديدى التأثر بالأحداث المصرية خلال السنوات السبع التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى. فقد تحمسوا لثورة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) وتأثروا بأبحـاث لجنة «ملنر». وعندما أصدرت بريطانيا تصريح شباط ١٩٢٢م الذي ألغت فيه الحماية احتفظت لنفسها بحق خاص في الصودانوتدخلت بريطانيا عام ١٣٤١هـ (١٩٣٣م) لتجبر المصريين على تغيير نص المادتين ١٥٩ و ١٦٠ من الدستور.

وفي السودان أصدر الملازم الأول على عبداللطيف في رمضان ١٣٤٠هـ (أيار ١٩٢٢م) نشرة سماها «مطالب الأمة السودانية» فاعتقل لمدة عام. ولكنه خرج من السجن أقـوى وأشد إيماناً من ذى قبل. فألف في أيار ١٩٢٤م جمعية «اللواء الأبيض» وجعل على هذا اللواء رسم وادى النيل، وجعل للجمعية فروعاً قوية الاتصال بالمركز في الخرطوم، وساعده رفاقه وهم: عبيد الحاج، وحسن شريف، وحسن صالح، وصالح عبدالقادر. واستغل الأعضاء كون أكثرهم من موظفى البرق والبريد لنيشروا دعوتهم وأخبارهم في أرجاء السودان. وقامت مظاهرات في (الخرطوم) و (أم درمان) ضد بريطانيا. وعندما هتف بالمتظاهرين أحد أعضاء اللواء الأبيض «أيها الناس من كان يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فليهتف معى: فلتحيا مصر ولتسقط بريطانيا». رددت الجموع هذا الهتاف بحماسة ولم تستطع السلطات البـرطـانية السكـوت عن هذا النشـاط فبـادرت إلى استعمال الشدة والعنف. واعتقلت رئيس الجمعية وعـدداً من أعضـائها وقدمتهم إلى المحاكمة بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم، وأصدرت المحكمة أحكامها ضد المتهمين بمـدد متفاوتة، وقامت مظاهرات سلمية احتجاجاً على هذه الأحكام الجائرة. وثـارت حماسة طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم فخرجوا في ٩ محرم ١٣٤٣هـ

(١٩٢٤/٨/٩م) بمظاهرة مسلحة طافت شوارع العاصمة. ووصلت قوة بريطانية حاصرت المدرسة واعتقلت عدداً من الطلبة، وقدمتهم إلى المحاكمة، فحكم على بعضهم بالسجن ستة أعوام. وأساءت سلطات السجن معاملة المعتقلين من الطلبة وأعضاء اللواء الأبيض فقاموا بثورة في السجن فشددت الأحكام عليهم، وتشكلت إذ ذاك جمعية الاتحاد السودانى برئاسة أحمد أمين المصرى، وعضوية عدد من الضباط المتقاعدين.. وقامت الجمعية بجمع التبرعات لأسر المعتقلين. وبادرت السلطات إلى اعتقـال رئيس الجمعية، وعدد من الأعضاء فحكم على الرئيس بالسجن سبع سنوات وشرد الباقون.

وأصيبت الحركة الوطنية في مصر والسودان بصدمة عنيفة بل بكارثة إثر مقتل «لى ستاك» الحاكم العام للسودان في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٤٣هـ (١٩ تشرين الثاني ١٩٢٤م). فقد وجه الجنرال اللنبى في ٢٢ تشرين الثاني إنذاراً شديداً عجيباً ترك جروحاً عميقة في مصر والسودان. وطالب مصر بسحب قواتها من السودان خلال أربـع وعشرين ساعـة، وأعلمها بأن حكومة السودان ستزيد مساحة الأراضى المزروعة في الجزيرة ألى أكثر من ثلث مليون فدان. وصدرت الأوامر إلى القوات المصرية بالانسحاب من السودان، فاعلنت الوحدات السودانية تضامنها معهم، وتحركت وحدة سودانية مؤلفة من ١٢٠ جندياً من ثكناتها قاصدة ثكنات الجيش المصرى في موكب حربى مارة بشـارع (غـوردون). وتصدت لها قوة انكليزية ووقعت معركة عنيفة أبلى فيها السودانيون بلاء حسناً، وقدموا تضحيات كبيرة، وكبدوا القوات البريطانية خسارة كبيرة، غير أن الغلبة في النهاية كانت للانكليز الذين أسروا من نجا من القتل، وحكم على ثلاثة من الضباط بالإعدام وهم سليمان محمد، وحسن فضل المولى، وثابت عبدالرحيم، وأعلن في ٢٢ جمادى الآخرة ١٢٤٣هـ (١٩٢٥/١/١٧م) عن تأسيس قوة دفاع السودان التي جعل الحاكم العام قائدها الأعلى.

ذلك الموقف الرائع يدل على روابط الود بين الشمال والجنوب، ولكن الإدارة الانكليزية نفـذت على أي حال، وتم إجـلاء المصريين. وحـاولت انكلترا أن تسـترضى السـودانيين فأحلت السودانيين محل المصريين في الوظائف التي كان يشغلها هؤلاء، ولم تكن محاولة السودنة التي ظهرت آنذاك لصالح السودانيين،

وإنما كانت حلقةً من حلقات التقسيم الذي أراده الانكليز من عهد مبكر، وكانت خطتهم أن يفصلوا السـودان عن مصر. وبعـد ذلـك يقومون بتجزئة وتقسيم السودان وذلك بضم جنوب السودان إلى أوغندا وكينيا. وقد نجحوا في بعض هذه المحاولات.

وخففت حكـومـة السـودان إجراءاتها لمنع اتصال المصريين بالسودانيين عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م)، وأزالت أكثر القيود إثر عقد معاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، وأبيح للمصريين حرية الانتقال إلى السودان، وحرية التملك والتجارة والتوظيف. وعادت قوة مصرية إلى السودان لتصبح خاضعة لقيادة الحاكم العام. ولم تحاول مصر أو بريطانيا أخذ رأى السودانيين في هذه الموضوعات.

مؤتمـــر الخريجيـــن :

وكان طبيعياً ألا يتقبل المثقفون السودانيون هذا التجاهل المهين لهم لاسيما من مصر، فبادروا إلى تنظيم أنفسهم وإثبات وجودهم. وتنادى المثقفون في صيف عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) إلى عقـد مؤتمـر عام، يجمـع شملهم ويمكنهم من الوصول إلى رأى حول مستقبل البلاد. واتفقوا في أو أخرا عام ١٣٥٦هـ (شباط ١٩٣٨م) على تشكيل مؤتمر الخريجين الذي ضم ألفا وستمائة عضو. وعقد اجتماع عام لهيئة المؤتمر حضره أكثر من ثلثي الأعضاء (١١٨٠) عضواً، وأقر المؤتمرون دستور المؤتمر، وانتخبوا مجلساً استشارياً من ستين عضواً. وانتخب أعضاء المجلس هيئة تنفيذية من ستة عشر عضوا. وبادر الأمين العام للهيئة التنفيذية (إسماعيل الأزهرى) الى توجيه رسالة إلى أمين السر الإدارى لحكومة السودان في ٣ ربيع الأول ١٣٥٧هـ (٢ أيار ١٩٣٨م) أعلمـــه بتشكيل المؤتمـر، وانتخـاب مجلس استشارى، ولجنة تنفيذية حسب نظام المؤتمر. وذكر الأزهرى في رسالته أن أهداف المؤتمر «وواجباته نحو الوطن» هما: العمل ضمن حدود القانون على رفع مستوى الشعب الاجتماعي، وتنظيم وسائل التعاون، وإطلاع الحكومة على وجهة نظر الأعضـاء كمجموعة لأن «مسؤولية البلاد تقع على عاتقنا». وأكد الأزهرى في رسالته أن أعضاء المؤتمر لايطالبون بمراكز عالية لأنفسهم. وجاء جواب أمين السر على هذه الرسالة بعد عشرين يوماً مخيباً للآمال. فقد أشار إلى أن الإدارة أخذت علماً بوجود المؤتمر، ولكنها ترى أن أعضاء المؤتمر لايمثلون الشعب السودانى ولا

يصح لهم التكلم باسمه.

بقى نشاط المؤتمر محدوداً حتى نشوب الحرب العالمية الثانية. وأقام المؤتمر حفلة شاى لرئيس الوزراء المصرى «على ماهر باشا» الذي زار السودان عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م)، وطـالب خطبـاء الحفلة مصر بمسـاعـدة المؤتمـر على بلوغ أهدافه الاجتماعية. ولم يرق هذا القول والعمل للحكومة السودانية، فسعت إلى شل نشاط المؤتمر. وساعد على ذلك الخطر الإيطالي الجاثم على حدود السودان.

واستثارت أحداث مصر السودانيين للعمل مرة أخرى، ففي محرم ١٣٦١هـ (شباط ١٩٤٢م) وجهت بريطانيا إنذارها المهين وفرضت على مصر وزارة ترضاها. وكان أمراً طبيعياً أن يفقد السودانيون أملهم الذي عقدوه على مصر بعدما رأوا من تخاذل أحزابها وتكالبهم بأنانية وحقد على الحكم. واتجه المؤتمر اتجاهاً جديداً في نضاله فلم يعد يطالب بالوحدة بل طالب «بمنح السودان بحدوده الجغرافية حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة».

ووجه المؤتمر في ١٧ ربيع الأول ١٣٦١هـ (٣ نيسان ١٩٤٢م) مذكرة إلى الحاكم العام شرح فيها مطلب الشعب السوداني كمايلي:

١ ــ اصـدار تصريح مصرى بريطاني يمنـح السودان حق تقرير مصيره بعد الحرب مباشرة.

٢ ــ تأسيس هيئة تمثيلية سودانية لإقرار الموازنة والقوانين.

٣ ــ تأسيس مجلس أعلى للتعليم أغلبيته من السودانيين، وتخصيص مالا يقل عن ١٢٪ من الموازنة للتعليم.

٤ ــ فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية.

٥ ــ الغـاء قوانين المناطق المقفلة ورفع قيود الاتجار والانتقال عن السودانيين داخل السودان.

٦ ــ وضع تشريع بتحديد الجنسيـة السودانية.

٧ ــ وقف الهجرة إلى السودان فيما عدا ما قررته المعاهدة الإنكليزية المصرية.

٨ ــ عدم تجديد عقد الشركة الزراعية صاحبة امتياز الجزيرة.

٩ ــ إعـطاء السودانيين فرصة الاشتراك الفعلى في الحكم بتعيين سودانيين في وظـائف ذات مسؤولية سياسية في جميع فروع الحكومة الرئيسية، وقصر

الـوظـائف على السودانيين. أما المناصب التي تدعو الضرورة لملئها بغير السودانيين فتملأ بعقود محدودة الأجل يتدرب في أثنائها سوادنيون لملئها في نهاية المدة.

١٠ ــ تمكين السودانيين من استثمار موارد البلاد التجارية والزراعية والصناعية.

١١ ــ وقف الإعـانات لمدارس الإرساليات التنصيرية وتوحيد برامج التعليم في الشمال والجنوب. ورد أمين السر الإدارى على هذه المذكرة ردًا جافاً أنكر فيه على المؤتمـر دعـواه بتمثيل جميع السودانيين. وتحويل صفته الى هيئة سياسية وطنية. وأعاد المذكرة. ونصح أمين السر المؤتمر بأن يقصر نشاطاته في الشؤون الداخلية حتى يكون له أمل في استمرار اعتراف الحكومة به. غير أن أمين السر أكد في رده عزم حكومة السودان على استشارة الرأى العـام السـودانى المسؤول إذا ما قررت مصر وبـريطانيا إعادة النظر في الاتفاقية أو المعاهدة.

وانقسم أعضاء المؤتمر على أنفسهم. فقد وثق بعضهم بحسن نيات بريطانيا، ولم يؤيدوا الوحدة مع مصر بل طالبوا بالاستقلال التام، بينما رأى فريق آخر أن على السودانيين الاستمرار بالنضال بالتعاون مع مصر، وأن بريطانيا لايوثق بها. ولجأ الفريق الأول إلى السيد عبدالرحمن المهدى فأيدهم وأصبح راعى حزب الأمة الـذي تأسس في ربيع الأول ١٣٦٤هـ (شباط ١٩٤٥م)، بينما أسس الفريق الآخر حزب الأشقاء برعاية المرغنى وعمدت حكومة السودان إبان الحرب إلى تأسيس مجلس استشارى لشمالى السودان عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)، فلم تعارض حكومة مصر الوفدية ما حدث بل أقرته وحمل الأشقاء، وهم أصحاب الأكثرية في المؤتمر على هذا المشروع واعتبروه بداية تجزئة بين الشمال والجنوب ودعوا إلى مقـاطعته. ولكن المجلس الاستشارى أثبت وجوده، وقام بأعماله، وطالب بأن يؤخذ رأيه بالمفاوضات بين مصر وبريطانيا حول مصير السودان.

وكـانت بريطانيا قد وافقت، بالحاح من مصر، على الدخول في مفاوضات لتعديل معاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م). وقرر مؤتمر الخريجين (بجناحيه) اغتنام هذه الفرصة للتعبير عن رأى السودانيين وإسماع صوتهم. وذهب وفد سودانى إلى مصر ليعرض على وفدى بريطانيا ومصر وجهة النظر السودانية. ولكن مصر تمسكت

بشكل غير لبق بسيادتها على السودان فعاد الوفد السوداني فاشلاً حزيناً.

وأبدى المؤتمر نشاطاً هاماً في الدفاع عن حقوق السودان. وقدم في ١٧ ذي القعدة ١٣٦٤هـ (٢٣ تشرين أول ١٩٤٥م) مذكرة إلى الحاكم العام طالب فيها بقيام حكومة سودانية ديمقراطية في اتحاد مع مصر وتحالف مع بريطانيا على أن تقرر الحكومة السودانية وحدها نوع الاتحاد والتحالف، كما طالب بإطلاق الحريات العامة، وتأليف لجنة مشتركة نصفها من السودانيين (بينهم المؤتمر) والنصف الآخر من المصريين والانكليز لوضع مشروع تولي السودانيين مقاليد الحكم في البلاد في أقصر وقت.

وتعثرت المفاوضات بين مصر وبريطانيا، فاستقلت بريطانيا بالعمل في السودان ووجهته وجهة ترضاها. وكانت بريطانيا قد نمت الإدارة المحلية خلال المدة ١٣٤٠-١٣٦٦هـ (١٩٢٢-١٩٤٧م)، وأسست المجلس الاستشاري لشمالى السودان عام ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) واستغلت بريطانيا الخلاف مع مصر حول تفسير بروتوكول السودان الملحق باتفاقية (صدقي - بيفن) لكسب تأييد الرأى العام السودانى. واقترح الحاكم العام في ٥ شوال ١٣٦٦هـ (٢٢ آب ١٩٤٧م) تأسيس مجلس تشريعى، وآخر تنفيذى فوافقت مصر من حيث المبدأ، ولكنها طالبت بزيادة صلاحيات المجلسين وإعطاء مصر صوتاً. ورفضت مصر، كترضية لها، مقعدين في المجلس التنفيذى فسارعت بريطانيا إلى تطبيق الفكرة منفردة. قدم الحاكم العام مشروعة النهائي في أواخر عام (١٩٤٨م) الذي أعطى المجلس التشريعى حق التشريع في جميع الأمور باستثناء:

(١) قانون تأسيسه.

(٢) علاقات السودان مع مصر وبريطانيا والدول الأخرى.

(٣) الجنسية السودانية.

وأبيح للمجلس أن يشرّع في موضوعات النقد والدفاع والأقليات إذا وافق على ذلك المجلس التنفيذى. وتشكل المجلس التشريعى من «٩١» عضواً كان منهم الأعضاء الستة الانكليز في المجلس التنفيذى، وعيّن الحاكم البريطانى «٣٣» سودانياً، وانتخب الباقون (عشرة بالانتخاب المباشر). وجعل عدد أعضاء المجلس التنفيذى اثنا عشر نصفهم انكليز، والنصف الآخر سودانيون، ثلاثة منهم

يشغلون مناصب رئاسة دوائر الزراعة، والتعليم، والصحة. وزيد عدد السودانيين إلى سبعة في منتصف ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) حينما ملأ سوداني منصباً كان يحتله بريطانى. ومنح الحاكم العام صلاحية تعيين أعضاء المجلس التنفيذى، واعتبروا مسؤولين أمامه، ومنح حق نقض وإبدال قرارات المجلس.

ودخلت القضية السودانية مرحلة جديدة خلال عامى ١٣٧١-١٣٧٢هـ (١٩٥١-١٩٥٢م). فقد اتخذ مجلس النواب المصرى في ١٥ محرم ١٣٧١هـ (١٥/١٠/١٩٥١م) قراراً بإلغاء معاهدة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م)، واتفاقية (١٨٩٩م) ١٣١٦هـ، كما عدل المواد ١٥٩ و ١٦٠ من الدستور المصري. وأصبح لقب ملك مصر بموجب هذا التعديل «ملك مصر والسودان» كما اعتبر السودان جزءاً من مصر على أن تنظم حكم السودن بموجب قانون خاص. وأقر المجلس في اليوم نفسه هذا القانون الذي نص على تشكيل جمعية سودانية منتخبة تضع للسودان دستوراً ينص على تأليف مجلس منتخب أو مجلسين أحدهما منتخب، وتشكيل مجلس وزراء سوداني مسؤول أمام مجلس النواب يعينه ويعزله الملك. وأكد القانون على وجوب النص على فصل السلطات في الدستور السوداني.

ولم تقف بريطانيا مكتوفة اليدين أمام ما حدث بل بادرت إلى اتخاذ تدابير دستورية في السودان. وكانت قد شكلت في آذار ١٩٥١م لجنة ضمت ثلاثة عشر سودانياً برئاسة قاض بريطاني، كما ضمت إليها مستشارا قانونياً بريطانياً. واستقال ستة من الأعضاء السودانيين لتشككهم بنوايا بريطانيا. وانفرد الرئيس البريطاني ومستشاره بوضع مشروع للحكم الذاتي، قدم إلى الجمعية التشريعية في ٨ رجب ١٣٧١هـ (٢ نيسان ١٩٥٢م)، وجاء المشروع مخيباً للآمال إذا أعطى الحاكم العام سلطات مطلقة تمكنه من تجاهل مجلس الوزراء ومجلس النواب.

وكانت مصر تعاني في ذلك الوقت أزمات وزارية متلاحقة إثر حريق القاهرة، وإقالة وزارة النحاس. ولما شكل الهلالى وزارته الأولى بادر إلى توجيه الدعوة إلى السيد المهدي لزيارة القاهرة أو إرسال وفد إليها للدخول في مفاوضات حول مصير السودان. وكان المهدي إذ ذاك حانقاً على بريطانيا وشعرّ أن بريطانيا تتنكر لوعودها السابقة له بالعمل على استقلال السودان. واعتقد المهدى أن الحزب الجمهوري الاشتراكي الذي أسسه إبراهيم بابكر بدرى في ٢٠ ربيع الأول

١٣٧١هـ (١٨ كانون أول ١٩٥١م)، إنما قام بإيعاز بريطاني ليزاحم حزب الأمة الذي يرعاه المهدي. ودعا الحزب الجديد إلى حصول السودان على استقلاله بعد مرحلة من النضج والازدهار يتمكن خلالها الشعب السوداني من استيعاب فكرة الحكم الذاتي. ولماشعر المهدي أن مصر راغبة بالتفاهم معه، ورأى أن بريطانيا قد خدعته، سارع إلى تلبية الدعوة وإرسال وفد إلى مصر لمفاوضة الهلالي.

وتلاحقت الأحداث في مصر بحيث لم تسمح بإجراء مفاوضات مفيدة، فقد استقال الهلالي في ٦ شوال ١٣٧١هـ (٢٨ حزيران ١٩٥٢م) وشكل حسين سرى وزارة عاشت عشرين يوما، ثم عاد الهلالى إلى الحكم وقامت الثورة في اليوم التالي في ٢ ذي القعدة ١٣٧١هـ (٢٣ تموز ١٩٥٢م)، وتنازل الملك فاروق عن العرش مساء ٥ ذي القعدة (٢٦ تموز) من العام نفسه. وأخيراً شكل اللواء محمد نجيب وزارة عسكرية اتخذت إجراءات حاسمة نحو السودان. ووصل المهدى وزعماء الأحزاب الاستقلالية السودانية إلى القاهرة في ١ صفر ١٣٧٢هـ (العشرين من تشرين أول). وتوصلت الأحزاب إلى اتفاق مع مصر بعد تسعة أيام. وصيغت هذه الاتفاقية بشكل مذكرة أرسلتها مصر إلى بريطانيا في ١٣ صفر ١٣٧٢هـ (الثاني من تشرين الثاني). واقترحت مصر اعطاء السودانيين حق تقرير مصيرهم في جو حبادي حر خلال فترة انتقالية ينتهى بانتهائها الحكم الثنائي، وتعود السيادة للشعب السوداني. واقترحت مصر أن يمارس الحاكم العام سلطاته خلال فترة الانتقال بمساعدة لجنة مؤلفة من مصري وبريطاني وسودانيين برئاسة هندي أو باكستاني. كا اقترحت تشكيل لجنة سباعية من مصري، وبريطاني، وأمريكي، وثلاثة سودانيين، برئاسة هندي أو باكستاني لتشرف على الانتخابات. ورحبت الأحزاب السودانية بهذه الاقتراحات ووقعت في ٢٣ ربيع الثاني ١٣٧٢هـ (١٠ كانون الثاني ١٩٥٣م) على اتفاق فيما بينها تعهدت فيه بالتمسك بالمذكرة المصرية مع المطالبة بتعديلها لصالح السودانيين. ولم تر بريطانيا بدا من الرضوخ لما حدث فوقعت مع مصر اتفاقية السودان في ٢٢ جمادى الأول ١٣٧٢هـ (١٢ شباط ١٩٥٣م).

وخـطت السـودان خطوات سريعـة في طريق الاستقـلال. فقـد أجـريت الانتخابات، ونالت الأحزاب التي تطالب بالاتحاد مع مصر أكثرية المقاعد. وكان

توزيع المقاعد على الأحزاب في مجلس النواب (٩٧ مقعداً) والشيوخ (٣٠ مقعداً) كما يلي:

١ ــ حزب الأمة: نال ٢٤ مقعداً في مجلس النواب وثلاثة في الشيوخ. تأسس هذا الحزب عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) وترأسه عبدالله خليل ورعاه السيد المهدى. ودعا الحزب إلى استقلال السودان التام عن مصر، وعدم الدخول في اي اتحاد أو وحدة معها.

٢ ــ الحزب الوطنى الاتحادي: نال ٥١ مقعداً في مجلس النواب، و ٢٢ مقعداً في مجلس الشيوخ. تأسس هذا الحزب أوائل عام ١٣٦٢هـ (١٩٥٣م) برئـاسة إسماعيل الأزهرى ورعاية الميرغني. وضم الحزب جميع الأحزاب الاتحادية كحزب الاشقاء ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م). وحزب الجبهة الوطنية التي شكلها ميرغني حمزة في ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م).

٣ ــ الحزب الاشتراكي الجمهوري: نال ٣ مقاعد في مجلس النواب، شكله إبراهيم بدري في عام ١٣٧٠هـ (١٩٥١م) ودعا إلى التدريج في طريق الاستقلال.

٤ ــ حزب الجنوب الحر: نال ٩ مقاعد في مجلس النواب وثلاثة في الشيوخ. طالب باستقلال ذاتي للجنوب.

ونال المستقلون اثنى عشر مقعداً في مجلس النواب، ومقعدين في مجلس الشيوخ وعـين الحـاكم العام أربعة شيوخ من حزب الأمة، وعشرة من الحزب الوطني الاتحـادي، وشيخـاً واحداً من الحزب الجمهوري، وثلاثة من حزب الجنوب، وشيخين مستقلين.

عقد مجلس الأمة السوداني الأول جلستة الأولى في منتصف عام ١٣٧٣هـ (مطلع عام ١٩٥٤م)، وانتخب إسماعيل الأزهري رئيساً لوزراء السودان. وأتم الأزهـري تشكيل وزارتـه من بين أعضـاء مجلس الأمة، ومارست هذه الوزارة سلطاتها على الفور. كما أتمت لجنة السودنة في (تشرين الثاني ١٩٥٥م) سودنة جميع وظائف الإدارة والجيش والشرطة.

وبعد أن تمت عملية السودنة قرر مجلس الأمة السوداني في ٢٨ ذي الحجة ١٣٧٤هـ (١٦/٨/١٩٥٥م) السـير في عملية تقـرير المصير، وطالب كلًا من

بريطانيا. ومصر بسحب قواتها خلال ثلاثة شهور من هذا الإخطار، وتم فعلاً جلاء القوات المصرية والبريطانية يوم ٢٨ ربيع أول ١٣٧٥هـ (١٣ تشرين الثاني ١٩٥٥م) فلم يبق على أرض السودان جندي واحد غير سوداني.

وعلى الرغم من المحاولات الأجنبية والدسائس في إثارة تمرد في الجنوب لعرقلة تقرير المصير، الا أن الحكومة السودانية استطاعت القضاء على التمرد، وسيطرت سيطرة تامة على الجنوب، ولم تعق الثورة إجراءات تقرير المصير، واتجه الرأى إلى تقرير المصير بطريق الاستفتاء المباشر.

واجتمع مجلس الأمة السوداني في ١٨ جمادى الآخرة ١٣٧٥هـ الموافق (١٩ كانون أول ١٩٥٥م) ليتخذ أخطر قرار في تاريخ السودان. وقرر المجلس إعلان استقلال السودان، وتشكيل لجنة سيادة خماسية، وتكوين جمعية تأسيسية تعطى الاعتبار الكافي لتشكيل حكومة اتحادية للمديريات الجنوبية الثلاث. وأقر المجلس في غرة شهـر رجب ((أواخـر عام ١٩٥٥م) الـدستور المؤقت الجديد، والعلم السوداني (أزرق وأصفر وأخضر) رمز النيل والصحراء والزراعة).

واحتفلت السودان في الأول من رجب من عام ١٣٧٥هـ (الأول من كانون الثاني ١٩٥٦م) باستقلالها وقيام النظام الجمهوري فيها وبادرت مصر وبريطانيا إلى الاعتراف بالجمهورية المستقلة الجديدة في اليوم نفسه وغدت السودان عضواً في الجامعة العربية ١٩ رجب (١٩ كانون الثاني)، وعضواً في هيئة الأمم المتحدة في تشرين الثاني من العام نفسه.

وتقلب الزمان بالأزهري. فقد بدأ من أنصار الاتحاد مع مصر، ثم غير رأيه أوائل عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٥م) وظهر الفتور بينه وبين وفد مصر واضحاً في مؤتمر «باندونغ» (نيسان ١٩٥٥م) وأعلن رأيه صريحاً حينما نادى بقيام جمهورية سودانية مستقلة فالتقى بذلك مع حزب الأمة. ولكن عمله هذا لم يحم حزبه ولا وزارته. فقد كان خلافه مع الطائفة الختمية عميقا بعدما شعر الميرغنى بأن الأزهرى لايؤيد النفـوذ الميرغنى للطريقة الختمية. وتصدع الحزب وانشق عنه علي عبدالرحمن. وميرغني حمزة وغيرهما وشكلوا عام (١٩٥٦م) حزب الشعب الديمقراطي الذي رعاه الميرغني. وطوح هذا الانقسام بوزارة الأزهري فشكل عبدالله خليل زعيم حزب الأمة وزارة ائتلافية في ٢٦ ذي القعدة ١٣٧٥هـ (٤ تموز ١٩٥٦م) وضمت

وزارته ستة وزراء من حزب الأمة وستة من حزب الشعب الديمقراطي، وواحد عن الاشتراكي الجمهوري، وثلاثة عن حزب الجنوب الحر.

ولم يكن السودانيون عامة، ولا الأزهري خاصة خصوماً للوحدة مع مصر وإنما كانوا من أنصارها ودعاتها، إلا أن الإطاحة بمحمد نجيب، وإساءة صلاح سالم الذي ذهب داعية للوحدة، والحكم الاستبدادي الظالم الذي ظهر في مصر كل هذا غير من آراء. الأزهري والسودانيين ففضلوا الاستقلال عن الوقوع في الاستبداد.

وبدأت انتخابات الجمعية التأسيسية (ثاني انتخابات في السودان) في ٨ شعبان ١٣٧٧هـ (٢٧ شباط ١٩٥٨م) وانتهت في العاشر من آذار لإملاء ١٧٣ مقعداً في مجلس النواب. ونال حزب الأمة نصراً كبيراً وكسب مقعداً في مجلس النواب، بينما لم ينل الحزب الوطني الاتحادي غير ٤٥ مقعداً. ونال حزب الشعب الديمقراطي ٢٧ مقعداً، وحزب الجنوب الحر ٢٠ مقعداً، والمستقلون ١٨ مقعداً. وكسبت هذه الأحزاب في مجلس الشيوخ بالتعيين والانتخاب نسباً متقاربة: الأمة ١٤، الاتحادي ٥، الشعب ٥، الجنوب والمستقلون ٦. وألف أثناء ذلك عمر بن الخليفة عبدالله التعايشي حزب التحرير الوطني الذي لم ينل أي مقعد في مجلس الأمة. وشكل عبدالله خليل وزارة ائتلافية جديدة في (١٩٥٨/٣/٢٧م) سرعان ما انهار ائتلافها. ولم يكن بالإمكان تشكيل وزارة تستقر في ٧ رمضان ١٣٧٧هـ الحكم، وتحمي التوازن بين المهدي والميرغني وتحفظ لهما نفوذهما. وغدا الانقلاب العسكري أمراً محتوماً، والحل الوحيد للأزمة المستحكمة بين أحزاب اشتدت في عداوتها بعضها لبعضها الآخر. وتناسب مصالح البلد، وتنكرت لمبادىء الإسلام والحكم، وقام قائد الجيش الفريق ابراهيم عبود في ٦ جمادي الأولى ١٣٧٨هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩٥٨م) بانقلاب عسكري ألغى على أثرة الدستور، وحل المجلس النيابي والأحزاب، ثم تسلم رئاسة الدولة من خلال مجلس أعلى للقيادة العسكرية. ويبدو أن رئيس الوزراء كان على علم بالانقلاب قبل وقوعه بأسابيع.

وأعلن قائد الثورة حياد السودان وإلغاء تماثيل الإنكليز من الساحات العامة، ووقع في عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) اتفاقية مع جمهورية مصر (الجمهورية العربية

المتحدة آنذاك) تنظم شؤون الريّ والتجارة، وتعويضات السد العالي، لكن هذا الحكم العسكرى تحول إلى الاستبدادية الفردية، فأثار ضده نقمة مختلف الاحزاب والهيئات لذا قامت ضده ثورة شعبية عارمة في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ (٢١ تشرين الأول ١٩٦٤م) وأطاحت بحكمه، وعادت بالبلاد إلى النظام الدستوري النيابي، لكن هذه العودة لم تدم أكثر من أربع سنوات حاول خلالها الحزبان الرئيسيان في السودان (حزب الأمة، والحزب الاتحادي الديمقراطي) إقامة النظام النيابي التقليدي، فاختير إسماعيل الأزهرى رئيس الحزب الاتحادي رئيسا لمجلس السيادة وانتخبت الجمعية التأسيسية لوضع الدستور في (آذار ١٩٦٨م) وقبل أن يصـدر الـدستور وبينما كان السياسيون منصرفين إلى الخصومات الحزبية، عاد الجيش مرة أخـرى إلى استـلام الحكم في انقلاب عسكري ثان في ٢٧ صفر ١٣٨٨هـ (٢٥أيار ١٩٦٨م) وتسلم الأمور مجلس ثورة من الضباط الشباب برئاسة «جعفـر النمـيرى» وألقى السياسيون من الحزبين في السجن، وأعطيت رئاسة الوزراة مؤقتاً لأحد القضاة «بابكر عوض الله»، ثم مالبث مجلس قيادة الثورة أن تسلم الحكم مباشرة بنفسه. وقد جرت محاولات تمرد ضد الرئيس النميرى: الأولى من جماعة المهدي في عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) عندما أظهرت عصيانها في جزيرة «أبـا» فاستـطاعت الحكـومة أن تقضي على المحاولة بالطيران مستعينة بالطيران المصري، وقد كان حسني مبارك قائد الطيران الذي فتك بجماعة حزب الأمة في جزيرة أبا. كما جرت محاولة أخرى من سكان الجنوب، واستمر العصيان حتى حصلوا من الحكومة على الحكم الذاتي ١٩٧١م. والمعروف أن الجنوب كان قد فتحـه الإنكليز قبـل الاستقـلال للإرسـاليات الأجنبية والتنصيرية، فلما استقل السودان استغلت القوى الاستعمارية تلك الأقليات النصرانية التي تكونت هناك للتـدخـل في شؤون السودان، وإثارة العصيان والاضطرابات المسلحة بين فترة وأخرى. كما جرت محاولات انقلابية عسكرية ضد الرئيس النميري الأولى في عام (١٩٧١م) بقيادة الـرائـد هاشم العـطا، إلا أن الحكـومة بمؤازرة مصر وليبيا استطاعت القضاء على تلك المحاولة على الرغم من نجاحها في بادىء الأمر. أما المحـاولة الثانية فقد جرت في عام (وأحبطت أيضا. والجدير بالذكر أن هاتين المحاولتين كان وراءهما الحزب الشيوعي السوداني. وانتخب النميري بعد ذلك رئيسا للجمهورية.

ومن أهم مشكلات السودان الحالية **مشكلة التنمية الاقتصادية**: فالمعروف أن دخل السودان يرتفع سنويا بمعدل ٢٪ تقريباً بينما يزداد سكانه بنسبة ٣٪ وهذا يعني زيادة مستمرة في التخلف، كما أن نمو الوعي العمالي في المدن وسوء الظروف المعيشية في الـريف يزيد من أعبـاء الحكومة التي تتعاون مع عدد من الدول الصديقة لإقامة عدد من المشروعات الإنمائية.

جرت عدة محاولات انقلابية، وفشلت جميعها، وجرت لقاءات بين السلطة والمعارضة في ٢١ رجب ١٣٩٧هـ (٧ تموز ١٩٧٧م)، وتمت المصالحة مع الإخوان المسلمين الذين أخذ يلحون على تطبيق الشريعة، ولكن مالبث أن وقع الخلاف، وادعى النميرى أنه اكتشف مؤامرة من الاخوان ضده، فأبعدهم في جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ (١٠ آذار ١٩٨٥م) وألقى القبض على بعضهم، وكانت الارساليات التنصيرية من وراء ذلك، إذ اهتزكيانها وكيان الدول النصرانية من فكرة تطبيق الشريعة.

وفي ١٦ رجب ١٤٠٥هـ (٦ نيسان ١٩٨٥م) قام وزير الدفاع عبدالرحمن سوار الذهب بانقلاب، وسيطر الجيش على الحكم مدة سنة تم سلمه لحكومة مدينة، وبعـد اتفاقية «كوكادام» التي تم فيها تجميد قوانين الشريعة الإسلامية حسب اقتراح حزب الأمة. وجرت الانتخابات العامة في السودان. وتفوق حزب الأمة، وشكـل رئيسـه الوزارة مرة مع الحزب الاتحادي الديمقراطي، ومرة مع الجبهة الإسلامية، وأخيراً مع إلى الحزب الاتحادي الديمقراطي فشكل معه وزارة أئتلافيه.

وفي ٢٧ ذي القعـدة ١٤٠٩هـ (٣٠ حزيران ١٩٨٩م) قام انقلاب بزعامة العميد عمر حسن البشير، وتسلمت الجبهة الإسلامية، ولاتزال إلى هذا اليوم. كل هذا ومشكلة الجنوب قائمة وتؤرق كل وضع يقوم في السودان.

الفصل الثالث
ليبيـــــا

تحتل ليبيا موقعاً هاماً على حوض البحر الأبيض المتوسط. فإلى الشرق منها تقوم مصر. وإلى غربها تقع تونس والجزائر، ويحدها من الجنوب السودان، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، فهي تؤلف النصف الشرقي للمغرب العربي. وحلقة وصل بين المغرب والمشرق العربي. وليبيا في مجموعها جزء من هضبة إفريقية التي تمتد من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر.

تقدر مساحة ليبيا نحو (١,٧٥٠,٠٠٠ كم٢) وتشكل الصحراء الجزء الأكبر منها إذ تقدر بما يقرب من أربعة أخماس هذه المساحة. وقد أصبحت هذه الصحراء مصدراً من مصادر الدخل بعد اكتشاف النفط فيها. ويبلغ عدد سكان ليبيا حوالى مليونين ونيف وعاصمتها طرابلس، ومن أهم مدنهابنغازي، وبرقة، والبيضاء، وتتكون ليبيا من ثلاث مقاطعات: برقة وقاعدتها بنغازي، وطرابلس وقاعدتها طرابلس، وفزان وقاعدتها مرزوق.

كانت ليبيا أولى البلدان العربية في إفريقية التي خضعت للحكم العثماني وآخر بلد خسرة العثمانيون في إفريقية، فقد حرر العثمانيون طرابلس من الاسبان وفرسان مالطة في ٩٥٨هـ (صيف ١٥٥١م) وحكموها كغيرها من الولايات العثمانية في إفريقية. وخسر العثمانيون الولاية حينما استولى على الحكم فيها أحمد باشا القرمانلى في جمادى الأولى ١١٢٣هـ /١٧١١م وحكمت عائلة القرمنلي طرابلس أكثر من قرن وربع ولم تبق للسلطان العثماني غير الولاء الرسمي. وازدادت المصاعب في وجه الأمير القرمنلي الرابع يوسف باشا ١٢١٠-١٢٤٨ (١٧٩٥-١٨٣٢م) ولم يستطع التغلب على مشكلاته المالية، ولا وفق في إخماد

الثورات التي قامت ضده. ولسوء حظه أصبحت بلده محط أنظار فرنسا وبريطانية والولايات المتحدة إبان الحروب النابيونية. واشتدت أزمته المالية بعد أن توقفت الدول الأوربية عن دفع الهدايا له. وفرضت عليه فرنسا في ٢١ صفر ١٢٤٦هـ (١١ آب ١٨٣٠م) معاهدة ألغت «الهدايا» وحررت العبيد الأوروبيين ومنعته من تقوية أسطوله أو القيام باحتكارات تجارية وفرضت عليه دفع غرامة كبيرة. وكثرت الثورات ضده فأجبره أعضاء الديوان والأعيان على التنازل لابنه علي في ١٦ ربيع أول ١٢٤٨هـ (١٢ آب ١٨٣٢م). ولم يطل عهد علي باشا إذا وصلت حملة عثمانية بقيادة نجيب باشا إلى طرابس في محرم ١٢٥١هـ (أيار ١٨٣٥م) وألقى القبض على باشا وانتهى بذلك العهد القرمنلي.

حكم ليبيا خلال العهد العثماني (١٨٣٥-١٩١١م) ثلاثة وثلاثو ن والياً بينهم ثلاثة (عزت باشا، نديم باشا، علي رضا باشا) حكموا نحوا من ثلاثين سنة، بينما كان معدل ولاية الواحد من الباقين أقل من عام واحد. وطبق العثمانيون عام ١٢٨١هـ /١٨٦٣م نظام الولايات العثماني.

وشعرت ليبيا بالخطر الفرنسي المتزايد على حدودها الغربية منذ عودة الحكم العثماني المباشر. فقد احتل الفرنسيون الجزائر قبل مجيء الاسطول العثماني إلى طرابلس بخمسة أعوام. واشتد الخطر الفرنسي بعد فرض الحماية الفرنسية على تونس عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م)، فعززت الدولة العثمانية حاميتها على حدود الغربية. وشارك الليبيون في دعم النضال العربي في الجزائر وتونس. وشرع الفرنسيون بتهديد طرابلس من الجنوب فاحتلوا تشاد بعد إبادة حاميتها العثمانية.

وعلى العموم، فقد كان للهجمة الاستعمارية الشرسة أثر على الليبيين، إذ جعلتهم يتمسكون بروابطهم مع الدولة العثمانية لأنها في نظرهم قوة إسلامية يمكن الاعتماد عليها في مواجهة الدول الأوربية. وهذا الانطباع أدى بدوره إلى تقوية مركز الدولة العثمانية من جديد بعد أن أصابه الضعف من جراء سوء الإدارة والأخطاء في سياسة الحكم. وقد قوى هذه الفكرة ورسخها ظهور حركات الإصلاح والتجديد على أساس اصلاحى في مصر، وفي ليبيا ذاتها، فقد كان من الطبيعى أن تنظر مصر إلى الدولة العثمانية كحليف يمكن أن يعاونها في التغلب على الاحتلال البريطاني، كما أن الحركة السنوسية كانت ذات طابع إسلامي

شامل، يهدف إلى إيقاظ الأمة الإسلامية مما أصابها وجعل بلادها تقع فريسة للغزو الأجنبي. فبلاد العرب في شمال إفريقية قد فرضت عليها الظروف أن تتمسك بالفكرة الدينية كرابطة جامعة تستند إليها في مقاومة أطماع الغرب، فالحاكم هناك كان لايزال الدولة العثمانية والسبيل الوحيد للتخلص من حكمها هو بعث فكرة القومية العربية، وهو أمر صادف هوى عند موجهى سياسة الغرب في هذا القسم من العالم العربى، إذ رأوا أن المساندة العربية في قضية العروبة هي السبيل الوحيد لتقوية عوامل الفرقة بين الشعب العربى وبين حكامه العثمانيين الذين كانوا حينذاك نشيطين في بعث دعاياتهم عن الوحدة الإسلامية والإخاء الإسلامي.

وإنطلاقاً من فكرة الوحدة الإسلامية، ارتبطت الحركة السنوسية في ليبيا بالدولة العثمانية لمقاومة الغزو الأجنبي ومحاولات التسلل الاستعمارى الى ليبيا خاصة وأن الدول الأوربية كانت تخطط في القرن الثالث عشر الهجري (أواخر القرن التاسع عشر الميلادى) إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية الضعيفة فيما بينها، وكانت فرنسا وانكلترا سباقتين إلى هذا التخطيط الاستعمارى وكذلك فعلت إيطاليا التي كانت تنظر لاحتلال ليبيا التي تركتها الدول الأوربية كحصة لايطاليا في الشمال الإفريقي. وقبل احتلال ايطاليا لليبيا بدأ التغلغل الإيطالي للبلاد عن طريق البعثات التنصيرية والتجارة والمدارس والمستشفيات وإنشاء المصارف التي قامت بتسليف المواطنين واغتصاب أراضيهم الزراعية بعد إغراق أصحابها في الديون، كما كان لمصرف روما نشاط في التجسس وإرسال التقارير. ومهدت كل هذه الأمور لاحتلال ليبيا من قبل إيطاليا خاصة بعد احتلال فرنسا لتونس والجزائر وبريطانيا لمصر وقبرص.

قررت إيطاليا احتلال ليبيا فأنذرت الدولة العثمانية وأبلغتها عن نيتها باحتلال ليبيا وطلبت منها تسهيل عملية الاحتلال بحجة حماية رعاياها من اضطهاد الدولة العثمانية. فردت الدولة العثمانية ردا ضعيفاً حاولت فيه التنصل من اتهامات إيطاليا ودعت إلى إجراء مفاوضات بين البلدين بهدف تجنب الحرب وحسم النزاع بطرق سلمية ولكن إيطايا رفضت كل محاولات الدولة العثامية بتسوية النزاع، وأعلنت إيطاليا الحرب في ٦ شوال ١٣٢٩هـ (٢٩ أيلول عام ١٩١١م) وحاصر الأسطول

الإيطالي طرابلس مدة ثلاثـة أيام فسقـطت المدينة بعد قتال غير متكافىء وتم احتلال ايطاليا لليبيا في (تشرين الأول ١٩١١م). وقد قاوم العثمانيون والسنوسيون وبقية الشعب الليبي الاحتلال الإيطالي الغاشم ولكن الإيطاليين تمكنوا من قهر المقاومة الإسلامية وسيطروا على ليبيا.

كما لجأت إيطاليا إلى نقـل الحـرب الى الأراضي العثمانية الأخرى. فهاجم أسـطولهـا موانىء بيروت والحـديدة، وأيد الإدريسي في تهامـة عسـير، وهاجم الدردنيل، واحتل جزيرة (رودس) وباقي مجموعة جزر (الدوديكانيز) ورأت الدولة العثمانية أن لا قبل لها بمتابعة الحرب ضد إيطاليا لاسيما وأن بوادر الحرب البلقانية كانت ظاهرة، ففاوضت من أجل الصلح. وعقدت معاهدة اوشي (لوزان) في ٨ ذي القعـدة ١٣٣٠هـ (١٨ تشرين أول ١٩١٢م) التي تعهد الباب العالي بمـوجبهـا بسحب قواتـه وموظفيه المدنيين في ليبيا. وأعلن السلطان منح ليبيا استقلالها الداخلي التام المطلق. وأعلنت إيطاليا عملاً بالقانون الإيطالي الصادر في (٢٥ شباط ١٩١٢م) القاضي بجعل ليبيا خاضعة للسيادة الإيطالية، العفو العام في ليبيا ووعدت بالإبقاء على الخطبة باسم الخليفة العثماني.

ويلاحظ في هذه التسـوية أن الدولة العثمانية قد سلكت سبيل المضطر إلى المصالحة ويتجلى حرج موقفها بالمنشور الذي أصدره السلطان العثماني مانحاً أهل ليبيا استقلالهم الذاتي، وكذلك بالتحفظات التي حاولوا فرضها على الإيطاليين بأن يكون للسلطان نائب خاص في طرابلس يضمن حكم البلاد على أسس شرعية، وكذلك بمحاولة الحصول على تعهد إيطاليا بألا تحكم البلاد إلا طبقاً للشريعة الإسلامية وبأن يذكر السلطان في خطبة الجمعة، لكن هذه التحفظات التي اتفق عليهـا لم تكن لها ضمانـات لتنفيذهـا، فالمستعمـر الـذي يملك القوة لايتقيد بالاتفاقات التي يوقعها مع خصم أضعف منه.

المقاومـــة الليبيـــــة :

لم تتوقف المقاومة الليبية إثر الاحتلال الإيطالي، فقد عملت الدولة العثمانية على تعـزيز المقـاومة الليبية رغم استسلامها أمام الطليان وذلك بمنح الليبيين استقلالهم بموجب المنشور الذي ذكرناه، وكذلك بالزيارة التي قام بها أنور باشا

للسنوسي في واحة (جغبوب) في ١١ ذي الحجة ١٣٣٠هـ (٢٠ تشرين الثاني ١٩١٢م) بعدما انتقل اليها من الكفرة مبلغا إياه إسناد زعامة البلاد إليه، وكذلك سلم القيادة العامة في ليبيا إلى عزيز علي المصري.

واستمرت المقاومة في برقة على يد السنوسي الذي اشترك شخصياً في بعض المواقع وعلى يد عزيز المصري الذي قام خلاف بينه وبين الليبيين أدى إلى انسحابه. وبقيت المقاومة الليبية تقض مضاجع الإيطاليين، فاستخدموا كثيراً من السبل للقضاء عليها، منها الضغط على الدولة العثمانية التي كانت بعد توقيع معاهدة الصلح مترددة بين مناصرة الليبيين وبين الالتزام ببنود المعاهدة. كما استعانت إيطاليا بالمستعمرين الإنجليز في مصر ومعتمدهم البريطاني اللورد «كتشنر» لكف يد المصريين عن تقديم العون لإخوانهم الليبيين. ومع ذلك لم يلق الليبيون السلاح، وشكلوا جيشاً للمقاومة بقيادة «عمر المختار»، وظل يقاوم الإيطاليين إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وقد دخلتها إيطاليا في صف الحلفاء في حين كانت تركيا حليفاً لألمانيا وخصما لإيطاليا، وهنا جاهرت بمناصرة الليبيين وتأييدهم. وأوفد أنور باشا شقيقه نوري إلى السيد أحمد السنوسي عاملاً على تنسيق العمليات بين الدولة العثمانية والسنوسية، ولكن الموقف هنا كان قد تغير، فإذا كان هناك عدو مشترك للسنوسية والأتراك على السواء يتمثل في إيطاليا، فالأمر لم يكن كذلك بالنسبة للإنكليز الذين كانوا حلفاء الطليان في الحرب العالمية، فبينما كان العثمانيون يريدون الانتقام من الإنكليز والوصول إلى قناة السويس مع الألمان عن طريق الشام، ومن ناحية أخرى فقد كانوا يريدون أن يخلقوا الاضطرابات على الحدود الغربية لمصر بحيث تشغل جانباً من الجيش الإنكليزي لمقاومة الزحف القادم من الشرق.

قاوم الشريف السنوسي خطط العثمانيين، فقد كانت تربطه بالإنكليز مصلحة، ولم يكن يريد أن يغضبهم، ويستجلب عدوانهم بخاصة لأن السبيل المفتوح لتلقى الأرزاق والمعونات كان من ناحية الحدود المصرية، ويتضح ذلك بقوله لمحمد صالح حرب: «إن الأتراك إنما يريدون أن يورطوه في حرب مع الإنكليز قبل أن يستعد لها الاستعداد الكافي، وأنه لايمالىء الإنكليز محبة فيهم أو تقرباً منهم، ولكن مصر هي الباب الوحيد المفتوح الذي تأتيه منه الأرزاق والأقوات التي

يستطيع بفضلها متابعة القتال ضد الطليان فإذا أقفل هذا الباب تحرج موقفه».

تعقـدت العـلاقات بين السنوسي وبين العثمانيين الذين نجحوا في إحداث الوقيعة بين السنوسي وبين الإنكليز من ناحية، وكذلك أخضعوا السنوسي لحملة من التشهـير، بأنه يمالىء الانكليز، أدت إلى توريط السنوسي في الاشتراك مع العثمانيين في عمليات ضد الإنكليز وقد نجحت هذه العمليات بعض الشيء ووصل السنوسيون إلى السلوم، ثم تقدموا إلى (سيدي برانى) حيث انضمت اليهم مجموعة من المجاهدين المصريين منهم: محمد صالح حرب، وكان نائباً لقائد (مرسى مطروح) الانكليزي «رويال بك» والنقيب سيد أحمد أبو شادى والملازم الأول عبدالحميد حمدي، والملازم الأول أمين ذهني، والملازم الأول محمود لبيب، والملازم الأول أحمد سالم وغيرهم، وقد رأى هؤلاء أن الأولى بهم التحالف مع إخوانهم المجاهدين المسلمين ضد بريطانيا. وقد اضطر الإنكليز إلى الانسحاب إلى (مرسى مطروح) حيث قرروا اتخاذها موقعاً يصمدون فيه لهجوم السنوسيين والعثمانيين. ودعى الشريف أحمد السنوسى إلى الأستانة عام ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) فتوجه إليها في غواصة ألمانية. وكانت التعقيدات التي تعرض لها بسبب سياسة الضغط عليه من جانب والعثمانيين والإنكليز قد أضعفت زعامته، فانتقلت زعامة السنوسيين من بعده إلى السيد محمد إدريس السنوسى. أما الهجوم على الحدود الغربية فكان مقدراً له أن لاياتى بأية نتائج حاسمة إذ أن الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا قد هزمتها في تلك الحرب فسويت الأمور في غير صالح القوى المنهزمة.

ورث إدريس السنوى موقفاً عسيراً، فالقوة السنوسية المهاجمة لمصر قد هزمت، وأصبح الموقف بين الإنكليز والسنوسيين موقفاً عدائياً، فأغلقت في وجه السنوسيين طريق مصر، وزاد في سواء الحال قلة الأمطار، مما حرم البلاد من المحصولات الزراعية وأدت المجاعة إلى انتشار الأمراض وتفشى الطاعون، وهنا كان لابد من ايجاد حل لهذا المأزق الذي وقع فيه السنوسيون إذ أصبحوا بين شقى الرحى فهم بين عدو في الشرق هو الإنكليز، وعدو في الغرب هو الطليان، والأمراض تفتك، والمجـاعة تستشري والمجاهدون في كل مكان يسلمون أسلحتهم لقاء القوت. وكـان لابد من التفاوض مع إنكلترا وإيطاليا، وكانتا قوتين متحالفتين. جرت مفاوضات بين السنوسيين من ناحية والإنكليز من ناحية أخرى في (عكرمة) أدت

الى اتفاق ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٣٥هـ (١٦ نيسان ١٩١٧م) عرف باتفاق «عكرمة». وخلاصة مواد الاتفاق، أنه حددت مناطق نفوذ لكل من السنوسيين والطليان بحيث تكون برقة خاضعة للسنوسيين، ونص على إيقاف الحرب، وحرية التنقل بين المنطقتين، وحل بعض الأمور الأخرى كإعادة أملاك السنوسيين إليهم، ومراعاة تطبيق الشريعة الإسلامية وسحب السلاح من القبائل. وسوى هذا الاتفاق أيضاً الخلافات بين الإنكليز والسنوسيين، مما أدى إلى إعادة فتح الطرق إلى مصر في وجوههم كما سمح الإنكليز للسنوسيين بحكم واحة (جغبوب) وكانت من قبل تتبع مصر.

وفي ٢١ رجب ١٣٣٧هـ (٢١ نيسان ١٩١٩م) أصدر الإيطاليون قانوناً أساسياً (دستوراً) لطرابلس يتكون من أربعين مادة نص على حقوق المواطنين وواجباتهم، وعلى إيجاد مجلس نيابي، وعلى افتتاح المدارس، واحترام لغة البلاد، وإعفاء المواطنين من الخدمة العسكرية الإجبارية، وأن تكون الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية وحقوق العائلة والمناسك الدينية من اختصاص المحاكم الشرعية وغير ذلك من الأمور التي تهتم بها الدساتير. وأراد الطليان مدَّ العمل بهذا القانون الأساسى إلى برقة ففاوضوا السيد إدريس في ذلك واستقر الرأى على تطبيق هذا القانون بعد أن أضيف إليه مادتان فيما يخص برقة، وروعيت في تطبيق القانون الأساسى الظروف الاجتماعية لكل من الولايتين. وكان من أهداف الطليان من وراء هذا القانون الأساسى إقرار مبدأ السيادة الإيطالية وكذلك العمل على تهدئة الأحوال الداخلية وتعيين حقوق للمواطنين وواجباتهم.

وزادت العلاقات تقارباً بين الطليان والسنوسى، فعقد اتفقق (الرجمة) في ١٢ صفر ١٣٣٩هـ (٢٥ تشرين أول ١٩٢٠م) وبموجبه اعترف بالسنوسى حاكماً مدنياً وزعيماً للقسم الداخلى من برقة ومنح لقب الأمير بكل مايرتبط به من مراسيم وحقوق، وأصبحت حكومة برقة وراثية من بعده. وغدت برقة بعد هذا الاتفاق منقسمة بين ادريس السنوسي وبين الطليان الذين أبقوا الساحل البرقاوى تحت نفوذهم المباشر، كما اشترط الإيطاليون على السنوسى تصفية معسكرات المجاهدين والتشكيلات السياسية والادارية وألا يحتفظ بجيش أكثر من ألف شخص، ويجوز زيادته باتفاق الطرفين. وبعد هذا الاتفاق أجرى السيد السنوسي انتخابات وافتتح

المجلس النيابي وانتخب السنوسى رئيساً بالإجماع.

غير أنه لم تنه اتفاقية (الرجمة) مشكلة العلاقات بين الطرفين، فشروطها لم تجد قبـولا لدى مشـايخ القبـائـل الـذين أصروا على ألا تحل الأدوار (معسكـرات المجاهدين)، واضطرت إيطاليا إلى عقد اتفاق مع السنوسية في ١١ ربيع الأول ١٣٤٠هـ (١١ تشرين الثاني ١٩٢١م) عرف باتفاق «بومريم»، وبموجبه سمح ببقاء الأدوار، واشترك السنوسيون والإيطاليون في إدارتها.

أما طرابلس، فلم تتوقف المقاومة فيها بعد توقيع معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية وإيطالية. فقد قرر (سليمان البارونى) أن يتابع الجهاد، ثم اضطر عام ١٣٣١هـ (١٩١٣م) إلى اللجوء إلى استانبول، وبعد قيام الحرب العالمية الأولى، رجع إلى طرابلس عام ١٣٣٣هـ (١٩١٥م) بعد أن عينته الدولة العثمانية حاكماً لها. فظل يكافح الطليان إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وكانت نتيجة كفاحه وكفاح السنوسيين في برقة أن الطليان وجدوا أنفسهم في نهاية الحرب العالمية الأولى وقد انحسر سلطانهم في الشريط الساحلى فقط. ولم يخل الأمر من وقوع بعض الخلافات بين السنوسية وزعماء طرابلس وبخاصة (بلخير) و (رمضان السويحلي) زعيم مصراته لكن الطرفين كانا يسيران في اتجاه واحد بالنسبة لمقاومة الاحتلال الايطالي.

وبعد انتهاء الحرب اتفق زعماء طرابلس على اقامة الجمهورية الطرابلسية في ٢٨ محرم ١٣٣٧هـ (٢ تشرين الثـاني ١٩١٨م). ولاشك أن مبادىء تقرير المصير حينذاك قد شجعهم على اتخاذ هذا الموقف وقرروا إحاطة الحكومة الإيطالية علما بذلـك وأنهم مصممـون على مواصلة الجهاد إن لم تعترف إيطاليا باستقلالهم. فاعترفت إيطاليا بالجمهورية نتيجة ظروف الحرب العالمية وعقدت اتفاق (سوانى بنبادم) في ١٣٣٧هـ (١٩١٩م). وبعد إبرام الاتفاق أصدرت إيطاليا الدستور الذي أشرنا إليه قبل قليل، والذي نص على إنهاء حالة القتال بين الطرابلسيين والإيطاليين والاعتراف بالاستقلال الداخلى لطرابلس تحت سيادة ملك إيطاليا، وإيجاد مجلس نواب محلى، ومجلس حكومي يشتركان في حكم البلاد.

لم تدم الجمهـورية الـطرابلسية نتيجة الخلاف بين زعمائها من جهة، وعدم اعتراف إيطاليا بها فعليا من جهة أخرى. مما أدى إلى أن يقوم زعماء طرابلس

بعقد مؤتمر (غريان) في ٢ ربيع أول عام ١٣٤٠هـ (٢ تشرين الثاني ١٩٢١م) وتقرر في هذا المؤتمر توحيد المقاومة في طرابلس وبرقة بزعامة السنوسي، وأرسل وفد إلى مقر الأمير السنوسي في برقة في ١٨ شعبان عام ١٣٤٠هـ (نيسان ١٩٢٢م) حيث تمت الموافقة على توحيد المقاومة وبويع الأمير بالزعامة، وبذلك توحدت الجهود في برقة وطرابلس ضد الطليان في الوقت الذي تقلد الزعامة في إيطاليا موسوليني الزعيم الفاشيستي الذي ألغى جميع الاتفاقيات المعقودة بين إيطاليا والليبيين، وأخذ يعد العدة للانتقام من الليبيين وعلى رأسهم السنوسي نفسه الذي غادر البلاد إلى مصر مقلدا الزعامة العسكرية إلى (عمر المختار) والزعامة الدينية إلى محمد الرضا السنوسي. وهاجر إلى مصر عدد من المجاهدين الليبيين.

وكان الإيطاليون قد بدأوا نشاطهم العسكرى في برقة، وأرسل موسوليني حاكماً جديداً اسمه «بونجيوفاني» وأمره باستعمال الشدة. فقام المفوض السامى الإيطالي الجديد بحل المعسكرات في ولاية برقة، واحتلت القوات الإيطالية العاصمة السنوسية «إجدابية» في ٦ رمضان ١٣٤١هـ (١٩٢٣/٤/٢١م)، وأعلن الحاكم الايطالي بعد ثلاثة أيام إلغاء جميع الاتفاقات المعقودة بين إيطاليا والسنوسية أصبحت مجرد طريقة دينية. وأكد الوالى هذا الأمر في أول أيار وأبلغه وزير ايطاليا المفوض في القاهرة للسنوسي نفسه.

وبرز في ميدان الجهاد السيد (عمر المختار) الذي تزعم نضال أهل برقة مدة ثماني سنوات (١٩٢٣-١٩٣١م). وخلال هذه المدة انقطعت الإمدادات عن المجاهدين لاسيما بعد أن تنازلت مصر عن واحة (جغبوب) لايطاليا في ١٧ جمادى الأول ١٣٤٤هـ (٢ كانون أول ١٩٢٥م) فدخلتها القوات الإيطالية، وتقدم الإيطاليون في الداخل فاحتلوا (العقيلة) و (مرزوق) و (غات) فاتموا بذلك اخضاع (فزان) وغربي ليبيا. ثم زحفوا على واحات القسم الشرقى فاحتلوا (أوجله) و (جالو) و (الكفرة) فتم لهم بذلك عزل (عمر المختار) في الجبل الأخضر. وشرع الايطاليون بمفاوضة محمد الرضا وعمر المختار. أما الرضا فقد استسلم في ١٥ رجب ١٣٤٦هـ (السابع من كانون الثاني ١٩٢٨م). واستمرت المفاوضات مع عمر المختار حتى (تشرين الثاني ١٩٢٩م) عندما أعلن استئناف

الجهاد. ولكن مصير النضال العسكري كان قد تقرر بعد أن تمكن المارشال (بادوليو) والجنرال (غرازياني) من عزل الجبل الأخضر. وسقط عمر المختار أسيراً في ٢٨ ربيع الثاني ١٣٥٠هـ (١١ أيلول/ سيتمبر ١٩٣١م) وجرت له محاكمة صورية وقررت إعدامه، وأعدم فعلا على الرغم من كبر سنه، وأجبر الأهالي على مشاهدة منظر إعدامه، فكان منظراً مؤثراً ورهيباً، وتوقف النضال بعد ذلك حتى قيام الحرب العالمية الثانية.

عاشت ليبيا مأساة محزنة في ظل الإيطاليين حتى عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) فقد اتبع الإيطاليون في البلاد سياسة إبادة وإفناء وإجلاء وإفقار. وقد قدر عدد الشهداء من الليبيين خلال العشر السنوات الأولى من الاحتلال (١٩١١-١٩٢١) قرابة سبعين ألف شهيد. واستولت إيطاليا على مساحات واسعة من الأراضي اسكنت عليها مهاجرين من إيطاليا. فقد وضعت يدها حتى عام ١٣٥٠ (١٩٣١م) على ١٢٠ ألف فدان في برقة لم تدفع ثمن أكثر من ثلثها، وتضاعفت هذه المساحات بعد عامين. وعومل السكان معاملة سيئة فحرم عليهم الكثير. وألقى الناس من الطائرات، وهتكت الأغراض، وديست المصاحف، وسيق العمال والمجندون للخدمة مع الجيش في الحبشه والصحراء الغربية. وأعلنت إيطاليا في ١٩ ذي القعدة عام ١٣٥٧هـ (٩ كانون الثاني ١٩٣٩م) ضم طرابس وبرقة إلى إيطاليا كجزء من أراضيها وتطبيق نظام التتميز العنصرى وإجبار القبائل على الاستقرار ومنح السكان الجنسية الإيطالية.

وحاول الليبيون المهاجرون إثارة الرأي العام لنصرة قضية بلادهم. فأسس بشير السعداوي في دمشق جمعية الدفاع الليبي (الطرابلسي البرقاوى) عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م)، وضمت كامل عياد، وعبدالغني الباجقنى، وبكرى قدوره وأعلنت هذه مطالبها عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) وهي.

١ - تأسيس حكومة وطنية ذات سيادة على رأسها زعيم مسلم تختاره الأمة.
٢ - تشكيل جمعية تأسيسية لوضع دستور للبلاد.
٣ - انتخاب مجلس نواب.
٤ - جعل العربية لغة رسمية.
٥ - المحافظة على شعائر الدين الإسلامي.

٦ ـ العناية بالأوقاف بإدارة إسلامية.
٧ ـ إصدار عفو عام.
٨ ـ عقد معاهدة مع إيطاليا يقرها المجلس النيابي.

وفتحت الجمعية فرعاً لها في تونس عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) برئاسة محمد عريقب الزليطى. ودخل رئيسها السُعداوى عام ١٣٥٥ (١٩٣٦م) في خدمة الملك السعودى. وأسست جمعية في مصر بزعامة (احمد السويحلى) وقامت بنشاط كبير وفتحت عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) نادى طرابلس الغرب الثقافي، ولم يقم السنوسي، حتى عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) بنشاط هام.

وشكلت الجاليات الليبية التي تقطن مختلف أرجاء العالم الإسلامي لجنة للدفاع عن حقوق بلدها بزعامة بشير السعداوي. واتخذت هذه اللجنة ميثاقاً وطنياً لها قدمته إلى المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م). وطالبت اللجنة المسلمين في أقطار الأرض بتقديم المساعدة لإخوانهم المنكوبين في ليبيا. وجاء في الميثاق مايلي:

١ ــ تأليف جمعية تأسيسية لسن دستور البلاد.
٢ ــ انتخاب الشعب مجلساً حائزا على الصلاحية التي يخولها إياه الدستور.
٣ ــ اعتبار اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والتعليم.
٤ ــ المحافظة على شعائر الدين الإسلامي وتقاليد القطر في جميع أرجائه.
٥ ــ العناية بالأوقاف وإدارتها من قبل لجنة اسلامية.
٦ ــ العفو العام عن جميع المشتغلين بالسياسة داخل القطر وخارجه.
٧ ــ تحسين العلاقات بين الشعب في طرابلس وبرقه والدولة الإيطالية بمعاهدة يعقدها الطرفان ويصدقها المجلس النيابي.
٨ ــ تأليف حكومة وطنية ذات سيادة يرأسها زعيم مسلم يختاره الشعب.

وأعلنت الحرب العالمية الثانية فدفع الإنجليز الأمير السنوسي للعمل.. وعقد اجتماع في بيت السنوسي في الإسكندرية في ٦ رمضان ١٣٥٨هـ (١٩ تشرين الأول ١٩٣٩م) وحضر المؤتمر عن طرابلس أحمد السويحلى وأحمد المريض وعون سوف وتوفيق الغريانى ومحمد العيساوى. ومثل برقة عبدالسلام الكذة، وعبدالحميد العباد، وتم الاتفاق بعد أربعة أيام على تشكيل لجنة برئاسة الأمير

وعضوية السويحلى والمريض وغيرهم وجددب بيعة الأمير على ليبيا.

ودخلت إيطاليا الحرب ضد بريطانيا فازدادت حاجة الإنجليز لعون الليبيين ووسطوا (حمد الباسل) لحمل الليبين على تقديم مساعدتهم. ورفض الإنجليز أن يمنحوا أهل طرابلس أية وعود واكتفوا بعرض أجر زهيد على من يتطوع للحرب في صفوفهم، فرفض الطرابلسيون العرض بواسطة (حمد الباسل) ولكن السنوسي قبل وعهد الى صفى الدين السنوسي بتجنيد المتطوعين. وافتح مكتب تجنيد سنوسى استطاع أن يجند ١٤٠٠٠ جندى و ١٢٠ ضابطا. وشكل الأمير إدريس الجمعية الوطنية الليبية التي قررت إعلان بيعة السنوسى وتفويضه دون قيد أو شرط وخوض الحرب إلى جانب بريطانيا. ورفض زعماء طرابلس إقرار هذا الإعلان وعاد الاهتمام بالبلاد العربية لقضية ليبيا.

وتمكن الإنجليز من احتلال (طبرق) في مطلع عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) وشكلوا حكومة عسكرية في برقة عاصمتها (بنغازي). ولكن الحكم الإيطالي عاد بعد شهرين وخرج الإنجليز ليعودوا ثانية بعد ستة أشهر. وساهم المتطوعون الليبيون بزعامة السنوسى مساهمة فعالة. واعترف وزير الخارجية البريطانية بمساعدة الليبيين القيمة، وأعلن أن بريطانيا «متى انتهت الحرب لن تسمح بوقوع السنوسيين في برقة تحت النير الإيطالي مرة أخرى بأى حالٍ من الأحوال» ولكن بعد أيام كان (رومل) يلاحق القوات الإنجليزية فأخرجها من ليبيا ولحق بها إلى العلمين.

وقلبت معركة العلمين الأوضاع بصورة نهائية. وحاربت القوات السنوسية مع الإنجليزية رافعة العلم السنوسي، ودخلت القوات البريطانية طرابس في ١٧ محرم ١٣٦٢هـ (٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣م) وتم لهم بعد أسبوعين تطهير ليبيا من القوات الإيطالية. ورفض السنوسي أن يعود إلى برقة على أساس غامض، كما رفض الإنجليز الاعتراف بإمارته فبقى في مصر.

بقيت ليبيا في عرف القانون الدولى بلاد عدو يحتلها الإنجليز ويديرونها إدارة عسكرية أكثر من سبع سنوات. واستقل الفرنسيون بحكم فزان فقسموها إلى ثلاثة أقسام: (غات) و (فزان) و (غذامس). أما (غدامس) فقد أتبعوها إلى تونس وألحقوا الباقي إدارياً بالجزائر، وأحلوا الفرنك الجزئري محل الليرة الإيطالية،

وأعادوا منصب المتصرف التركي، وعينوا أحمد بك سيف النصر متصرفاً على فزان، ووعـد ديغـول السكـان، وعددهم ٤٠٠٠، «بأن يجدوا الأمن والنظام في ظل فرنسا». أما الإنجليز فقد فصلوا برقة عن طرابلس فصلاً يكاد يكون تاماً، وفرقوا بينهما في المعاملة. فقد أباحوا التعامل بالجنية المصرى في برقة، ورفعوا القيود عن التجـارة والرقابة عن المطبوعات، وأباحوا للسكان السفر، ووظفوا الأهالى. ولم يفرضوا ضرائب مباشرة في برقة حتى عام ١٣٦٥ (١٩٤٦م) حينما فرضوا ضريبة الأرباح. واختلفت سياسة الإدارة البريطانية في طرابلس حيث استمرت الأحكام العسكرية شديدة. وقدموا مساعدات مالية لخزينتى برقة وطرابلس والتي بلغت ٢ مليون جنيه في أواسط عام ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م).

ولم يتقبـل الليبيون هذا الـوضـع الشاذ بالرضا، ولكن النضال في طرابلس اختلف عن نضال برقة. وتمسك أهل برقة بزعامة السنوسي الذي رأى أن امارته أهم من الوحدة وكانت له آراء قديمة في الحكم. وكان قد تأسس في بنغازي نادي عمـر المختار عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) الذي دعا إلى تأسيس دولة ليبية مستقلة متحدة بإمارة السنوسي، وأصدر مجلة (عمر المختار) و (جريدة الوطن) وأكد النادى على الحد من طغيان السنوسي. واضطهد النادي، وعطلت صحفة وغير اسمه فأصبح الجمعية الوطنية عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ولما جاء السنوسي الى برقة للاستقرار فيها ومنحته الحكومة البريطانية سلطات أمير بادر إلى حل جميع الهيئات والأحزاب في ٢ صفر ١٣٦٧هـ (كانون أول ١٩٤٧م) وشكل في مطلع العام الذي يليه المؤتمر الوطني البرقاوي العام وجعله الهيئة السياسية الوحيدة في البلاد. وعين الأمير أعضاء المؤتمر (كانوا ٦٧ ثم جعلهم ٧١) فكان رئيس المؤتمر ووكيله الأول من أقارب الأمير والوكيل الثاني سنوسيا، وأكثر أعضاء المؤتمر من الذين شغلوا وظائف هامة في خدمة العثمانيين، والايطالين والإنجليز. وتمسك المؤتمر بأمرين: ملكية السنوسي وعدم عودة الإدارة الايطالية، واعتبر الوحدة الليبية أمراً ثانوياً بالنسبة لملكية إدريس السنوسي لذا فإنها طلبت لجنة التحقيق الرباعية التي أرسلها وزراء خارجية الدول الكبرى عام (١٩٤٧م) باستقلال برقة تحت التاج السنويسي الوراثي، وأوضح السنوسي بأنه يفضل الاستقلال والتحالف مع بريطانيا.

بدأ السنوسى يسعى للاستقلال ببرقة وأعلن استياءه من الطرابلسين. وأرسل عمـر منصور الكخيا رئيس ديوانه إلى لندن مطلع عام ١٣٦٨هـ (أواخر عام ١٩٤٨م) لإجراء مباحثات مع الحكومة البريطانية حول استقلال برقة فقط. وعقد المؤتمـر الـبرقاوي الوطني العام جلسة في منتصف عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) في بنغـازى خطب فيها الأمير إدريس السنوسى، وأعلن مولد دولة برقة واعترفت بريطانيا بإمارته وحكومته في برقه.

وكـان هذا العمـل من السنوسي مفاجأة غير سارة للعرب، فقامت مظاهرة صاخبة في بنغازى ضده وحاولت اقتحام قصره. واحتج أمين سر جمعية (عمر المختـار) وأخبر السوسي بأن اعلان استقلال برقة هو مواقة كاملة على التجزئة وطالبت بإعلان وحدة البلاد كلها دولة مستقلة تحت إمارته، وأبدى عبدالرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية أسفه لما حدث.

وسافر السنوسي إلى لندن ماراً بطرابلس. ومع أنه استقبل استقبالاً حاراً في طرابلس ووعد بتبنى أماني البلاد، فإنه عاد إلى الحديث عن برقة وحدها في لندن ووضع إكيلاً من الزهور على قبر الجندى المجهول باسم أمير برقة. وعاد السنوسي إلى برقة فأعلنت الحكومة البريطانية في (ذي القعدة ١٣٦٨هـ) (١٩٤٩م) تقل السلطات الـداخلية إليه. ولكن بعد شهرين اتخذت هيئة الأمم المتحدة قراراً بتوحيد واستقلال ليبيا، وانتهت رواية إمارة برقة المستقلة.

واتجه النضال في طرابلس نحو الوحدة والاستقلال فأنشىء النادي السياسي الأول عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) في مدينة طرابلس، وافتتح فروعاً له في النواحى. وازداد نفوذ النادى حتى تمكن بعد عامين من تنظيم مظاهرة كبرى أزالت اللافتات الفـاشية من الشـوارع. وتقـدم بعض الذين سبق لهم التعاون مع الايطاليين بعرائض طالبوا فيها بوصاية بريطانية. ونشأ كرد فعل لهذه الحركة الحزب الوطني عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) برئـاسـة (علي بن حسن الفقيه) وعضوية (مصطفى مرزان) و (عون سوف) و (محمد بن حسن) و (عبدالسلام المريض) و (سالم بن منتصف). ونشر الحزب الوطني ميثاقه في أول شعبان ١٣٦٤هـ /١٩٤٤م دعا فيه إلى مقـاومـة عودة إيطالية والعمل على الغاء القوانين الإيطاية ومنع هجرة الإيطاليين إلى طرابلس. وعـلى الرغم من أهداف الحزب المعتدلة فإن الإدارة

العسكرية البريطانية لم تعترف به إلا في ٧ جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (الثامن من نيسان ١٩٤٦م). وضاق بعض الأعضاء وعلى رأسهم رئيس الحزب، باعتدال الحـزب، فانشقوا وشكلوا في ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ (٣٠ أيار ١٩٤٦م) الكتلة الوطنية الحرة بينما أصبح مصطفى مرزان رئيساً للحزب الوطنى. وأرادت الإدارة العسكرية إضعاف هذين الحزبين فشكلت في (العاشر من أيار) حزبا من المتعاونيين برئاسة السيد سالم المنتصف وعضوية الشيخ محمد أبو الإسعاد مفتى طرابلس في العهد الإيطالي وسمى الحزب بالجبهة الوطنية المحدة. وأعضاء الجبهة ينتمون إلى أسر كبيرة عرفوا بتعاونهم مع السلطات الإيطالية. وانشق عن الكتلة الوطنية الحرة ثلاثة أعضاء وشكلوا في (١٦ كانون أول) حزب الاتحاد المصرى الطرابلسى برئاسة (علي رجب) الذي دعا إلى الاتحاد مع مصر. وشكل (صادق بن زارع) وكيل الحزب الوطني حزب الأحرار في الأول من جمادى الأول ١٣٦٧هـ (١١ آذار ١٩٤٨م). كذلك الف العمال حزباً في شوال ١٣٦٦هـ (مطلع أيلول ١٩٤٧م).

وسعت الأحـزاب الـطرابلسية إلى محاربـة الاتجـاهـات الانفصالية في برقة. فحاولت الاتفاق مع السنوسي والاعتراف بإمارته على ليبيا المتحدة. وقصد بنغازي في جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ (أيار ١٩٤٦م) كل من (محمود المنتصف) و (بشير السعداوى) وعرضا الإمارة على السنوسي، واقترحا عقد مؤتمر برقاوي طرابلسي للبت في هذا الموضع. واجتمع الوفدان في ٢٥ صفر ١٣٦٦هـ (١٨ كانون الثاني ١٩٤٧م) وحضر الاجتماع عن طرابلس (عبـدالمجيد كعبار) و (سالم المريض) ومفتى طرابس كما حضره عن برقه (عمر باشا كيخيا). واتفق أعضاء المؤتمر على وحـدة البـلاد واستقـلالها واعترفوا بإمارة السنوسي وقالوا بضرورة الانضمام إلى الجامعة العربية. ولكن الوفد البرقاوي أصر على الاعتراف بإمارة السيد إدريس السنوسي دون قيد ولا شرط. فرفض وفد طرابلس كما رفض قبول فكرة تجزئة النضال كخطة عملية.

وقـررت الأحـزاب الـطرابلسية تشكيل هيئة تحرير ليبيا في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٦٦هـ (١٣ آذار ١٩٤٧م). وضمت الهيئـة (بشـير السعـداوى) و (أحمـد السـوحبلى) و (محمـود المنتصر) و (منصـور قدارة) و (طـاهر المريض). ولعب

عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية دوراً هاماً في العمل على تشكيل هذه الهيئـة. ثم وسعت الهيئة نفسها عام ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) فضمت مفتى طرابلس وغيره وأصبح اسمها المؤتمر الوطني الطرابلسي، وأرسل المؤتمر وفداً إلى بنغازى اجتمع إلى السيد السنوسي، واتفقا على قيام دولة اتحادية برئاسة السنوسي.

ولم يتغير موقف السنوسي بعد صدور قرار الأمم المتحدة في ٣٠ محرم ١٣٦٩هـ (٢١ تشرين الثـاني ١٩٤٩م) بإعـلان استقلال ليبيا. فقد أصدر الاتفاق مع الإنجليز قانـون الانتخاب البرقاوي في (الخامس من نيسان ١٩٥٠م) وأجرى الانتخابات بعد شهرين. وتألفت جمعية برقاوية وطنية من خمسين عضواً منتخباً، وعشره عينهم الأمير، واجتمعت الجمعية على الفور أثر انتهاء تشكيلها. واستمر الامير في اتباع سياسته الانفصالية، فأصدر قانون الجنسية البرقاوية، وأسس جيشاً يدربـه الإنجليز، ومنـح الإنجليز قواعـد عسكرية. وعارضت الجمعية الوطنية البرقاوية هذه السياسة وأجبرت وزارة (عمر الكيخيا) على الاستقالة. ولكن الأمير ضاق ذرعـا بالمعـارضـة فحل الجمعية، وأجرى انتخابات رضي عن نتائجها. وانتقدت الجمعية الوطنية (نادى عمر المختار سابقا) السياسة التي اتبعها الأمير. وحل السنوسي في نهاية عام ١٣٦٦هـ جميع الهيئات والأحزاب في برقة.

استقلال ليبيـــا :

أما موقف الدول الكبرى من ليبيا، فقد تبين أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية حين شرع وزراء خارجية الـدول الكـبرى عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) بدراسـة مستقبل ليبيا ورغم عدم اختلافهم من حيث المبدأ على إخضاع ليبيا لنوع من الوصاية فإنهم كذلك اختلفوا على التنفيذ. فقد طالب الاتحاد السوفيتى بأن تكون الوصاية له وعارضت الولايات المتحدة، واقترحت أن تكون إيطاليا هي الدولة الـوصية. وأيدت فرنسـا موقف أمـريكا ولكنها اشترطت تعديل الحدود لصالح إمبراطوريتها. أما بريطانيا فلم تبدا أكتراثا بمصير طرابلس، ولكنها أصرت على عدم عودة إيطاليا إلى برقة حسب وعدها للسنوسي.

واستأنف وزراء الخارجية بحث مستقبل ليبيا في جمادى الأولى ١٣٦٥هـ (نيسان ١٩٤٦م) وعاد الاتحاد السوفيتى فاقترح منح الوصاية على طرابس لايطاليا. أما

بريطانيا فإنها أيدت في آنٍ واحدٍ مطالب فرنسا الاقليمية ووحدة واستقلال ليبيا. وأصرت بريطانيا في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس على عدم عودة الإيطاليين إلى برقة. وأيد ملوك ورؤساء الدول العربية المجتمعين في «انشاص» ٢٧ـ٢٨ جمادى الآخرة ١٣٦٥هـ (٢٨ـ٢٩ أيار ١٩٤٦م) استقلال ليبيا وكذلك أيدته بعد شهر الحكومات العربية في مؤتمر بلودان.

وتم عقد الصلح مع إيطاليا في ٢٩ شوال ١٣٦٦هـ (منتصف أيلول عام ١٩٤٧م)، وتنازلت إيطاليا نهائياً عن ممتلكاتها. واتفقت الدول الكبرى على البت بمصير ليبيا وغيرها خلال عام حسب رغبات السكان وإلا أحيلت القضية إلى هيئة الأمم المتحدة. وأرسل وزراء الخارجية لجنة تحقيق إلى ليبيا انتهت من عملها في ١٤ رجب ١٣٦٧هـ (العشرين من أيار ١٩٤٨م) ولكن لجنـة التحقيق لم تستطع اتخاذ قرار وكذلك فشل وزراء الخارجية الدول الكبرى الاستعمارية الأربعة في الوصول إلى قرار. وأعاد الاتحاد السوفيتي اقتراحه باعادة ليبيا إلى إيطاليا، ولكن الدول الغربية رفضت، واقترحت إعادة تريستا إلى ايطاليا. وأخيرا قرروا في منتصف الشهر إحالة القضية إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وبحثت الجمعية مستقبل ليبيا في جمادى الآخرة ١٣٦٨هـ (نيسان ١٩٤٩م) ثم أجلت البحث بعد خمسة شهور. واقترح الاتحاد السوفيتي استقلال ليبا الموحدة. ويكون بذلـك قد غير سياسته ثلاث مرات. فقد طالب بوصاية سوفيتية، ثم بوصاية ايطالية، والآن يقترح الاستقلال. . ولم يفته أن يحمل على سياسة بريطانيا في برقة. وأيد مندوب بريطانيا الاستقلال ولكنه لم يبد تأييداً للوحدة، وأيد مصالح فرنسا في فزان. أما فرنسا فلم تعترف بوجود شيء اسمه ليبيا وعارضت بالوحدة وقـالت انـه من المحـال تحديد موعد الاستقلال. أما أمريكا فقد أيدت فكرة الاستقلال السريع وإنشاء ليبيا مستقلة موحدة في ثلاث سنوات أو أربع. وأيد وحـدة ليبيا واستقـلالهـا مندوبو سوريا، ومصر، والعراق، والهند. وأخيراً رغم معـارضـة الدول الاستعمارية فان الجمعية العامة للأمم المحدة وافقت في ٢١ تشرين الثاني على استقلال ليبيا الموحدة بأغلبية ٤٩ صوتاً ضد لاشيء وامتناع تسع دول من بينها انجلترا

وهكـذا أصبحت ليبيا دولة مستقلة موحدة ذات سيادة يرأسها الملك محمد

إدريس السنـوسي، وأصبحت عضـواً في جامعة الدول العربية في ربيع الثاني ١٣٧٢هـ (آذار ١٩٥٣م)، وفي هيئة الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٥٥. وفي عام ١٩٦٤ وافق مجلس النواب الليبى على مشروع قانون بتوحيد ليبيا، وبالغاء النظام الاتحادي وتحويله إلى نظام وحدوي.

ولم يرض الطرابلسيون عن الأوضاع الجديدة. فهم يمثلون أكثر من ثلثى سكان المملكة، وأكثر الليبيين ثقافة ووعياً، ومع ذلك تساووا في مجلس الشيوخ مع فزان واضطروا لقبول تاج السنوسي. وحدثت اضطرابات في طرابلس بعد شهرين من الاستقلال أدت إلى حل الحزب الوطني، وإخراج (بشير السعداوى) من البلاد، وتشتيت اتباعه. وكان المحلس التشريعي الطرابلسي والذي انتخب في ١٣ ذي الحجة ١٣٧١هـ (أول أيلول ١٩٥٢م) «٣٠ عضواً منتخبا وعشرة بعينهم الملك» قد ناصب الإدارة الملكية العداء فبادر الملك إلى حله. ونفذ الملك في ليبيا المصير الذي كان يريده ببرقه إذ ربط ليبيا كلها بمعاهدة مع بريطانيا في ذي الحجـة ١٣٧٢هـ (أيلول ١٩٥٣م) مقـابـل ثلاثـة ملايين جنيه سنـوياً، وبـالـولايات المتحـدة لقاء مليونى دولار في العام ارتفعت إلى ١١ مليون سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م).

لم تدم الملكية في ليبيا الموحدة وقتاً طويلًا، اذ بلغت مدتها سبعة عشر عاما، وما لبثت أن هبت عليها رياح التغيير التي هبت على غيرها من البلاد العربية ففوجىء العالم في اليوم ١٩ جمادى الآخرة ١٣٨٩هـ (الأول من أيلول سبتمبر ١٩٦٩م) باستيلاء الجيش على السلطة بقيادة العقيد «معمر القذافي» وذلك حينما كان الملك إدريس السنوسي البالغ من العمر ٧٩ عاماً يستشفى خارج البلاد، ولم يلبث ولى عهده أن تنازل عن كل سلطاته الدستورية. ولقد ظهرت حماسة الثورة الليبية بصورة واضحة في مجال التعاون العربي وقفت ليبيا مواقف قوية في مؤتمرات القمة، وكذلك في العمل على إزالة آثار العدوان الإسرائيلى عن البلاد العربية.

وقد نجحت الثورة الليبية في إزالة بقايا النفوذ الأجنبى في البلاد وكان هذا النفوذ ممثلا في قاعدتين عسكريتين إحداهما في طبرق تابعة لبريطانيا، والأخرى في طرابلس قاعدة (هويلس) تابعة لأمريكا، ونجحت الحكومة الليبية في العهد

الجديد في تحقيق جلاء الدولتين العظميين (بريطانيا وأمريكا) عن قواعدهما بعد مفاوضات قصيرة الأمد. وكذلك نجحت الحكومة الليبية الثورية في نمو البلاد ورقيها في جميع المجالات الاقتصادية بعد ظهور النفط بكميات كبيرة، فغدت ليبيا بذلك من الدول المتطورة بعد أن عانت كثيرا من الفقر. كما وقعت ليبيا ميثاق طرابلس في شوال ١٣٨٩هـ (كانون أول ١٩٦٩م) والذي يقضي باقامة وحدة ثلاثية مع مصر والسودان ثم وقعت في ٢١ صفر ١٣٩١هـ (١٧ نيسان ١٩٧١م) ميثاق بنغازى الذي يقيم اتحاداً للجمهوريات العربية بين ليبيا، ومصر، وسوريا ويجعل منها دولة اتحادية واحدة، لكن هذه المحاولات الاتحادية ظلت حبرا على ورق.

الفصل الرابع
جمهورية تونس

تونس بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط، وهى جزء من الشمالي الإفريقي أو المغرب العربى، وأصغر أقطار المغرب مساحة. وتبلغ مساحتها (١٢٥٠٠٠ كم٢)، ويبلغ عدد سكانها حوالى سبعة ملايين نسمة. وعاصمة البلاد مدينة تونس، وأهم مدنها بعد تونس مدينة «صفاقس» عاصمة الجنوب، وهي مرفأ تجاري كبير، ومن مدنها «سوسة» المعروفة بآثارها خاصةً مساجدها العظيمة، ومن مدنها «بنزرت» الميناء الحربي الشهير، وكذلك مدينة «القيروان» التاريخية المعروفة بمركزها الديني ومبانها الإسلامية. وهناك مدن أخرى هي «قابس، وقفصة، والمهدية».

وتقع تونس غرب ليبيا، وهي متاخمة للصحراء الكبرى جنوباً، يحدها من الشمال والشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب والجنوب بلاد الجزائر، وفي الجنوب الشرقي ليبيا، وبذلك يصبح لتونس حدان بحريان وحدان بريان. وتونس بحكم مركزها الجغرافي، وموقعها على البحر المتوسط، وامتداد طرقها الساحلية تربط بين أقطار المغرب بالمشرق من جهة، وتصل بين الشرق والغرب من جهة ثانية وهي معبر حساس بين أوروبا والشرق. وموقع تونس هذا جعل بعض الكتاب الغربيين يطلقون عليها اسم «عتبة السلام» وموقع تونس المهم يظهر لنا بعض أسباب ما كان لقرطاجة القديمة من قوة، كما أن ميناء (بنزرت) يتحكم في ممر صقلية، ووسط غربى البحر المتوسط. أما القسم الجنوبي فيها، فهو ممر برى له أهميته.

أما سكان تونس فكانوا في الأصل من البربر الحاميين.

خضعت تونس في تاريخها القديم للفينيقيين الذين أسسوا مراكز تجارية لهم على الساحل التونسى أهمها: (أوتيكه) و (سوسه)، ثم بنوا، (قرطاجه) عام ٨٨٠ ق.م، والتي ازدهرت وسيطرت على معظم المدن الفينيقية، وقام بين قرطاجة وروما نزاع مرير دام عدة سنوات انتهى بانتصار روما والقضاء على قرطاجة. ودخلت تونس والشمال الإفريقي في حوزة الرومان من ١٤٨ ق.م. إلى ٤٢٧ بعد الميلاد. وقد حكمت روما تونس حكماً مباشراً وبسطت سلطتها على الأمراء المحليين، وانهار حكم الرومان بعد ستة قرون، ودخل البلاد (الوندال) من سنة ٤٣٩-٥٣٤، ثم زحف البيزنطيون عليها فاحتلوها من ٥٣٤-٦٤٢) وحاولوا أن يسيروا في حكمهم على نهج الرومان فيها، وظلت تحت حكم البيزنطيين إلى أن فتحها المسلمون.

فتح المسلمون أول مرة تونس عام ٤٣هـ في عهد معاوية بين أبي سفيان، ولكن البيزنطيين استردوها، واستقر الحكم العربي الإسلامي في تونس عام ٧٢هـ في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان. ثم خضعت تونس للعباسيين، واستقلت بعد ذلك عن مركز الخلافة الإسلامية بخضوعها للأغالبة (١٨٤-٢٩٧هـ)، كما خضعت بعد ذلك للفاطميين، وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر خضعت لوالى الفاطميين بلكين يوسف أبو الفتح الصنهاجى (٣٦٢-٥٦٧هـ) الذي خلع طاعة الفاطميين، ودعا إلى العباسيين في بغداد ولكن الفاطميين أو عزوا إلى قبائل بني هلال وبني سليم بالإغارة عليه فخربوا البلاد، وعاد الصنهاجى إلى حظيرة الفاطميين. ثم قامت في تونس دولة المرابطين، وتلتها دولة الموحدين التي استطاعت التغلب على المرابطين، وطرد النورمانديين من السواحل بعد أن كانوا قد أخلوها زمن الصنهاجيين.

وبعد الموحدين قام الحفصيون في تونس من ٦٢٦-٩٨٢هـ وهم فرع من الموحدين، وقد جعلوا منها دولة مستقلة زاهرة، وظلت كذلك إلى أن دخلها العثمانيون فأصبحت منذ ٩٨١هـ ولاية تابعة لهم.

ويلاحظ أن كل ماكان من مظاهر الحضارات في تونس قبل الفتح الإسلامي، قد ترك آثاراً محدودة، مالبثت أن تورات على ممر الزمن على العكس من الفتح الإسلامي الذي أوجد بحق مرحلة حضارية جديدة في تاريخ تونس لاتزال راسخة

بتاريخها وآثارها ومنجزاتها وواقعها الحضارى المعاصر.

تاريخ تونس الحديث :

يبدأ تاريخ تونس الحديث منذ أن ضمت إلى العثمانيين عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م)، إذ استطاع العثمانيون طرد الإسبان الذين دخلوا تونس على أثر استنجاد الحسن الحفصي بهم ودخول القائد العثماني (دارغوث باشا) القيروان. واستطاع القائد سنان باشا الاستيلاء على الحصون، وأسر محمد الحفصى عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م)، واعتقله بالاستانة حيث توفي، وبذلك انتهى عصر الدولة الحفصية التي حكمت تونس مايقرب من ثلاثمائة وخمسين عاماً من ٦٠٥-٩٨٢هـ .

جاء القائد سنان باشا إلى تونس، ووضع نظاماً لحكمها قوامه حاكم مدني هو الوالي ولقب بالباشا يمثل السلطان العثماني، على أن يساعده ديوان استشارى مكون من ضباط عسكريين، وموظف يدير الشؤون المالية يلقب بالباي (وكان المفروض أن هذا النظام يتكون من عناصر يوازن بعضها بعضاً مما يساعد على بقاء الدولة العثمانية مستقراً في البلاد. لكن الأمور تطورت على غير مايظن، فلم يلبث الدايات (الداى إبراهيم، الداى موسى، الداى عثمان الذي حكم ١٦ سنة، وهو أشهرهم، والداى يوسف حكم مايزيد على سبع وعشرين سنة) أن استأثروا بالحكم دون الوالى الباشا، فكان أول من تولى من هؤلاء (ابراهيم رودوس) ودام حكم الدايات من ٩٩٩ إلى ١٠٥٠هـ (١٥٩٠-١٥٣٩م) حين ظهرت سلطة أخرى غلبت على سلطة الدايات هي سلطة الباى، وأصبح الحكم في البلاد لهؤلاء البابات. وحكمت منهم أسرتان أولاهما هى الأسرة المرادية من ١٠٤٧-١١١٤هـ (١٦٣٧-١٧٠٢م)، وثانيتهما الأسرة الحسينية من ١١١٧-١٣٧٧هـ (١٧٠٥-١٩٥٧م). وكان أولى بابيات الأسرة المرادية (اسطا مراد) وقد منحته الدولة العثمانية لقب باشا، ولكنه توفي في السنة نفسها. وتولى الحكم بعده ابنه (حموده) الذي يعد المؤسس الحقيقى لأسرة البابات المرادية. أما أسرة (البابات الحسينية) فكان منشئها (حسين بن علي تركي) الذي بويع بالولاية عام ١١١٧هـ (١٧٠٥م)، وأصبحت الولاية وراثية من بعده. وقد بقيت هذه الأسرة تحكم البلاد إلى قيام الجمهورية التونسية في عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م).

وكـان هؤلاء (البابيات) يحكمون البلاد حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية. ولكن كانوا يعدون أنفسهم تابعين لها من الناحية الدينية على أساس أن العالم الإسلامي وطن واحد. وقد تعاقبت (البابات) على حكم البلاد فتحقق على يد بعضهم كثير من الأعمال الإصلاحية العمرانية. والإدارية، وتجلت الصبغة العربية حينما عمل البابات على تحويل المكاتبات بينهم وبين الدولة العثمانية إلى اللغة العربية.

ويأتى على رأس البابات الذين تزعموا الحركة الإصلاحية (أحمد باشا) الذي حكم من ١٢٥٥-١٢٧٢هـ (١٨٣٩-١٨٥٦م) وفي زمنه بدأت حركة التنظيمات في الدولة العثمانية على عهد السلطان محمود الثاني. وقد طلب السلطان من الباى أحمد أن يطبق التنظيمات في تونس. فقام الباى أحمد ببعض الإصلاحات في تونس ومن أهمها: إنشاء مدرسة حربية دعا إليها الضباط الفرنسيين ليعملوا أساتذة بها وخبراء في الشؤون العسكرية والإدارية والعمرانية. كما أنه أنشأ جيشاً قوامه ٢٥ ألف رجل، وأنشأ كذلك مصانع للذخيرة، ودارًا لصناعة السفن، وبناء أسطول تونسى اشترك مع الدولة العثمانية في حرب القرم. وكذلك شجع الباى نشر العلم وأكرم العلماء وعمل على الغاء الرق. وأدى التقرب بينه وبين الغرب وبخاصة فرنسا إلى أن لبى دعوة وجهت إليه لزيارة فرنسا. ورجع من هناك معجباً بما شهده من مظاهـر حضـارتهـا المادية. وقد استرعى نظره من ذلك بوجه خاص قصر فرساى. فحاول أن يبنى نظيراً له في بلاده فبنى صورة مصغرة لهذا القصر القريب من تونس أسماه «المحمدية».

وقد أدى تورط الباى أحمد مثل هذا الترف ومحاولة التقليد على حساب الشعب إلى جانب النفقات التي اقتضتها الإصلاحات الأخرى إلى وقوع البلاد في أزمةٍ مالية ساعد عليها أن بعض معاونى الباى كانوا من المغامرين الذين سعوا إلى الإفادة من الأوضاع في سلب الأموال، وتكوين الثروات، والتآمر مع الأجانب نظير نسب من الأرباح، ومن هؤلاء (مصطفى خزنة دار) الذي كان وزير مالية الباى، وصهره، (ومحمود عياد) الذي كان قوى التأثير على الباى وكان مسؤولاً عن مشتريات الحكومة، وتربط بـ (مصطفى خزنة دار) مصلحة مشتركة في عقد الصفقات وتحقيق المغانم. مما أدى إلى قيام تفاهم بينهما، وقد استطاع (محمود

عباد) في النهاية أن يحدث متاعب للبلاد بعد أن أثرى وهرب إلى فرنسا، وطالب الحكومة التونسية بدين كبير ادعاه بمقتضى وثائق مزورة مما اضطر الباى إلى إيفاد خير الدين التونسي المصلح الكبير إلى فرنسا لمقاضاته. وقد اقتضى الأمر اقامة خير الدين ثلاث سنوات في فرنسا وتدخل الإمبراطور نابليون الثالث نفسه قبل أن تتمكن الحكومة التونسية من حسم الأمر بالتغلب على محمود عياد.

وبعد وفاة أحمد خلفه أخوه محمد باى الثاني من سنة ١٢٧٢-١٢٧٦هـ (١٨٥٥-١٨٥٩م) فسار على منوال أخيه. ولم يمكن يملك غير هذا. . فالأمور كانت تتطور بالتدريج الى تدخل فرنسا في البلاد وفرض سلطانها عليها. وقد أصدر محمد باشا «عهد الأمان» في عام ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، ويتضمن إحدى عشرة مادة، ويضمن فيه الباى حقوق الرعية، وأمانهم على أحوالهم وكرامتهم وأعراضهم، كما أنه يضمن تحقيق العدالة والمساواة الكاملة بين الأفراد في الحقوق والواجبات، ولكن النفوذ الأجنبي تجلى في مواد هذا الأمان، فهناك التأكيد على المساواة بين أهل الذمة وأهل البلاد، حيث لاضرورة لذلك إذ أن الإسلام قد تناول هذه الأمور بالتفصيل. وأكد حقوق الذميين وصانها. وكذلك منح هذا العهد أبناء الجاليات الأجنبية حقاً مطلقاً في الاتجار، وإمتلاك العقار، والأراضى لا اختلاف بينهم وبين أهل البلاد في تلك الحقوق. الظاهر أن إصدار هذا الأمان على ذلك النحو بما فيه من إقرار بفتح أبوب البلاد على مصراعيها أمام الأجانب لم يكن ليرضي أبناء تونس، ومن هنا وجدنا أن قناصل الدول الأجنبية قد حضروا الحفل الذي تلي به العهد، كما كان الأسطول الفرنسي مرابطاً في ميناء «حلق الوادى» ليسند الباى فيها لو قامت معارضة لعهد الأمان هذا.

لم يخل عصر محمد من بعض الأعمال الإصلاحية، فقد أدخل الطباعة بالحروف، وكانت على الحجر من قبل ذلك، ونقل للعاصمة بالأنابيب مياه «رغوان»، وكان من أعماله الموفقة تعيين خيرالدين التونسى وزيراً للحربية إثر عودته من فرنسا، فقام هذا الوزير بأعمال عمرانية، وإدارية عظيمة أهمها إصلاح ميناء «حلق الوادى» وأنشأ مصنعاً لبناء السفن وإصلاحها.

توفى محمد باى وخلفه أخوه محمد الصادق باى من ١٢٧٦-١٣٠٠هـ (١٨٥٩-١٨٨١م) وفي أيامه بقى خيرالدين في منصب الوزارة، وكان من أعظم

أعمال هذا الوزير أنه عدّل بعض مواد عهد الأمان الذي صدر في زمن الباى محمد، وحاول أن يمهد السبيل لحياة دستورية في البلاد، ولكن الإصلاحات الدستورية تمخضت عن إصدار دستور سنة ١٢٧٨هـ (١٨٦١م)، وهذا الدستور عرف سلطة الباى، وكذلك نص على وراثة العرش، كما قضى بتشكيل مجلس استشاري مكون من ستين عضواً يعينه الباى لمدة خمس سنوات. واعترف الدستور بالفصل بين السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية، وأكد مبادىء عهد الأمان. وقد عاون هذا المجلس الباى في إعداد القوانين، والميزانية شرط أن يوافق عليها. وقد تم بالفعل تعيين المجلس، وكان خير الدين رئيساً له، لكن هذا المجلس لم يستطع أن يحقق الكثير من الإصلاح بسبب سيطرة الباى عليه وشل أعماله، ولأن فيه تجاوزا أحياناً لحدود الشرع الأمر الذي جعل العلماء يعارضونه، وفعلا علّق الباى العمل بالدستور بعد أن ثارت ضده القبائل عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م).

وواجهت تونس مصاعب عديدة بسبب تراكم الديون على الدولة تماما كما حدث في مصر والدولة العثمانية. واضطر رئيس المجلس الكبير ـ كما أشرنا ـ خير الدين باشا إلى الاستقالة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) وعلق الدستور عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م). وشكلت عام ١٢٨٦هـ (١٨٦٨م) لجنة دولية مالية ضمت ممثلين عن تونس، وفرنسا، ومالطة، وإيطالية برئاسة ممثل تونس خير الدين. ولكن خير الدين لم يستطع الاستمرار في عمله فاستقال عام ١٢٩٤هـ (١٨٧٦م) وقصد استانبول (حيث عينه السلطان عبدالحميد صدراً أعظم «رئيس الوزراء» في ٢٢ محرم ١٢٩٦هـ (١٥ كانون الثاني ١٨٧٩م) تاركاً تونس تتخبط في مشكلاتها السياسية والمالية. وازداد عزم فرنسا آنذاك على احتلالها.

مقدمات التدخل الفرنسى في تونس :

ما إن قررت فرنسا الاحتفاظ بالجزائر حتى بدأت تهتم بمصير جاراتها تونس ومراكش. وتنازع السياسة الفرنسية عاملان هما: الرغبة في منع قيام نظام في تونس يهدد الجزائر، وكرهها لقيام حدود سياسية مشتركة مع الدولة العثمانية التي كانت تحكم طرابلس، لذا عمدت السياسة الفرنسية إلى حماية استقلال تونس ومنع أي تدخل عثماني في شؤونها.

صممت فرنسا على ألا تسمح للباب العالي باسترجاع نفوذه في تونس وألا تعترف له بأي حقوق فيها. فكانت ترسل أسطولها للمياه التونسية لمنع العثمانيين من التدخل. وأحياناً تهدد بلغة سياسية عنيفة. وادعى الباب العالي أن تونس ولاية تابعة له. تسك فيها النقود باسم السلطان، وتلقى الخطب في الجوامع باسمه، وتقدم مساعدة عسكرية للباب العالي كلما اشترك في الحرب. كما أن المعاهدة العثمانية الفرنسية المؤرخة ١٠٨٤هـ (١٦٧٣م) ذكرت تونس ضمن ولايات الدولة العثمانية. واستندت الدولة العثمانية إلى عدة حوادث أظهر فيها الباي ولاءه للسلطان كتقديمه معونة عسكرية في حرب القرم، واصدار مراسيم بتعيين الولاة الذين تعاقبوا على الحكم. أما فرنسا فقد استندت إلى عدة حالات تثبت استقلال بايات تونس عن السلطان. فقد أرسلت الدول إنذاراً إلى باى تونس بازالة القرصنة في أواخر عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) سلم إلى الباى مباشرة، كما أبرم الباى معاهدة مع ملوك سردينيا وصقلية عام ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م)، كذلك سلمت حكومة الباب العالى بتاريخ ١٢٨١/٦/٢٥هـ (٢٤ تشرين الثاني ١٨٦٤م) بضرورة إبقاء الحالة على ماهي عليه في تونس. ولم تعترف فرنسا بمرسوم ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) الصادر لباى تونس، وسارعت إلى اعتباره لاغياً وليست له قيمة قانونية.

وعملت فرنسا على دعم استقلال البابيات عن الباب العالي ودعم نفوذها في تونس. فاستقبلت الباى أحمد باشا استقبال الملوك، وتبادلت وإياه الأوسمة. وازداد النفوذ الفرنسي في تونس حتى أن الباى عرض دستوره على إمبراطور فرنسا للموافقة عليه قبل إصداره. وشكا قناصل إنكلترا دوماً من ان نفوذ القنصل الفرنسي كان أكبر بكثير من نفوذهم. وأرسلت فرنسا إلى تونس عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٤م) قنصلاً قديراً اسمه «وستان» ليصلح ما فسد أثر نكبة فرنسا على يد الألمان عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) فنجح نجاحاً كبيراً.

وتدخل المستشار الألماني «بسمارك» في قضية تونس مشجعاً فرنسا على الانصراف إلى إفريقية فأيد مطالب فرنسا في تونس وحمّل انكلترا على تأييدها عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) وصرح أوائل عام ١٢٩٦هـ للسفير الفرنسي «أن الكمثرى التونسية قد نضجت وقد حان وقت قطافها، وأن عناد الباى، وعدم المجاملة هو

العامل الأساسي في نضج المسألة. وستفسد هذه الفاكهة أو تسرق إذ تركتموها على الشجر لمدة طويلة». وحمل بسمارك على مشاكسات الباى «ذاك الحاكم الصغير المتبربر». واتصل بسمارك بإنكلترا لإعادة الصفاء، بينها وبين فرنسا ولحملها على نقل قنصلها في تونس الذي كان يقاوم أطماع الفرنسيين.

وبدأت إنكلترا بتأييد أطماع فرنسا في تونس. فقد أعلن وزير خارجية بريطانيا قبيل انعقاد مؤتمر برلين عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م)، أن تونس «امتداد لمنطقة النفوذ الفـرنسي، وأقر مبدأ ترك حرية التصرف لفرنسا فيها مقابل موافقة فرنسا على احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص. وتردد الوزير البريطاني في إبداء موافقته كتابياً، ثم عاد فأعلن بصورة سريعة أن افعلوا في تونس ما ترونة ملائماً. . فمن المستحيل بقاء النظام الحالي في تونس. . وعلى فرنسا أن تقوم بإصلاح هذه البلاد».

وحذرت بريطانيا في عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) فرنسا بأن عليها أن تعتمد على نفسها في حالة اعتراض إيطاليا، ولكن أظهرت في الوقت نفسه سرورها العظيم بنجاح التجربة التي قامت بها فرنسا في الجزائر والرسالة «الحضارية العظيمة التي تقوم بها» وأقرت إعطاء فرنسا نفوذاً عظيماً في تونس لان «انكلترا ليست لها مصالح خاصة في البلاد». هذا فضلاً عن أن احتلال فرنسا لتونس سيجعل فرنسا تؤيد بريطانيا في محاولاتها القادمة للسيطرة على بعض المناطق العربية. وبدأت فرنسا محاولتها للحصول على موافقة إيطالية على مشروعات فرنسا في تونس. وحاولت أن تطمئن إيطاليا، فأخبرتها بأنها ستعترف مقابل ذلك بحق ايطاليا في الاستيلاء على بلاد أخرى. وحذرتها في الوقت نفسه، وأنذرتها بأنها على استعداد لدفع أى اعتداء ايطالي على تونس بالقوة. ولكن إيطاليا قاومت النفوذ الفرنسي بشدة في تونس، وأرسلت ممثلاً بارعا إلى تونس لإقناع الباي بقبول الحماية الإيطالية أو بالتنازل عن بنزرت أو بإعلان بنزرت ميناءً حراً، ولكن الباى رفض كل ذلك. وأرسلت إيطاليا عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) قنصلاً قديراً أصحبته بمظاهرة عسكرية للتأثيرة على الباي. وتمكن هذا القنصل من حمل الباى على رفض مشروع حلف دفاعى عرضته عليه فرنسا في صيف عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م). وبدأت إيطاليا حملة دعاية قوية ضد فرنسا في شمالي إفريقية، ودب الذعر في تونس إثر انتشار هذه الأخبـار والشائعات. فذكرت بعض الصحف الأجنبية أن إنكلترا أهدت

تونس إلى فرنسا، فلجأ الباى إلى القناصل مستفسراً، فحاول القنصل البريطاني أن يؤكد للباي حرص بلاده على صيانة استقلال تونس. وشجّع قنصلا ايطاليا وبريطانيا الباى عن الوقوف في وجه مطامع فرنسا مدعين أن فرنسا تريد إرهابه ولكن حالتها الداخلية لاتسمح لها بالقيام بمغامرات. إلا أن الحكومة البريطانية لم تؤيد سياسة قنصلها فأنهت خدماته بعد عام إرضاءً لفرنسا.

وبـدأ لفرنسا أن الإسراع بالعمل هو أضمن طريقة قبل ازدياد المصاعب. فإيطاليا تحاول مساعدة إنكلترا في البحر المتوسط، والسلطان عبدالحميد يجعل لها متـاعب، وفكرة الجامعة الإسلامية تنتشر بسرعة وتهدد مصالح فرنسا حتى في الجزائر. ووصلت قوة فرنسية في نهاية عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) إلى قرب العاصمة التـونسية، ومنـح الباي مهلة أربع ساعات للتفكير فوقّع مضطرًا على معاهدة (باردو) في عام ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م).

ولكن قامت ثورة في جنـوبي تونس ضد الـوضع الجديد أخمدها الفرنسيون بسهولة، وفرضوا معاهدة المرسى في ١٣٠٠هـ (١٨٨١م). وقد منحت فرنسا في المعاهدة الأولى حق الاشراف على الشؤون العسكرية، والخارجية، والمالية، وحق تعيين وزير فرنسي مقيم في تونس يكون حلقة الوصل بين تونس وفرنسا. أما المعاهدة الثانية فقد تعهد الباى بموجبها بقبول الإصلاحات الإدارية، والقضائية، والمالية التي تراها الحكومة الفرنسية ضرورية. واحتجت الدولة العثمانية على اعتداء فرنسا على ولاية عثمانية إلا أنها لم تستطع عمل شيء لاسيما وأن انكلترا كانت في الوقت نفسه تعتدي على مصر، وتثبت حكمها في قبرص. ولكن بينما اعترفت انكلترا باستمرار السيادة العثمانية الاسمية على كل من مصر وقبرص، لم تعترف فرنسا للسلطان بأى سلطةٍ في تونس. وأخيراً تنازل الأتراك عن تونس في معاهدة لوزان ١٣٤١هـ ١٩٢٣م).

أما إيطاليا فانها غضبت لأن فرنسا سبقتها إلى تونس، ولكنها اعترفت أخيراً بالحماية الفرنسية على تونس سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) مقابل الامتيازات التالية:

١ ــ تتمتع ايطاليا بالامتيازات التي منحها إياها الباى سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م).

٢ ــ يحق للإيطاليين الاحتفاظ بالجنسية الإيطالية.

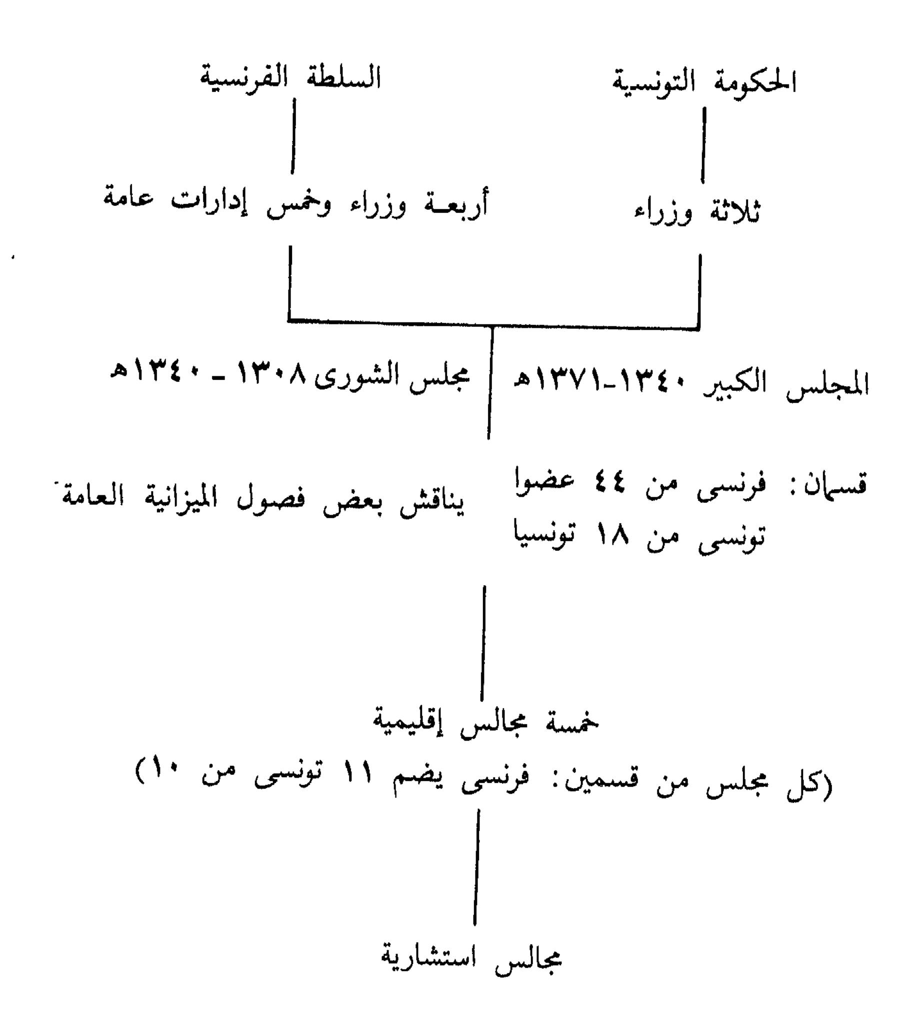
٣ ـ تضمن المساواة بين الفرنسيين في الحقوق في تونس لاسيما حق ممارسة المهن الحرة، وتشكيل الجميعات والمدارس.
٤ ـ للايطاليين الحق بالهجرة إلى تونس بالشروط نفسها التي تطبق على هجرة الفرنسيين والطريف أن مجلس النواب الفرنسي رفض في ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) تصديق معاهدة (باردو).

تونس تحت الحماية الفرنسية ١٢٩٨ ـ ١٣٧٦هـ ١٨٨٠ ـ ١٩٥٦م).

لم يرد في معاهدة (بارود) ذكر الحماية بل نصت مادتها الثانية على أن الاحتلال العسكرى إجراء مؤقت، إلا أن الوزير المقيم الذي ورد ذكره في المادة الخامسة أصبح بمثابة وزير خارجية تونسى بموجب مرسوم الباى الصادر في ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م)، وتخلى الباى عن سيادته في الشؤون الخارجية لفرنسا، وشرعت فرنسا بانتزاع سلطات الباى وحكومته، وتركيزها في أيدى المقيم. فقد صدر مرسوم جمهوري فرنسي في ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) ربطت بموجبه المصالح الفرنسية في تونس بالمقيم وألحقتها بفروع وزارات الجمهورية كذلك فرض على رأس الإدارة التونسية موظف فرنسي دعي بأمين السر العام للحكومة التونسية يعينه الباى بموافغقة من المقيم، ومنح أمين السر العام الصلاحيات التالية:
١ ـ إدارة شؤون الموظفين في الإدارة المركزية والإشراف على محفوظات وسجلات الدولة.
٢ ـ عرض القضايا على الوزير الأول، ثم توجيهها إلى المراجع المختصة.

وزيدت صلاحياته فعهد إليه بالإشراف على الشرطة عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) والإسعاف والسجون عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) واستمرت صلاحيات أمين السر العام بالازدياد إلى أن نشب الخلاف بينه وبين المقيم فألغى المنصب في أواخر عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م). وأحدث منصب المدير العام للداخلية، والمدير العام للعدل. وأعيد إنشاء المنصب في ١٣٥٢هـ (١٩٣١م) وزيدت صلاحياته بحيث عهد إليه تنسيق كافة الأعمال في الإدارة التونسية. وفي ١٣٦٢هـ (١٩٤١م) أصدر الجنرال «جيرو» مرسوماً عين بموجبه أمين السر العام، وبذلك انتزع من الباى سلطة تعيين أمين السر العام.

وبقي الباى، في ظل الحماية، صاحب السيادة في تونس يمارسها بواسطة وزرائه ومجلس شورى. وتمتع المقيم الفرنسي بموجب المعاهدة بحق تقديم النصائح للباى والعالم الخارجي. وتمتع المقيم بموجب المرسوم الجمهوري الفرنسي الصادر في ٢٠ ذي الحجـة ١٣٠١هـ (١٠ تشرين أول ١٨٨٤م) بسلطات تشريعية وتنفيذية واسعة، وعدت أوامر الباى غير نافذة إذا لم يصادق عليها المقيم.



وقد أسس مجلس الشورى سنة ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) ليحل محل المجلس الكبير الذي حلَّ عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٤م) وينظر في شؤون الميزانية. وعين المقيم العام أعضاء هذا المجلس من بين أصحاب الشركات التجارية، والمزارعين، وأعضاء المجالس البلدية. وعين المقيم العام في ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) عدداً من التونسيين أعضاء في هذا المجلس بحيث أصبح عدد التونسيين في المجلس ثمانية عشر عضواً، ومنح الفرنسيون حق انتخاب ممثليهم البالغ عددهم ستة وثلاثين عضواً. وانقسم المجلس عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) إلى قسمين واحد فرنسي، وآخر تونسي يجتمع كل منهما وحده وألغي مجلس الشورى عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م)، وشكل مجلس جديد دعي بالمجلس الكبير. وانقسم هذا المجلس بدوره إلى قسمين: فرنسي، تونسي. وضم القسم الفرنسي ٤٤ عضواً، تنتخب منهم الفرق التجارية والزراعية ٢١ عضواً، وينتخب الباقون من قبل الجالية الفرنسية، بينما ضم القسما لتونسي ١٨ عضواً معيناً. وطرأت تغييرات على المجلس، فقد زيد عدد الأعضاء بموجب الأمر الصادر في عام ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) فأصبح عدد الفرنسيين ٥٢ عضواً، وعدد التونسيين ٣٦ عضواً. وزيد عدد الأعضاء ثانية عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م) إلى ٥٦ فرنسياً و٤١ تونسياً، وتساوى الفريقان عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م). وتوترت العلاقات بين التونسيين والفرنسيين في المجلس، فقدم الفرنسيون استقالاتهم عام ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م) احتجاجاً على تساهل الحكومة الفرنسية نحو المطالب الوطنية التونسية، وتوقفت أعمال المجلس الكبير في عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م).

وأحدثت الإدارة الفرنسية تغييرات في الوزارات التونسية. ولم يبق بعد الاحتلال والحماية من الوزارات القديمة غير منصبي الوزير الأكبر، ووز.ر القلم والاستشارة. وقام المقيم العام بعد عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) بأعمال وزير الحربية، كما قام قائد القوات الفرنسية بمهام وزير الحربية. وأصبح لمجلس الوزراء بعد عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) أمين سر عام فرنسي يعينه الباى، ويوافق عليه المقيم، ولكن بعد ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) سلبت فرنسا من الباي حق تعيينه إذ عين بمرسوم فرنسي. وبعد أن اشتد الوطنيون التونسيون بالمطالبة بفصل السلطات وجعلوه مطلبا وطنياً رئيسياً، تساهل الفرنسيون، وحققوا للتونسيين هذا المطلب فأحدثوا

عام ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) وزارة عدل تونسية. واغتنم الباى عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) فرصة ضعف فرنسا فشكل وزارة وطنية برئاسة «محمد شنيق» ضمت كلاً من الدكتور الماطري رئيس الحزب الدستوري الجديد، والصالح فرحات عضو اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري، إلا أن الوزارة لم تعمر طويلاً وسقطت بعد عام إثر دخول قوات الحلفاء الى تونس، وبدأ عهد ازدياد النفوذ الفرنسي واضطهاد الوطنيين. ولكن فرنسا عادت فوافقت عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) على إنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية، وشكلت بعد عام وزارة مختلطة من ستة تونسيين، وسبعة فرنسيين، وألغيت صلاحيات أمين السر العام الواسعة. وازداد الوزراء التونسيون جرأة فأقدم رئيس الوزراء «محمد شنيقة على توقيع شكوى إلى مجلس الأمن قدَّمها لهيئة الأمم المتحدة صالح بن يوسف، محمد بدرة. وعرضت فرنسا كترضية للتونسيين زيادة عدد الوزراء التونسيين، وإلغاء المستشارين الفرنسيين للوزراء التونسيين، وجعل قرارات مجلس الوزراء نافذة. وما جاء عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) حتى كانت الوزارة التونبسية قد أصبحت كلياً مؤلفة من تونسيين.

هذا ما كان من سيطرة فرنسا على تونس من الناحية السياسية، ولكنها سيطرت أيضاً على كافة النواحي الأخرى من اقتصادية وثقافية واجتماعية. ومن الناحية الاقتصادية سيطرت فرنسا على الاقتصاد التونسي، ومصادر الثروة في البلاد، فاستولت على أملاك الدولة من الأرض البور، ثم استولت على الغابات، والأراضى المملوكة للأفراد الذين لايستطيعون إثبات ملكيتهم لها، ثم أراضي القبائل والأوقاف، وسلمت هذه المساحات الشاسعة للشركات الفرنسية والمهاجرين الفرنسيين، وعمدت إلى الثروة المعدنية فأسندت إلى الشركات الفرنسية مهمة البحث عنها والحصول عليها، وركـزَّت كل النشاط الصناعي في يد الشركات الفرنسية، ووضعت نظاماً جمركياً جعل تونس بموجبه سوقاً للبضائع الفرنسية وحدها، كما جعل صادرات تونس لاتتجه إلا لفرنسا.

واحتضنت فرنسا كل أفراد الجاليات الأوروبية، ومنحتهم الجنسية الفرنسية ليكبر عدد رعاياها، واتجهت إلى هؤلاء بالرعاية على حساب شعب تونس، فجعلت الوظائف الكبرى في أيديهم، واتجهت بالميزانية إلى مرتبات الموظفين مهملة

كل المنشآت العمرانية، والثقافية، والصحية. حتى أنه خصص أكثر الميزانية التونسية للموظفين. فقد بلغ عدد الموظفين في عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) (٦٩٦، ٣١) موظفاً منهم (٢٢) ألف موظف من الفرنسيين والمتجنسين بالجنسية الفرنسية، ويتقاضى الموظفون ٨٢٪ من مجموع اعتمادات ميزانية ذلك العام. وكانت فرنسا تحث التونسيين على التجنس حتى يحصلوا على مرتبات عالية تساوي مرتبات الفرنسيين، إلا أن الصحافة وفتوى المفتي العام قضت على هذه النداءات.

وفي الناحية العملية والثقافية اتجهت فرنسا إلى محاربة اللغة العربية والفكر الإسلامي، كما اتجهت لنشر اللغة الفرنسية وتشجيع التنصير، وقطعت الإعانات عن المدارس الإسلامية، فضعفت، وانقضت أكثرها ولم يبق إلا جامعة الزيتونة تصارع الأحداث وتناضل للبقاء، وفرضت فرنسا الأحكام العرفية على تونس أكثر من عشرين عاماً صادرت خلالها حرية الفكر وحرية النشر والاجتماع، إلا ما يؤيد أغراضها، ويحقق أهدافها.

وهكذا عبرت تونس مدة طويلة من الزمن، وهي تتلظى بنار الاستعمار الفرنسي، وتكتوي بلهيبة، حتى هب أهلها يناضلون للحرية والاستقلال، ذلك النضال الذي أتى ثماره وحقق لشعب تونس ما هو جدير به من حرية واستقلال.

كفاح الشعب التونسي في سبيل الاستقلال :

بدأت الحركة الوطنية في تونس، كما بدأت في مصر، بشكل حركة إسلامية قام بها الطلاب الذين درسوا في جامعات الغرب. وتزعم هذه الحركة في تونس (علي أبو شوشة) الذي أصدر جريدة (الحاضرة) فاجتمع حولها كتلة من الشباب المثقف تنادي بتقوية الروابط مع الجامعة الإسلامية. وهذا يشبه مافعله مصطفى كامل في مصر الذي أصدر جريدة (اللواء). وبعد عامين ألف (علي باش حمبه) حزب المقاومة، وأصدر جريدة التونسي الناطقة بالعربية والفرنسية، ودعا إلى مقاطعة اليهود لتعاونهم مع الفرنسيين، وبعد أن قامت عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) ثورة تركيا الفتاة (حزب الاتحاد والترقي) غير الحزب التونسي أسمه فأصبح حزب تونس الفتاة. وعهد إلى الشيخ عبدالعزيز الثعالبي برئاسة تحرير النسخة العربية من جريدة التونسي. وساهم هذا الحزب بكل قواه في تأييد نضال طرابلس،

والجزائر، كما أيد ثورة قامت في تونس عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م) بسبب محاولة الفرنسيين مد خط حديدى عبر مقابر المسلمين فثار أهل تونس إلا أن السلطات الفرنسية قمعت هذه الثورة بالعنف والشدة، ونفت كذلك كلاً من (علي باش حمبه وأخاه محمداً، وبشير الأصفر، والثعالبى، وحلّت حزب تونس الفتاة. وذهب علي، وبشير، والثعالبي إلى استانبول حيث عمل الأول مستشاراً الوزارة الخارجية التركية. أما (محمد باش حمبه) فقد قصد جنيف، وأصدر فيها عام ١٣٣٤هـ (١٩١٦م) مجلة (المغرب) للدفاع عن قضايا المغرب العربي، والتي توقفت عن الصدور عام ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) بسبب انقطاع المدد المالي من استانبول.

حاول الثعالبي بعد الحرب العالمية الأولى إحياء حزب تونس الفتاة، والدعوة للقضية التونسية في الأوساط الدولية. فقصد باريس عام ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) على رأس وفد تونس لعرض قضية بلاده على مؤتمر الصلح، كما قدم مذكرة إلى الرئيس الأمريكي ولسن. وفي تونس استقبل المقيم العام في ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) وفدا من أعيان تونس، قدم مذكرة شفوية بمطالب البلاد، كما قدم هذا الوفد مذكرة مماثلة للباي في العام نفسه. وأسس هؤلاء الأعيان حزب الدستور الحر التونسي، وأصبحت مذكرتهم هي أهداف الحزب. وهذا يشبه ماحدث في مصر قبل ذلك بنصف عام عندما تقدم أعيان مصر بمطالب للمندوب البريطاني ثم أسس هؤلاء حزب الوفد، وأصبحت مطالب الأعيان هي أهداف الوفد. وهكذا فإن الشبه كبير في طريقة تكوين وتطور حزب الوفد المصرى، وحزب الدستور التونسي.

ولكن الحركة الوطنية في تونس بدأت تتطور تطوراً مختلفا عن تطور الحركة في مصر، فبينما مالت الحركة الوطنية في مصر إلى التطرف والعنف فأصبحت تنشد الاستقلال التام، بدأت الحركة الوطنية التونسية التي طالبت (ولسن) بالاستقلال التام تدعو إلى التعاون مع فرنسا، وتنشد مساعدة، وعطف الأحزاب اليسارية في فرنسا. وكان باي تونس أكثر تأييداً لنضال بلاده من ملك مصر. وقدم الوطنيون في مطالبهم الوطنية المتواضعة التي طالبوا فيها بما يلي:

١ ــ تشكيل جمعية تشريعية مختلطة (فرنسية وتونسية) لها صلاحيات واسعة لاسيما في القضايا المالية.

٢ ــ تأليف وزارة مسؤولة أمام المجلس.

٣ ــ الفصل بين السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية فصلاً تاماً.
٤ ــ منح التونسيين حق إشغال الوظائف حسب كفاءاتهم ومساواتهم بالفرنسيين.
٥ ــ المساواة بين الموظفين التونسيين والفرنسيين بالرواتب.
٦ ــ تشكيل مجالس محلية منتخبة.
٧ ــ جعل التعليم إجبارياً.
٨ ــ منح التونسيين حق شراء أرض الدولة.
٩ ــ منح التونسيين حرية عقد الاجتماعات، وتشكيل الأحزاب وضمان حرية الصحافة.

ويلاحظ أن هذه المطالب لاتتعرض لذكر الاستقلال، بل تقرر للفرنسيين بحق الاشتراك في حكم تونس.. وكل ما طلبه الوطنيون هو مشاركة الفرنسيين بنصيب عادل من خيرات بلادهم.

ولم تستجب فرنسا لهذه المطالب المعتدلة. وقصد باريس في أواخر عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) وفد تونسي لم يستطع أن يحقق شيئاً كما فشل وفد (الثعالبي) في إسماع صوت تونس في مؤتمر الصلح، فاكتفى باصدار كتاب بالفرنسية سماه «تونس الشهيدة». وعاد الأعيان التونسيون (وفد الأربعين) فقدموا مطالبهم ثانية للباى وللمقيم الجديد لوسيان (الذي خلف فلاندان منتصف عام ١٣٤٠هـ) وشجعهم الباى ورحب المقيم بأكثر من هذه المطالب مع إبداء تحفظات بالنسبة للطلبين الأوليين. وحقق المقيم المطلب الثالث حينما وافق في عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٣م) على تأسيس وزارة عدل تونسية، كما نفذ بعض المطلب التاسع فسمح للثعالبي بالعودة إلى تونس وألغى حالة الطوارىء التي أعلنت منذ ١٩١١هـ (١٩٢٩م) وسمح لأكثر من عشرين صحيفة وطنية بالصدور.

وظهر الحزب الحر الدستوري بصورة رسمية بقيادة (عبدالعزيز الثعالبي) و (بشير الأصفر) وضم هذا الحزب عدداً من المثقفين والعلماء من سكان العاصمة وكلهم من أنصار الوحدة العربية الإسلامية. وأظهر الحزب بصورة خاصة عداء للصهيونيين تطور إلى اضطرابات دامية ضد اليهود في صفاقس في ٣و٤ ربيع الثاني عام ١٣٥٢هـ (٢٥و٢٦ تموز ١٩٣٣م)، كما حدثت اصطدامات أخرى مع اليهود

عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م). ولكن الحزب لم ينجح في الحصول على مطالبه من الفرنسيين الذين عادوا فلجأوا إلى القوة في قمع الحركة الوطنية. وقاد المقيم في ١٨ شعبان ١٣٤٠هـ (١٥/٤/١٩٢٢م) مظاهرة عسكرية كبيرة وأجبر الباى على الرضوخ وعلى اقصاء الوطنيين من قصره وزار الكسندر ميلران رئيس الجمهورية الفرنسية تونس في آخر شهر شوال فلم يحدث ما يعكس تلك الزيارة.

وأعلنت الحكومة الفرنسية في ٥ ذي القعدة ١٣٤٠هـ (٩٢/٦/١٩٢٢م) عزمها على إدخال إصلاحات في تونس. ونوقش موضوع الإصلاح في البرلمان الفرنسي في الرابع والخامس من تموز وأبدى النواب رغبتهم بألا تتعارض الإصلاحات مع بقاء مركز فرنسا واستمرار تشجيع استيطان الفرنسيين في تونس وأصدر المقيم في ١٣ تموز كما أصدر في ١٤ قرارات بإنشاء المجلس الكبير ليحل محل المجلس الاستشارى وكذلك أحدثت مجالس محلية للبلديةلا والمقاطعات، وتم انتخاب الأعضاء الفرنسيين في المجلس في أواخر العام كما عقد المجلس أول اجتماعاته بعد اجراء الانتخابات.

وخابت آمال الوطنيين ولم يقبلوا هذه الأصلاحات. ولجأ الفرنسيون إلى الشدة فعطلوا الصحف ومنعوا الاجتماعات واعتقلوا زعماء الحركة الوطنية، وفر الثعالبي إلى مصر حيث بقى منفياً حتى عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م). وتزعم حركة الحزب في غيابه لجنة تنفيذية بزعامة الطاهر أحمد الصافي، والصالح فرحات، ومحيى الدين القليبى، وبدأ الحزب بالتقرب من اليساريين ولاسيما الشيوعيين.

وثارت مشكلة جديدة بدأت أواخر ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) حينما شرع الفرنسيون بتطبيق قوانين جديدة للجنسية. فقد الحق الأجانب في تونس بالجنسية الفرنسية وجردوا من الرعوية التونسية إذا كان جدهم من مواليد تونس وذلك بموجب قانون (٨/١١/١٩٢١م). وعاد الفرنسيون فأصدورا قانوناً في (٢٠/٣/١٩٢٣م) منحوا بموجبه الجنسية لكل من يطلبها ويظهر عواطف فرنسية. وقاوم المسلمون التونسيون الاتجاه الجديد وقاطعوا كل مسلم يحمل الجنسية الفرنسية واعتبروه مارقاً من الإسلام ولا يجوز دفنه في مقابر المسلمين. ولما شعر المسلمون التونسيون الذين حملوا الجنسية الفرنسية بحراجة وضعهم شكلوا اتحاداً أقسم اعضاؤه بالله على السعى لاستعادة الجنسية التونسية. وقدم الاتحاد مذكرة إلى الباى رجوا فيها

وساطته لاستعادة الجنسية التونسية . . . ولكن المقيم العام الفرنسى والجالية والصحف الفرنسية حملوا حملات عنيفة على هذه الفئة واتهموها بالمروق. وغدت هذه الفئة محتقرة من الفرنسيين والتونسيين. ورفضت الجماهير التونسية محاولات لدفن هؤلاء في مقابر المسلمين.

وانتعشت آمال الوطنيين في تونس عندما شكل (هريو) وزارة يسارية في فرنسا في عام (١٣٤٢هـ (١٩٢٣م)، وأرسل الحزب الدستوري وفداً إلى باريس برئاسة الطاهر أحمد الصافي لمفاوضة حكومة (هريو) وعرض مبادئة التسع. ولكن (هريو) رفض مقابلة الوفد، فاكتفى الطاهر بتقديم المذكرة بمطالب البلاد. كما قدم الحزب الإشتراكي مطالب شبيهه بمطالب الحزب الدستورى. فوعد رئيس الوزراء بدراستها وتتلخص هذه المطالب ـ التي تعترف لفرنسا بحقوق أساسية في تونس ولم تطالب إلا بالمساواة مع الفرنسيين بما يلي:

١ ــ المساواة مع الفرنسيين في عدد النواب في المجلس الكبير والاشتراك معهم في انتخاب المجلس.

٢ ــ إعطاء المجلس حق الاقتراع على الميزانية ومراقبة المصروفات.

٣ ــ أن يتم انتخاب أعضاء المجلس بالاقتراع السرى.

٤ ــ الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية.

٥ ــ مشاركة التونسيين في الوظائف العامة مع مساواتهم في الرواتب مع الفرنسيين.

٦ ــ حرية الصحافة والاجتماع.

درست الحكومة الفرنسية هذه المطالب. وأوصت بضرورة الإصلاح وتحسين جهاز الخدمة المدنية. وأثبت نضال تونس أن لا أمل لبلد عربى بالحصول على أمانيه عن طريق المفاوضة والإقناع.

انتقلت زعامة النضال في تونس إلى فئة الشباب من أعضاء حزب الدستور، فقد أصدر الشاذلي خير الله جريدة صوت التونسي عام ١٣٤٨هـ (١٩٢٩م) واشترك في تحريرها المحامى الشاب الحبيب بورقيبه الذي درس المحاماة في باريس ودخل معترك السياسة والصحافة في تونس إثر عودته، وعقد الشباب في ٨ جمادى الآخرة عام ١٣٤٩هـ (٣٠/١٠/١٩٣٠م) مؤتمراً للحركة الوطنية وانتخبوا هيئة

للكفاح برئاسة الدكتور الشاذلي وعضوية الدكتور أبو رقيبة وأخيه والدكتور محمود المطيرى والطاهر صفر. وتمكن هؤلاء من إحباط محاولة فرنسية للاحتفال بذكرى مرور خمسين عاماً على الاحتلال. ونقل أبو رقيبة والطاهر قضية تونس إلى المجال الدولى حينما عرضاها في مؤتمر حقوق الانسان الذي انعقد في (فيشي) في ذي الحجة ١٣٤٩هـ (أيار ١٩٣١م). وعاد أبو رقيبة فأصدر جريدة العمل التونسى عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) وبدأ نجمه بالبروز.

دعا الحزب إلى عقد مؤتمر في (أيار ١٩٣٣م)، فانعقد المؤتمر (قسم الجبل) ودعا إلى الجهاد من أجل الاستقلال وتحرير الشعب التونسي وإعطاء البلاد نظاماً صالحاً ومجلساً نيابيا منتخباً ووزارة مسئولة أمام المجلس النيابي. وأعلن المؤتمرون أن سياسة التعاون التي اتبعها الحزب كانت غير مجدية، لذا تبنى الحزب الأهداف التالية وسعى إلى تحقيقها:

١ ــ مجلس نواب منتخب انتخاباً حراً.
٢ ــ حكومة مسؤولة أمام المجلس.
٣ ــ فصل السلطات الثلاث.
٤ ــ قانون تونسى واحد يطبق على كافة المقيمين في تونس.
٥ ــ حريات عامة.
٦ ــ التعليم إجبارى.
٧ ــ حماية الاقتصاد الوطنى.

وقرر الشباب الانفصال نهائياً عن حزب الدستور بعد أن يئسوا من إمكان التعاون مع رجالاته من الرعيل الأول، وعقد الشباب مؤتمراً في بلدة قصر الهلال التونسية في مطلع عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). وتبنى الأعضاء مبادىء مؤتمر الجبل ومبدأ الاستقلال على مراحل. وأعلن عن تشكيل حزب جديد باسم حزب الدستور الجديد برئاسة الدكتور الماطري كما أصبح الحبيب بورقيبه أميناً عاماً للديوان السياسى للحزب. وضم الحزب شباباً مندفعاً أمثال صالح بن يوسف، الطاهر صفر، وعلى البهلوان، ومنجى سليم، ويوسف الرويسى، وجلولى فارس. وسمح لهم المقيم العام بإعادة إصدار جريدة العمل. ولكن فرنسا غيرت المقيم، فاعتقل المقيم الجديد زعماء الحزب بعد خمسة شهور من تشكيله، وتلا ذلك

اضطرابات خطيرة في تونس بينما استمر اعتقال الزعماء حتى عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) بادر الزعماء بعد اخلاء سبيلهم إلى عقد مؤتمر حزبي في الهواء الطلق في صيف عام ١٩٥٥هـ (١٩٣٦م)، ثم قصد الحبيب بورقيبه باريس لمفاوضة الحكومة الفرنسية والتي استجابت وأرسلت مبعوثاً من قبلها لدرس الأوضاع. فاقترح إصلاحات معينة ولكن عارضها الفرنسيون.

وشكل الحزب الدستورى الجديد بالخلاف مع حزب الدستور القديم طوال عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م)، ولكنه استأنف نشاطه ضد المستعمرين في العام التالي. ولا شك أن منهاج حزب الدستور الجديد كان أوسع من منهاج الحزب القديم، فقد وسع دائرة نشاطه إلى الحركة العمالية، وبخاصة لأن بعض أعضائه المؤسسين كانوا من أبناء الطبقة العاملة، فأصبح يمثل حركةً شعبيةً شاملةً لايقتصر نشاطها على أبناء الطبقة الوسطى وسكان المدن وإنما يمتد ليشمل الكادحين وأبناء الطبقة العاملة في المدن والقرى، وكان للحزب تنظيم دقيق، وله مركز رئيسى يوجه سياسته. وفروع منبثة في أنحاء البلاد بلغ عددها ٤٥ فرعاً، تعمل على نشر مبادىء الحزب. وتوعية الشعب بالقضية الوطنية وبلغ عدد أعضائه قرابة ثلث مليون عضو، والحزب بصورته الجديدة كان أكثر تنظيماً وإحكاماً من سابقه، يلائم روح العصر. ويمتاز قادة هذا الحزب بأنهم يجمعون بين الثقافتين العربية والغربية الحديثة، وترضى عنه سراً فرنسا لاتجاهه العلماني وأخذت تقويه وتظهره، والشعب لايعرف مايدور في الخفاء، لذا كان يبدي تأييده لهذا الحزب رغم ارتباطه.

اعتقلت السلطات الفرنسية جميع أعضاء الحزب الدستورى الجديد في عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م)، وأعلنت الأحكام العرفية، وحل الحزب أيضاً في العام نفسه. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية كانت الأحزاب في تونس قد حلت، وتعمل في السر، وزعماؤها في المعتقلات، ولكن بعد أن استسلمت فرنسا في منتصف عام ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) نشطت الأحزاب مرة أخرى. فقدم حزب الدستور الجديد طلباً إلى الباى طالب فيه بإنهاء المعاهدة وإخلاء سبيل المعتقلين، فبادرت سلطات (فيشي) إلى اعتقال (الحبيب ثامر) ورجال المكتب السياسي للحزب.

ولكن اعتلاء الباى محمد المنصف عرش تونس في ٢٥ جمادى الأولى عام ١٣٦٠هـ (١٩٤٢/٦/١٩م). والاحتلال الألماني لتونس في أواخر العام نفسه غير الموقف. فقد قدم الباى الجديد إلى المقيم العام مطالبه الستة عشر التي وضعها له حزب الدستور الجديد. واغتنم الباى فرصة احتلال الألمان لتونس وضعف النفوذ الفرنسي ليعهد إلى محمد شنيق بتشكيل وزارة وطنية ضمت المطيرى وصالح فرحات كممثلين للدستور الجديد والقديم. وأصدر حزب الدستور الجديد جريدة أفريقيا الفتاة، كما أشرف أحد أعضائه، يوسف الرويسى، على فتح مكتب المغرب العربى في برلين وإصدار جريدة المغرب العربى. وأطلق الألمان الزعماء المعتقلين ومن بينهم الحبيب بورقيبة.

ولكن احتلال الحلفاء لتونس في عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) قلب الأوضاع، فقد خلع الفرنسيون الباى المنصف ونفوه وعينوا أميناً عاماً يتمتع بأكثر صلاحيات الباى. وعانى التونسيون الكثير من الاضطهاد والأذى من الفرنسيين وغدا من السهل اتهام أى وطنى بالتعاون مع المحور لإعدامه. وضعف نشاط الأحزاب السياسية وفر الزعماء الذين نجوا من الإعتقال أو القتل إلى القاهرة ودمشق. وجعل أبو رقيبة القاهرة مركزاً لنشاطه ١٣٦٤-١٣٦٨هـ (١٩٤٥-١٩٤٩م).

وبرز في ميدان النضال في هذا الوقت نقابات العمال. وكان العمال التونسيون من قبل قد انخرطوا في الاتحادات الفرنسية. وفي ربيع عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) عاد الدكتور محمد على بن المختار القابسى من ألمانيا بعد أن اختص بالاقتصاد وأسس جمعية التعاون الاقتصادى التونسى ونقابة عمال الرصيف. وقررت لجنة عمالية إنشاء اتحاد عموم عمالة تونس كما انتخبت محمد على أميناً عاماً للاتحاد. وبادر الفرنسيون إى حل الاتحاد عام ١٢٤٣هـ (١٩٢٥م). وبقيت منحلة إلى أن أعيد تشكيل نقابات عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) ولكنها حلت بعد عام. وأخيراً برز أحد عمال النقل في صفاقس المدعو (فرحات حشاد) وتمكن من تأسيس الاتحاد العام التونسى للشغل سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م). كذلك تأسس الاتحاد العام الزراعى وانضم الاتحادا إلى النقابات الحرة لا إلى اتحاد النقابات الشيوعى، كما أيد سياسياً حزب الدستور الجديد.

واستعادت الأحزاب السياسية نشاطها بعد انتهاء الحرب بالتعاون مع

النقـابـات. لها سيهاوأن الحـرب العالمية الثانية قد انتهت بوعود تقرير المصير. وعقدت الأحزاب والنقابات واتحاد الموظفين مؤتمراً وطنياً ليلة القدر في ٢٦ رمضان ١٣٦٥هـ (١٩٤٦/٨/٢٣م)، وتبنوا ميثاقاً جاء فيه أن نظام الحماية لايتفق مع سيادة الشعب التونسي وأنه نظام فاشل. لذا وجب السعي لاسترجاع استقلال تونس لكي تنضم تونس المستقلة إلى الجـامعـة العـربية وهيئة الأمم المتحدة. وبادرت السلطات الفرنسية إلى اعتقال الزعماء المجتمعين، فأعلن فرحات حشاد الإضراب العام. واضطرت الحكومة الفرنسية إلى التساهل فغيرت المقيم الفرنسي (ماست) واتبعت سياسة مسالمة، فألغت مرسوم صلاحيات الأمين العام وشكلت وزارة تونسية مختلطة من ستة وزراء تونسيين وسبعة فرنسيين برئاسة مصطفى الكعاك.

وخطت فرنسا خطوة جديدة في طريق التفاهم مع التونسيين. فقد وافقت على تشكيل وزارة وطنية برئاسة محمد شنيق في ٤ ذي القعدة ١٣٦٩هـ (١٧ آب ١٩٥٠م) ضمت صالح بن يوسف من حزب الدستور الجديد والسيد محمد بدره رئيس اتحاد الغرف التجارية التونسية. وبدأت الوزارة مفاوضاتها مع فرنسا لحل الخلافات المعلقة. وهاج الفرنسيون في تونس، واحتجوا وقدم الأعضاء الفرنسيون في المجلس الكبير استقلالهم من المجلس، وهدد زعيمهم باعلان العصيان المدني.

ورحب أبو رقيبه بالتعاون مع فرنسا وقدم مطالبه السبعة والتي جاء فيها:-

١ ـ إعادة سلطات الباى.
٢ ـ تشكيل مجلس وزراء كل أعضائه من التونسيين.
٣ ـ إلغاء منصب الأمين العام
٤ ـ إلغاء مناصب المستشارين الإداريين للمقاطعات وعددهم ١٩.
٥ ـ حل الشرطة.
٦ ـ احداث مجالس بلدية-منتخبة.
٧ ـ تشكيل مجلس نواب منتخب يضع دستورا ويقر معاهدة مع فرنسا.

تبنت الوزارة الوطنية هذه المطالب وكذلك الباى ورفعت إلى الحكومة الفرنسية التي انقسمت على نفسها ما بين مؤيد ومعارض ومتحفظ لهذه المطالب أو بعضها أو كلها وأخيراً رفضت الحكومة الفرنسية هذه المطالب.

ونشطت الحكومة التونسية في عرض قضيتها على مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة في ١٣٧١هـ (أواخر عام ١٩٥١م) لكنها لم تنجح في إدراج القضية، وأخيراً نجحت تونس في إدراج القضية عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) لكن هذا لم يتمخض عن شيء ايجابي نظراً لمقاطعة مندوب فرنسا للجلسات.

ولجأ التونسيون إلى النضال المسلح لمقابلة الإرهاب والعنف الفرنسي بمثله بعد أن ثبت فشل النضال السياسي. وشكلت فرق النضال التونسية التي لجأت إلى قطع أسلاك الهاتف، وتخريب السكك الحديدية، ونسف الجسور وحماية المواطنين من الاغتيال. وعادت الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى بحث قضية تونس في عام ١٣٧٣هـ (١٩٥٣م) فطالبت فرنسا بحل قضية تونس على أساس العدل. واضطرت فرنسا إزاء نضال التونسيين وإزاء موقف الرأى العام العالمي إلى التراجع فأعلن منديس فرانس رئيس الوزارة الفرنسية في رجب ١٣٧٤هـ (آذار ١٩٥٤م) منح تونس الإستقلال الذاتي فشكل طاهر بن عمار وزارة وطنية. واشترط منديس فرانس سبعة شروط بالإضافة إلى شرط استسلام المجاهدين فرحب أبو رقيبة بالشروط السبعة وحث المجاهدين على الاستسلام، وأيده في هذا الموقف مؤتمر الحزب المنعقد في صفاقس. ولبى نداء الاستسلام ثلاثة آلاف مجاهد. أما الشروط السبعة فهي:

١ ـ استمرار المحاكم الفرنسية وفق اتفاقية قضائية.

٢ ـ قيام اتحاد جمركي بين تونس وفرنسا وفق اتفاقية جمركية ومنح البضائع الفرنسية الأولية.

٣ ـ جعل اللغة الفرنسية لغة رسمية في التدريس والاستعانة بأساتذة من فرنسا وإرسال البعثات إلى فرنسا وذلك وفق اتفاقية ثقافية.

٤ ـ ضمان مصالح الموظفين الفرنسيين البالغ عددهم ١٦ ألفا وذلك وفق اتفاقية إدارية.

٥ ـ ربط النقد التونسى بالفرنك.

٦ ـ ضمان مصالح المستوطنين الفرنسيين.

٧ ـ يكون استغلال الثروة المعدنية وقفاً على الشركات الفرنسية والتونسية.

وعاد أبو رقيبة إلى تونس في شوال ١٣٧٤هـ (أول حزيران ١٩٥٥م)، وبعد

يومين وقعت الاتفاقية الفرنسية التونسية والتي عرضت فرنسا فيها الاستقلال مع كثير من التحفظات، فلم يتقبل الشعب الاتفاقية التي أبرمت حينذاك، وواجهوها بالاضطرابات، وكان على رأس هذه المعارضة صالح بن يوسف، فاضطرت فرنسا اخر الأمر الى الاعتراف بالاستقلال الكامل للبلاد مع احتفاظها بقاعدة بنزرت البحرية وذلك في شعبان ١٣٧٥هـ (٢٠ آذار ١٩٥٦م). وانتخب الحبيب بورقيبة رئيساً للجمعية الوطنية، وشكل أول وزارة استقلالية ضمت وزارة للخارجية. وعقدت اتفاقية جديدة مع فرنسا في منتصف (حزيران) تنازلت بموجبها فرنسا عن تحفظاتها، فأعلن بعد يومين عن تشكيل جيش تونسى، وألغيت المحاكم الفرنسية في ١٩ شعبان ١٣٧٦هـ (العشرين من آذار ١٩٥٧م) وألغيت الملكية في ٢٨ ذي الحجة ١٣٧٦هـ (٢٥ تموز ١٩٥٧م) وانتخب أبو رقيبة أول رئيس للجمهورية التونسية المستقلة.

وهكذا دخلت تونس عصر استقلالها الكامل وشرعت تبنى نفسها من جديد على أسس عصرية حديثة. ففي المجال الداخلي عملت الحكومة التونسية على تصفية القواعد العسكرية الأجنبية وكان آخرها جلاء الفرنسيين عن قاعدة بنزرت ١٣٧٣هـ (١٩٦٣م)، وتخليص البلاد من التبعية الاقتصادية لفرنسا وتنظيم الحزب الدستورى وهو الحزب الوحيد الحاكم في تونس.

أما في الميدان الدولى فقد أبدت تونس نشاطاً كبيراً. فقد انضمت تونس إلى الجامعة العربية ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) وإلى هيئة الأمم المتحدة (١٩٥٦م)، وعقدت معاهدات إخاء مع ليبيا ومراكش (١٩٥٧م)، كما تعاونت مع الثورة الجزائرية وقدمت لهاالأرض التونسية قاعدة انطلاق، واتبعت مع الدول العربية سياسة مستقلة قد تتعارض أحياناً مع مجموعة الدول العربية وهذا ما جمد نشاطها ضمن الجامعة العربية مرات وجعل اشتراكها في مؤتمرات القمة محدوداً. وانصرفت تونس الى التعاون مع الدول الغربية واعتمدت على معوناتها في التنمية الاقتصادية. أما حاكم تونس الحبيب بورقيبة فقد جدد انتخابه لرئاسة تونس مدى الحياة، فاستبد في حكمه، واستعبد الشعب، وخالف مبادىء الإسلام، وتصرف باستهتار بعيداً عن كل القيم ولما مقته الشعب خافت الدول النصرانية من نشاط الحركة الإسلامية، فاستبدلة برجل أكثر فتوة هو رئيس الوزراء زين العابدين بن علي

وذلك في ١٦ ربيع الأول ١٤٠٨هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٨٧م).

كان زين العابدين بن علي وزيراً للداخلية في وزارتي محمد مزالي، ورشيد صفر، ثم كلف بالوزارة الأولى في ٩ صفر ١٤٠٨هـ (٢ تشرين الأول ١٩٨٧م)، وبعد أقل من شهر قام بحركته ونحى الحبيب بورقيبة عن الحكم، وتسلم مكانه، فعادت الحيوية إلى الحكم التونسي المرتبط مع استبدال شخصية الحاكم.

الفصل الخامس
جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية

كانت الجزائر تعرف «بالمغرب الأوسط» حتى عهد العثمانيين في مطلع القرن العاشر الهجري. والمغرب الأوسط كان جزءاً من الدولة الإسلامية في العهد الأموي، ثم في مطلع العهد العباسي، ولكن استقلال الأندلس عن بني العباس، فتح الباب لاستقلال ولايات أخرى وبخاصة في الشمال الإفريقي الذي كان بعيداً عن بغداد عاصمة العباسيين. وبدأ المغرب الأوسط حياته الاستقلالية، مع المحافظة على صلاته بباقى دول الشمال الإفريقي على الخصوص، وبباقى أجزاء الدولة الإسلامية بوجه عام، واندمج أحياناً في بعضها، فخضعت الجزائر لحكم الدولة الرستمية المستقلة (١٦٠-٢٩٦هـ) وتلا ذلك الدولة الفاطمية، وآل زيري (٢٩٦-٣٦٣هـ)، وخضع بعدها لحكم بنى حماد (٣٩٨-٥٤٧هـ)، فالمرابطون والموحدون (٥٤٧-٦٣٣هـ)ودولة بنى زيان (٦٣٣-٧٩٦هـ)، وأخيراً فترة الأضطراب (٧٩٦-٩٤٠هـ) والتي تعرضت فيها الجزائر لسيطرة الأمراء الحفصيين حكام تونس تارة والمرينيين حكام مراكش تارة أخرى وعودة بنو زيان أحياناً.

وهكذا نجد أن التفكك السياسي في شمالي إفريقية، قد بلغ أقصاه في أول القرن العاشر. كل ذلك سهلّ على الغزاة الإسبان الاستيلاء على أهم موانىء الجزائر (وهران والمرسى الكبير) علاوة على موانىء مراكش فيما بين عامي ٩١٥-٩٢١. ولذا كان مجيء العثمانيين إلى شمالي إفريقية بمثابة نجدة أنقذت البلاد من الغزو الأوربى وعملت على توحيد البلاد سياسياً. وقد رحبت معظم طبقات السكان بمجيء العثمانيين الذين جاء تدخلهم نتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والنصرانية وازدياد الروح الصليبية ضد المسلمين والتي تمثلت في قتل

المسلمين، وانتهاك حرماتهم، ونهب بيوتهم، كما قامت سفن القراصنة من الإسبان والبرتغال بمطاردة مسلمى الأندلس الذين فروا إلى شمالى إفريقية فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر الا القليل الذي فقد كل متاع ومال. وكان من الطبيعى أن يحمل هؤلاء المهاجرون روح الجهاد ضد الدول النصرانية، ولذلك ساهموا بنصيب كبير في تنشيط حركة الجهاد في البحر، وفي شن الغارات على ساحل إسبانيا والاتصال ببقايا المسلمين هناك وتشجيعهم على الثورة.

اجتذب الصراع بين الإسلام والنصرانية في مطلع القرن العاشر عدداً كبيراً من البحارة المغامرين، الذين نشأوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية، ثم راحوا يكونون أساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص وتجاهد ضد أعداء الدين في الوقت نفسه. ولذا فقد كان هؤلاء المغامرون يعدون في نظر المسلمين أبطالاً وفي نظر خصومهم قراصنة بحار، لايخضعون لأي قانون أو نظام. ومن أبرز رجال البحر هما الأخوان عروج وخير الدين باربا روسا. وكان أسطول خيرالدين (١٢ سفينة)، ويضم أجناساً مختلفة من عرب، وبربر، وترك، وأوروبيين اعتنقوا الإسلام فكان هو الجامع لهم، والرابط بينهم، والمؤلف بين قلوبهم.

بدأ عروج نشاطه في غربى المتوسط حوالى سنة ٩١٦هـ (١٥١٠م). وقد فتح له الأمير الحفصى موانىء تونس، واتخذ عروج من بعض الجزر الساحلية قواعد لأسطوله. ولما سمع أهل القبائل بغاراته الناجحة على الإسبان استقدموه إلى بلادهم ليعاونهم على استرداد (بجاية) أكبر موانىء شرقى الجزائر فتم لهم ذلك. وباستعادة ميناء (بجاية) ذاع صيت عروج في المغرب الأوسط خاصة بعد أن نقل قاعدته من تونس إلى (جيجل) وهو ميناء صغير في شرقى الجزائر أيضاً.

ومن هناك استدعاه (سالم السالمي) حاكم ميناء الجزائر فأتى مع قوة صغيرة من العثمانيين، ونجح في صد هجوم إسباني عن المدينة في سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)، وأباح لنفسه أن يتخلص من الحاكم الوطني، ويؤسس تحت قيادته حكومة عسكرية ويلاحظ أن جيش (عروج) لم يقتصر على العنصر التركي بل كان يضم عدداً كبيراً من القبائل والمغاربة (سكان المدن). وبذا اكتسبت حكومته الصفة الإسلامية.

أخذ (عروج) ببسط نفوذه في المغرب الأوسط على حساب الإمارات الوطنية

الصغيرة، وكان طبيعياً أن يصطدم بكبرى تلك الإمارات في تلمسان، حيث انشق على حاكمها «بوحمو» مجموعة كبيرة، لتعاونه مع الإسبان. ونادى هؤلاء المنشقون بالتعاون مع قوة عروج الصاعدة في البلاد.

وفي عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) اتجه (عروج) على رأس قواته إلى تلمسان ماراً بمدن الجزائر الرئيسية مثل «مديا» و «مليانة». فأقام فيها حاميات عثمانية، وامتد نفوذه في غربي الجزائر بعد دخول تلمسان، حتى خضعت له القبائل النازلة على حدود مراكش مثل «بنى عامر» و «بنى سناش». وأقام علاقات طيبة مع مملكة فاس. وفي هذه الأثناء خرج (بوحمو) من تلمسان مستنجداً بأعداء البلاد، فرحبت به الحكومة الإسبانية، وأرسلت له - إمدادات قوية لم يسبق أن خصصت مثلها إسبانية لحملات شمالي إفريقية. وللمرة الأولى توغلت القوات الإسبانية داخل أرض الجزائر بالتعاون مع «بوحمو» حتى وصلت إلى مدينة تلمسان وضربت عليها حصاراً قوياً، وعاند (عروج) في المقاومة. ولكن بعض أهل المدينة ممن ادعوا التأثر بالحضارة خانوه فاضطر إلى الفرار بعد أن فنيت تقريباً الحامية العثمانية، ومع أنه نجح في اختراق الحصار إلا أن القوات الإسبانية تتبعته واستطاعت قتله، وهو في طريقه إلى مدينة الجزائر.

كان خيرالدين يقود حينذاك الحامية العثمانية في الجزائر. فأصبح مركزه حرجاً بعد مقتل أخيه، واضطر إلى طلب المعونة من حكومة الأستانة، فأرسل له السلطان سليم سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م) ألفين من الانكشارية وسمح لرعاياه بالتطوع في جيش المغرب، وأقبل الناس على ذلك أملاً في الغنائم، ورغبة في الجهاد بعد أن سمعوا الكثير من جرائم النصارى في بلاد المسلمين.

ودخلت الجزائر منذ ذلك الوقت ضمن الولايات العثمانية ولكن بقى على خيرالدين أن يبذل جهوداً طائلة قبل أن يؤسس ولايةً قوية، فقد تعرض في هذه المدة الأولى من حكمه لمؤامرات عدة اشترك فيها الحفصيون وأمراء البربر في بلاد القبائل. وأوشك خيرالدين أن يقع في أيدي الحفصيين، ونجا بأعجوبة، وذهب إلى (جيجل) حيث اتخذ منها قاعدة لنشاطه البحرى مؤجلا مسألة بسط النفوذ داخل أراضى الجزائر إلى حين تسنح له الفرصة، وفي المدة مابين سنة ٩٢٦-٩٣٢هـ (١٥٢٠-١٥٢٦م) أخضع الملاحة في البحر المتوسط لسيطرة

الأساطيل الإسلامية، وهابته دول أوربا جميعها حتى اشتهر عندهل باسم «بربروس» BaRberusse أي الرجل ذو اللحية الحمراء.

وكان على خيرالدين في هذه المدة الأولى من حكمه للجزائر أن يحارب على جبهتين. الجبهة الخارجية وتتمثل في ذلك الصراع العنيف مع الدول الأوربية عامةً وإسبانيا بصفة خاصة. ومحاولة طرد الإسبان من الجيوب التي تحتلها على ساحل الجزائر. وقد أصاب خيرالدين في هذا الميدان نجاحاً جزئياً إذ بقيت وهران شوكة إسبانية في جنب ولاية الجزائر حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري تقريباً.

أما الجبهة الداخلية فتتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط تحت حكمه فقد تعرَّض في هذا السبيل لمؤامرات من الحفصيين، وبنى زيان، ومن إمارات القبائل الصغيرة، ومع ذلك فقد تمكن من توسيع دائرة نفوذه باسم الدولة العثمانية وذلك بإلحاق المدن أو الإمارات للحكم العثماني إن حرباً أو سلماً. وامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب، فأصبح المغرب الأوسط كله تابعاً للسلطنة العثمانية حتى واحات (الميزاب) الموغلة في الصحراء، وكان عام ٩٣٦هـ (١٢٥٩م) هو عام تأسيس (نيابة الجزائر) بعد أن سيطر خيرالدين على حصن (البينون) الذي أقامه الإسبان في مواجهة ميناء الجزائر، فمنذ ذلك التاريخ تحوَّل ميناء الجزائر إلى عاصمة كبرى للمغرب الأوسط، بل لشمالي إفريقية العثمانية بأسرها. وبدأ استخدام كلمة جزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط منذ ذلك الوقت. وأخذ على عاتقة ضم تونس إلى الجزائر تحت الحكم العثماني إلا أن الإسبان احتلوا تونس.

استدعى السلطان العثماني خيرالدين باشا ليعينه قائداً عاماً للأسطول العثماني مكافأة له على الأعمال الجليلة التي قام بها لخدمة الإسلام، وخلفه في منصب النيابة أحمد أغا، وبينما ركز خيرالدين نشاطه في المرحلة التالية في شرق البحر المتوسط لم تنقطع جهود نيابة الجزائر في الحوض الغربي، حيث استطاعت الجزائر رد الهجوم الإسباني، وفشلت محاولات الإسبان للسيطرة على الجزائر، فاضطرت إلى الكف عن مهاجمة الجزائر، والاتجاه إلى تونس وقد كانت الدول الأووربية تخشى بشدة من توحيد المغرب تحت سلطة دولة اسلامية كبيرة مثل الدولة العثمانية.

كانت الجزائر عاصمة الولايات العثمانية في شمال إفريقية، لذلك كان ممثل الدولة فيها يحمل لقب «البيلر بك» أى «ريس البكوات». ولكن هذا الإشراف لم يدم طويلاً، فقد انفصلت تونس إثر ثورة عسكرية في سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) وأصبح يحكمها داى يتصل بالأستانة مباشرة.

على أن تبعية ولايات شمالي إفريقية لحكومة الاستانة لم تكن يوماً ما تبعية مباشرة سواء في عهد «البيلر بكوات» العظام أم بعد انفصال تونس وتحول الجزائر إلى باشوية. والواقع أن عدم تدخل حكومة الآستانة في الإدارة الداخلية للولايات كانت ظاهرة عامة في نظام الدولة العثمانية آنذاك، ولكن استقلال ولايات شمالي إفريقية لم يكن يقف عند حد الإدازة المحلية، بل كان يتجاوز ذلك إلى التحكم في اختيار الولاة حتى تأسست بعض الأسر الحاكمة، مثل الأسرة الحسينية في تونس، والأسرة القرمنلية في طرابلس بينما سيطرت الجند والبحرية سيطرةً تامةً على نيابة الجزائر. ولذلك يمكن القول بأن استمرار التبعية للآستانة كان أمراً اختيارياً حفز إليه شعور التضامن الديني. وكان أهم رمز لهذه التبعية استصدار المراسيم لإقرار تعيين الحكام الذين اختارهم المجلس الأعلى للجند، ثم الدعوة للسلطان العثماني في خطب الجمعة. وكثيراً ماكانت النيابات الثلاث ترسل أساطيلها لمعونة الدولة في بعض الحروب ولكنها إجراءات اختيارية أيضاً.

وقد شهدت الجزائر تغيرات عدة في نظام الحكم. ويمكن التمييز بين أربع مراحل مختلفة في العهد العثماني. وتطابق المدة الأولى عهد النيابة سنة ٩٢٢هـ إلى سنة ٩٧٧هـ (١٥١٦-١٥٨٨م). وقد نجح الحكام العثمانيون خلال هذه المدة في السيطرة على رجال الجيش والبحرية. لكن شأنهم أخذ يتضاءل منذ هزيمة «ليبانتو». فألغت الآستانة نظام النيابة وجعلت من الجزائر ولاية عادية يتولاها أحد الـولاة ثلاث سنـوات فقط، وذلك خشية من أن يسيطروا على شؤون الولاية وخاصة في تلك المناطق البعيدة عن مركز الدولة.

وتمتد المرحلة الثانية من سنة ٩٩٧هـ حتى سنة ١٠٧٠هـ (١٥٨٨-١٦٥٩م) وفي خلالها فقد الباشوات سيطرتهم على الإنكشارية، وانتقلت السلطة الفعلية الى المجلس الأعلى للجند، وكان يتألف من ٢٤ ضابطاً ممن وصلوا إلى درجة رائد. وينتخب هذا المجلس رئيس الجند، وكيل الوالي، وقد أخذت أهمية الولاة تتضاءل

حتى تمكن مجلس الجند في سنة ١٠٧٠هـ ١٦٥٩هـ من تنصيب أحد أعضائه حاكما فعلياً للولاية ويلقب بـ (الـداي) على نمط النظام المتبع في تونس منذ الانقلاب الذي أحدثه الانكشارية بها سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م).

ولم تطل هذه المرحلة من حكم الانشكارية فقد أدى النظام الذي اتبعه مجلس الجند إلى انتشار الفوضى. لأن رئيسه الذي صار حاكماً فعلياً للبلاد، لم يكن يستقر في منصبه أكثر من شهرين حتى يفسح المجال للشخص الذي يليه في الأقدمية بأن يتولى هذا المنصب. كما أن الأهالي الوطنيين استاءوا من استئثار الانكشارية بالسلطة ومالوا إلى رؤساء البحر على الجند العثماني لعدة أسباب:

أولها: لأن البحرية هي مصدر رخاء رئيسي في الجزائر.

وثانيها: لأن رؤساء البحر أصدق تمثيلاً لعناصر السكان الوطنية.

ومن ثَم وضع رؤساء البحر حدًا لسيطرة الانكشارية بأن فرضوا أحد رجالهم على مجلس الجند في سنة ١٠٨٢هـ (١٦٧٢م). وشاع منذ ذلك الوقت استعمال لقب (داى) لوصف حاكم النيابة وهو لقب من ألقاب رؤساء البحر.

وهكذا تبدأ المرحلة الرابعة التي استمرت حتى سبنة ١٢٤٦هـ (١٨٣١م).

واختفى هذا الصراع بين المجمـوعتـين من الانكشـارية ورؤساء البحر على السلطة في الجزائر تدريجياً وقد استقر بعض الدايات أزمنة طويلة في الحكم خلال القرن الثاني عشر الهجري حتى سقوط النظام في سنة ١٢٤٦هـ (١٨٣١م). وإن كان هذا لاينفى حقيقة ظاهرة في تاريخ الجزائر، وهى أن معظم (الدايات) قد انتهت حياتهم بالقتل لأتفه الأسباب.

وقد تمت هذه التغيرات والباب العالي مستمر على إرسال الولاة الذين يمثلونه في الجـزائر حتى قرر «علي داي» في سنة ١١٢٢هـ (١٧١٠م)، اخراج الوالي العثماني من البلاد، وصدقت الآستانة على هذا الإجراء. كما صدقت من قبل على جميع التغيرات التي طرأت على نظام الحكم، وأصبح (دايات) الجزائر يحملون في الوقت نفسه لقب باشا.

وكان خير الدين قد بسط سلطته على القسم الشمالي من الجزائر، ولكن خلفاءه اهتموا بتوسيع دائرة نفوذهم جنوباً. فأقيمت حاميات عثمانية في (بسكرة) جنوب

شرقى ألجزائر على حافة الصحراء. وكذلك في تلمسان بعد سقوط الدولة الزيانية. بل إن (صالح ريس) أرسل في سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٣م) قطعات عسكرية إلى واحات (ورغلة) و (توغورت) داخل الصحراء الكبرى، ويذكر أحد المؤرخين الجزائريين - وهو محمد بن الأمير عبدالقادر صاحب كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبدالقادر وأخبار الجزائر - أن السلطة العثمانية امتدت إلى واحة (الميزاب) في الصحراء. والتي تسكنها فرقة الأباضية وهى إحدى فرق الخوارج المشهورة في المجتمع الجزائري. ولكن الكتاب الفرنسيين يحاولون على العكس التقليل من أهمية الحكم العثماني في الجزائر، فيقولون: إنه كان مقصوراً على الساحل وأنه لم يبلغ في امتداده مابلغه الرومان الذين حكموا شمالي إفريقية في العصور القديمة، وإن الجزائر العثمانية لم تتجاوز يوما ما $\frac{١}{٦}$ مساحة الجزائر الحالية.

ولهذه المغالطات التاريخية أهداف سياسية واضحة، فكأن الفرنسيين يريدون القول بأن الجزائر بحدودها الجغرافية الواسعة إنما هي من صنع فرنسا في العصور الحديثة، وأن المحاولة الأولى لتوسيع حدود الجزائر إنما تمت في عهد إمبراطورية أوربية استعمارية قديمة هي الإمبراطورية الرومانية التي يعد الفرنسيون أنفسهم ورثة لها.

والحق أن الجزائر كوحدة سياسية قائمة بذاتها إنما تم تشكيلها خلال العهد العثماني. ولم يكن من طبيعة الحكم العثماني أن يرتكز على إدارة مباشرة. ولعل هذا هو مايبرز للكتّاب الفرنسيين مغالطتهم، ففي خارج المدن كان العثمانيون يعتمدون على محالفات القبائل، وقد انخرط بعضها في خدمة الحكومة. وكانت هذه القبائل تعرف باسم (الزمالة) من الزمول وهو المعسكر أو بالدوائر. وتقوم هذه القبائل بجمع الضريبة من القبائل الأخرى نظير إعفائها هي. ولكن الإدارة العثمانية تركت فعلاً بعض التكتلات القبلية القوية وخاصة في بلاد القبائل دون التدخل في شؤونها، واكتفت بالنسبة لبعضها بتلقى مبلغاً من المال أو على الأصح هدايا غير منتظمة تدفع للحاكم بالعاصمة.

ونظام إدارى كهذا الذي وصفناه لايحتاج إلى قوات رسمية كبيرة العدد، وهكذا لم يزد عدد الانكشارية في الجزائر على «٦٠٠٠ رجل» كان نصفهم يرابط

بالعـاصمـة، وقـد عمد خيرالدين منذ بداية عهده بالبلاد إلى تجنيد فرق من الأهالي: بربر، ومغاربة، وأسرى أوروبيين اعتنقوا الإسلام. وتجاوزت هذه الفرق في معظم الأحيان عدد الانكشارية فبلغت ثمانية آلاف.

ويبدو أن خيرالدين فعل ذلك ليوازن بهذه القوات الوطنية ونزعة الانكشارية إلى التسلط. واشتهرت بعض القبائل الجزائرية بالتخصص في الخدمة العسكرية لدى العثمانيين مثل قبيلة (الزواوة). وظهرت في الجزائر كذلك طبقة خاصة من الجند العثماني تعرف (بالقولغلان)، أو (القورغلى)، وهي تتكون من أبناء الجند الأتراك الذين تزوجوا بنساء من أهل البلاد. وقد وكل إلى هذه الطبقة في الغالب المحـافـظة على الأمن الـداخـلي في الأقـاليم، وظـل مجلس الهند مرتبطاً بفرقة الإنكشارية ورجال البحر، وينظر إلى تلك الطبقات من الجند المحليين على أنها فرق من الدرجة الثانية. ويبدو أن الإنكشارية تغاضت عن إنشاء هذه الفرق نظراً لأن غنائم الحروب البحرية. كانت توفر لهم مرتبات كافية.

ولمـا استقـر نظام (الـدايات)، تكون في مدينة الجزائر ديوان مستقل هو أشبه بمجلس وزراء، إذ أن كل عضو من أعضاء الديوان الخمسة كان يختص بناحية من نواحى الإدارة، فهناك وكيل الخرج المختص بشؤون البحرية، وهناك المختص بالشؤون المالية، ورئيس أمن مدينة الجزائر، وناظر القصر، ورئيس الخيل الذي كان حلقة الاتصال بين القبائل والحكومة.

كان الداي يتخذ مقره في أعلى مدينة الجزائر بضاحية تعرف بالجنينة، حتى انتقل «عمر باشا» سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) إلى القصبية أي القلعة في أسفل المدينة على البحر ليكون في مأمنٍ من الاضطرابات التي كثرت في ذلك العصر. ولقد تجمعت لدى (الدايات) ثروة ضخمة كانت تستمد من الهدايا التي يقدمها قناصل الدول الأجنبية، ومن نصيبه في غنائم البحر، ثم ما يتلقاه من مبالغ نظير تعيين حكام الأقاليم والنواحى.

وكانت ولاية الجزائر في العهد العثماني مقسمة إلى ثلاثة أقاليم رئيسية:

«قسنـطينة» في الشرق، وهي أكبر تلك الأقاليم، ويليها إقليم «وهران» في الغـرب وكـانت عاصمتـه (معسكـر) التي ستصبح فيها بعد مقر حكومة الأمير عبدالقادر، وقد نقلت عاصمة الإقليم الى وهران بعد جلاء الإسبان عن الميناء

سنة ١٢٠٧هـ (١٧٩٢م)، أما الإقليم الثالث فهو «تيطرى» وكانت عاصمته (مدية)، وكان حطام تلك الأقاليم بمثابة ملتزمين يؤدون مبالغ معينة سنوياً إلى الداي، على أن يقوموا بجمع الضرائب على مسؤوليتهم في الإقاليم بدورها مقسمة إلى قيادات، وتوزع هذه القيادات أحياناً على أساس جغرافي، وأحياناً حسب توزيع القبائل. وقد أبقت الإدارة الفرنسية على هذه الوحدات الإدارية وخاصة في المناطق التي لم ينتشربها الاستعمار الأوروبي، ومازالت المراكز تعرف باسم القيادة في شمالي إفريقية حتى وقتنا الحاضر، ويسمى رئيس المركز بالقائد، وفي العهد العثماني كانت منصب حاكم الإقليم قاصراً على الأتراك، أما القواد فيختارون من بين الأتراك أو السكان الأصليين على السواء. وجريا على عادة الإدارة العثمانية لم يحدث أي تدخل في حياة السكان الاجتماعية ولذلك ظل النظام القبلي سائداً في الجزائر.

ولكن في خلال القرن الثاني عشر الهجري ظهرت تكتلات قوية من نوع جديد، وذلك نتيجة لتزايد نفوذ الطرق الصوفية. ومن أهمها في الجزائر طريقة «الدرقاوية» و «التيجانية». ولهذه الطرق الفضل في صهر القبائل في وحدات اجتماعية أكبر، بل إنها نجحت في إدماج عنصري العرب والبربر، ولكنها كانت تثير القلاقل في وجه الإدارة العثمانية، وقد عمد بعض سلاطين مراكش إلى استخدامها لإثارة الاضطرابات ضد حكومة الجزائر.

ويلاحظ أن اصطدام الإدارة العثمانية برجال الطرق قد تفاقم في بداية القرن الثالث عشر الهجري، فهاجم أحد زعماء التيجانية مدينة قسنطينة واحتلها فترة قصيرة خلال سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٣م)، كما أن رجال الطريقة الدرقاوية اشتبكوا مع السلطات العثمانية في وهران عدة سنوات.

ولذلك يمكن القول بأن الطرق كانت عامل وحدة وعامل تفكك في الوقت نفسه.

الاحتلال الفرنسى للجزائر :

وكان دور الجزائر في الدفاع عن الإسلام والمسلمين يتمثل في الجهاد البحري الذي استمر عدة قرون، فقد كان للجزائر العثمانية أسطول ضخم وتطور أسطولها

مع تطور فن الملاحقة فغدا في القرن الحادي عشر الهجري من أحدث وأقوى أساطيل العالم. فقد ساهم أكثر من مرة في حماية فرنسا من الخطر الإسباني والألماني، وغدا ميناء طولون الفرنسي قاعدة صديقة يكثر أسطول الجزائر من استعمالها. ويبلغ من قوة هذا الأسطول أنه حاول مرة حرق مدينة لندن لولا مسارعة الأسطول الهولندي إلى التدخل لنجدة بريطانيا. وساهم هذا الأسطول في دعم الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية. واعترف حاكم الجزائر باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية وعقد معها معاهدة صداقة عام ١٢١٠هـ (١٧٩٥م) ولكن الولايات المتحدة تنكرت للجزائر وكان أول نشاط قام به الأسطول الأمريكي في البحر المتوسط هو قصف الجزائر عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥م).

وأذل الأسطول الجزائري كثيراً من الدول النصرانية وأجبرها على دفع اتاوات منتظمة لولاة الجزائر، وتقديم الهدايا لهم، وعقد ماهدات صداقة معهم، فثارت أوربا لهذا الوضع، وانفت من هذه المهانة، وتكتلت قواها لإرغام الجزائر، على التوقف عن تعرضها لسفن الدول النصرانية، وتدخلت البحرية البريطانية والبحرية الهولندية لإيقاف النشاط الجزائري وذلك بمهاجمة الأسطول الجزائري في عام ١٢٣٠هـ (١٨١٥م)، ثم قام الأسطول الإنجليزي بمفرده بهجوم آخر في عام ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م). وأخيرا تمكن الأسطولان الفرنسي والبريطاني من تحطيم أسطول الجزائر غدراً في (نافارينو) عام ١٢٤٢هـ (١٨٢٧م) وأصبحت سواحل الجزائر مكشوفة لهجمات الأعداء الذين سارعوا إلى اغتنام الفرصة. وكانت بريطانيا أكثر الدول حماسة وتحدياً للجزائر الإسلامية، ولكن فرنسا استطاعت أن تستعيد زعامتها في هذا المضمار بسبب موقعها من البحر المتوسط وحماستها للدول الكاثوليكية تلك الحماسة التي يصورها (كليرمون) وزير حربية ملك فرنسا بقوله:

«لقد أرادت العناية الإلهية أن تثأر حمية جلالتكم للقضاء على ألد أعداء النصرانية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى لويس التقى لكم ينتقم للدين وللإنسانية وربما يسعدنا الحظ لننشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم في النصرانية». وهذا يؤكد أن الصراع بين الجزائر والدول الأوربية كان صراعا دينيا نتج عن التعصب الديني علاوة على رغبة الدول الأوربية في السيطرة على الجزائر لموقعها الممتاز وثرواتها الضخمة.

وبما دفع فرنسا للتصدى للجزائر فقدانها مستعمراتها خلال حروب نابليون ورغبتها في تكوين امبراطوريتها مرة أخرى، والحصول على مستعمرات جديدة، ورحبت دول أوربا باتجاه فرنسا إلى الجزائر من وجهة نظر صليبية. وكانت الضائقة الاقتصادية التي عانتها فرنسا عقب الثورة الفرنسية هي أحد العوامل الهامة في دفع فرنسا إلى احتلال الجزائر. فقد كانت فرنسا تعاني ضائقة اقتصادية ثقيلة، وكانت دول أوربا تقف موقف العداء من فرنسا إبان زحف نابليون على دول أوربا، ونتيجة لذلك مدت فرنسا يدها تطلب العون الاقتصادية من الجزائر، فاشترت الحبوب بأثمان مؤجلة، وكان التجار اليهود يقومون بدور الوساطة في هذه التجارة، وحلت مواعيد السداد، ولكن فرنسا تلكأت في الدفع، مدعيةً حيناً أن أثمان السلع التي قدّر الدين على أساسها مبالغ فيها. وزاعمةً حيناً آخر أن السلطات الفرنسية لم تتسلم البضائع، كما أصمت آذانها أحيانا عن المطالبة ولاذت بالصمت.

ففي يوم عيد الفطر ١٢٤٢هـ (١٨٢٧/٤/٢٧م) ذهب قنصل فرنسا (دوفال) لقصر الداى للتهنئة بهذه المناسبة، فسأله الداى عن السبب في أن ملك فرنسا لم يرد على رسالة الداى التي كان قد أرسلها منذ مدة، فكان رد القنصل جافا غليظا يحمل في ألفاظه ترفع جلالة الملك عن مكاتبة الداي، وقد أثار هذا الردّ داى الجزائر فصرخ في وجه القنصل ملوحاً بالخروج من حضرته، وكان الداى يحمل مروحة بيده ادعى القنصل أنها اصطدمت بوجهه، وعدّت حكومة فرنسا هذه إهانة لها وللشعب الفرنسي، وهددت بالانتقام المسلح، وحاصرت ساحل الجزائر، وبدأت اتصالات لتسوية الموقف بالطرق السلمية ولكن دون جدوى لأن نية فرنسا المسبقة تكمن في احتلال الجزائر، ولأنها اصطنعت الأسباب لتبرير الاحتلال، وشرعت فرنسا بالاستعداد للقتال إلى أن أتمت استعداداتها عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م). وأبحرت ١٠٣ سفن حربية فرنسية، و ٤٠٠ سفينة نقل تحمل أربعين ألف جندى، وثلاثة آلاف مدفع، بقيادة المارشال (بورمون) قاصدة الجزائر. ونزلت هذه القوة على البر، واحتلت (سيدى فرج) ١٢٤٦هـ ، وهزمت القوات الجزائرية بعد خمسة أيام من قتال مستميت. وفي أقل من شهر استسلم الداى، وسلم مدينة الجزائر، وغادر الداى الجزائر إلى الإسكندرية، وتوفي فيها

بعد ثمانية أعوام. ويقال إن الفرنسيين وجدوا في خزانة الجزائر ٢٥ مليون فرنك، ومثلها فضة بالإضافة إلى أشياء ثمينة أخرى.

ولكن احتلال مدينة الجزائر لم يؤد إلى خضوع البلاد جميعها. فلم يكن الداى إلا حاكماً على مقاطعة الجزائر وحدها، وكان على الفرنسيين أن يخضعوا العمالات الأخرى، وهي قسنطينة، ووهران. واستمرت مقاومة (أحمد بك) صاحب قسنطينة إلى عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م)، وأتم الفرنسيون احتلال الولاية عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩). أما (حسن بك) حاكم وهران التركي فقد انتهت مقاومته عام ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م).

سياسة فرنسا في الجزائر:

اتجهت سياسة فرنسا في الجزائر نحو الوصول إلى هدفين هما: فرنسة السكان، وفرنسة الأرض. وفيما يتعلق بفرنسة أرض الجزائر، فقد أعلنت فرنسا أن الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا، وأن المنطقة الشاطئية جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها.
وخضع العلم للسياسة
فأعلن العلماء الجيولوجين الفرنسيون أن الشمال الإفريقي كان منذ القدم متصلاً بالساحل الجنوبي لفرنسا في سلسلة جبال واحدة تصدعت في العصور الجيولوجية القديمة، فكان مضيق جبل طارق، ومضيق مسنا.

وزادت مبالغة الفرنسيين، فأعلن ساستهم أن الشمال الإفريقي ألزم لفنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندى بشمالي فرنسا نفسها.

وبناء على ذلك، فقد عينت فرنسا المقيم العام حاكماً على الجزائر وهو مسؤول عن جميع الإدارات الحكومية التي يدير كل منها فرنسى أيضاً، ويباشر العمل فيها مئات من الموظفين الفرنسيين، وتنقسم الجزائر إلى ثلاث مديريات فرنسية: قسنطينة، والجزائر، ووهران.

أما فيما يتعلق بفرسنة السكان، فقد اتخذت الحكومة الفرنسية طريقتين:ـ
أولهما: محاولة فرنسة الجزائريين.
والثاني: جلب أعداد كبيرة من الأوربيين بصفة عامة، ومن الفرنسيين بصفة خاصة ليستوطنوا الجزائر.

ولم يكن الطريق الأول مثمرا، فلم يقبل السكان العرب أن يكونوا فرنسيين وتبعا لذلك اتجهت فرنسا إلى القضاء على الشعب الجزائرى وتشريده. ولم يستجب للفرنسة من سكان الجزائر إلا غير المسلمين اليهود الذين لايدينون بالولاء لأحدٍ من غير اليهود مهما أظهروا، ومن المعلوم أن بلاد المغرب لايوجد فيها من غير المسلمين إلا يهوداً.

ولجأ الفرنسيون للطريق الثانية وهو استقدام الأوروبيين ونجحوا في ذلك وأصدرت فرنسا قانون الجنسية، وهو يضفى الجنسية على كل مواطن أوربى يولد في الجزائر.

وفي سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) صدر دستور الجزائر الذي أصبح كل جزائرى بمقتضاه مواطناً فرنسياً، ولكن نصت المادة رقم ٣٠ منه على أن تكون هناك فئتان من الجزائريين أولهما فرنسية بحتة وهى تضم الأوروبيين والمستغربين من الزين ينتمون للإسلام وهم الذين قبلوا التعامل وفقا للقوانين الفرنسية حتى في الأحوال الشخصية، وثانيتهما فرنسية محلية وهى تضم المسلمين الذين خضعوا للقوانين الفرنسية محتفظين بالتعامل في الأحوال الشخصية وفقا للقوانين الإسلامية.

وقد أدرك الجزائريون أن هذا طلاء خدّاع، لايقصد به مساواة الجزائرى بالفرنسى، بل يقصد إحكام قبضة المستعمر على البلاد وابعاد المسلمين عن الأحوال الشخصية الإسلامية، فقد كان ممثلو الجزائر بالمجلس النيابي الفرنسي قلة وصلت أحيانا إلى شخص واحد، وكان الفرنسيون المقيمون في الجزائر يعشون في الأحياء الراقية، وتيسر لهم سبل الحياة ولأولادهم سبل التعليم، ولم يكن الجزائريون يعيشون بشىء من ذلك، لذا فإنهم قاوموا الجنسية الفرنسية ولم يقبلوها، إذ شعروا بالتمييز.

وأسفر العداء، وسارت فرنسا في طريقها تحارب، وتبيد وتشرد، وتنشر الجهل والفقر بين الجزائريين، ومن أهم وسائل السياسة الفرنسية في الجزائر:

١ ـ محاربة اللغة العربية والإسلام، فقد عمدت فرنسا إلى القضاء على الوحدة الوطنية الجزائرية بالقضاء على اللغة والدين، فجعلت اللغة الفرنسية لغة الدولة الرسمية، ومنعت العرب من افتتاح مدارس وكتاتيب إلا بأمر المقيم

الفرنسي، كما حرمت المدارس الأهلية العربية، وأغلقتها بحجة ضرورة معرفة مدرسى المدرس للغة الفرنسية.

كما اتجهت سلطات فرنسا إلى مقاومة الإسلام، فقد جاء في تقرير رسمى رفعته لجنة التحقيق الفرنسية إلى الملك شارل العاشر سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م)، يقول التقرير: لقد أهدرت السلطات الفرنسية حقوق الشعب وداست مقداسته، وسبلت حرياته... وضمت السلطات الفرنسية أعيان الأوقاف الدينية إلى مصلحة الأملاك، واعتدت على الملكية الفردية، ودنس نودها المساجد ونبشوا القبور، وانتهكوا حرمات منازل المسلمين... وأعدمت السلطات الفرنسية شيوخاً من الصالحين لأنهم تجرأوا على الشفاطة لمواطنيهم ... وألقت السطات في السجون بعض شيوخ القبائل الأبرياء لأنهم آووا جنوداً مسلمين كانوا قد فروا من المدينة، وأنعمت هذه السلطات بالأوسمة على الخونة الذين باعوا بلادهم باسم المفاوضة ... وبجملة القول: إن السلطات الفرنسية فاقت في تصرفاتها الوحشية جرائم البرابرة الذين ذهب قواتنا لتحمل إليهم نور المدينة، فكيف يجوز لنا بعد ذلك أن نشكو من مقاومة الجزائريين للأحتلال، ولجأت فرنسا إلى تهديم المساجد، وإضعاف القضاء الشرعى، والاستيلاء على أموال الأوقاف، وتعيين الإمام والمفتى الموالي للإدارة الفرنسية.

٢ ـ الابادة والتشريد: عملت فرنسا على إبادة الجزائريين أو تشريدهم منذ ظهرت استحالة فرنستهم، ويلقى هذا التقرير الضوء على هذه السياسة: يقول المؤرخ كريستيان في كتابة إفريقية الفرنسية:

تلقى الجند أمراً من القائد العام الجنرال (روفيفو) بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ٢٦ ذي القعدة من عام ١٢٤٨ (٢٦ نيسان عام ١٨٣٢م) ففاجأ بهم قبيلة (العوفية) عند الفجر، وهى نائمة تحت خيامها، وأمعن في ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه، وهكذا وقع قتل كل نفس حية في القبيلة دون أى تمييز بين جنس وسن. وعند الرجوع من هذه الحملة المحجلة كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم.

ويقول الجنرال شانقاونييى : لقد كانت التسلية الوحدة التي استطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء، هي السماح لهم بغزو القبائل المعادية التي تسكن فيها بين (وادى الحراش) و (بورقيقه). ويقول المؤرخ (دبو زايد) عن ذلـك مانصه: أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الدانمرك. وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عرضت للبيع في سوق (باب عزون)، وكـان من بين الغنـائم أسـاور نسـاء وهى لاتـزال في أيديهن المقطوعة، وأقراط نساء لاتزال تلتصق بها قطع من آذانهن. ثم وزع ثمن كل ذلـك على السفاكين من رجال القطعات الفرنسية. وفي ذلك اليوم أصدرت السلطة أمرها لسكان الجزائر المسلمين، بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم إظهارا لسرورهم بذلك الانتصار.

أما حديث حريق الكهف الذي آوت إليه قبيلة بأسرها. سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) فارة أمام الجنود الفرنسيين، فقد صار مضرب المثل في الخسة والدناءة والوحشية، إذ ماكاد الجنود يكتشفون ذلك الكهف الفسيح حتى وضعـوا أمامه وعلى مداخله أكواما من الحطب والقش، ثم أوقدوا فيها النيران، واستمروا يغذون تلك النار ليلة كاملة وما أن جاء الصباح، ودخل الجند الكهف حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال، مفككة الأوصال ممزقة الأشلاء، تحت أقدام الثيران والحيوانات التي دفعتها غريزتها لطلب النجاة، فداست كل شيء، ثم لقيت حتفها مع الناس.

ومع افظع ماشوهد داخل الكهف، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرنى أحد الثيران وخلفه أمراأته وابنه الصبى، وكأنه كان يدفع عنها الثور الهائج من شدة اللهب، وقد مات الجميع على ذلك الوضع، ولما وصف أحد النواب الفرنسيين هذه الأساليب بالوحشية، أجاب رئيس الحكومة بأن هذه الأعمال قد تكون وحشية لو أن الحرب كانت في أوربا، أما في إفريقية فهذه هي الحرب بعينها. وهناك حالات كثيرة من وسائل الإبادة والتشريد التي ارتكبتها فرنسا حق الشعب - في الجزائرى.

٣ ــ الاستيلاء على مصادر الثروة: استولت السلطة الاستعمارية الفرنسية على

أكثر الأراضى وأخصبها، وأراضى الأوقاف الإسلامية، وقد أقامت فرنسا في هذه المساحات مستعمرات زراعية يمكلها الأوربيون، بينما يملك الجزائريون الأراضي القاحلة، ولم يقف الاستعمار عند الأرض الزراعية، بل تعداها إلى جميع مصادر الثروة، فاستولى على الثروة المعدنية، ومراكز الصناعة، وأسواق التجارة.

٤ ـ حرمان الجزائريين من العلم: استطاعت فرنسا أن تمنع انتشار المدارس الأهلية التي تقوم بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي، وفتحت مدارس فرنسية تهتم باللغة الفرنسية والتاريخ الفرنسي والحضارة الفرنسية، أما اللغة العربية فأهملت كذلك الدين الإسلامي، ومع ذلك فلم تكن المدارس الفرنسية مفتوحة لأبناء الجزائر، وإنما كانت للفرنسيين والأوروبيين، وكان أبناء الجزائر فيها قلة غرباء في ديارهم وتبلغ نسبتهم حوالى ١٠٪، بينما يوجد ١٥٠ ألف طالب أوربى نجد أن الطلاب الجزائريين يبلغون ٢٠ ألفا فقط من أصل ٢٠٠ ألف طالب في سن التعليم. وبالنسبة للثانوي فقد بلغ عدد الطلاب الجزائريين ٥٣٠٠ بينما بلغ عدد التلاميذ الأوروبيين ٣٤٨٦٨، وطلاب الجامعة ٥١٤٦ من بينهم ٥٥٧ طالباً جزائرياً.

وبسبب هذا الحرمان، كان بعض الجزائريين يعلمون أولادهم داخل المنازل وفي سرية تامة. أما الغالبية العظمى فقد شملها الجهل والأمية.

٥ ـ المرأة الجزائرية: اتجه الاستعمار إلى المرأة الجزائرية بهدف خلعها من المجتمع الإسلامي ودفعها نحو المجتمع الغربي بحيث تكون المرأة وسيلة لصهر المجتمع الجزائرى في المجتمع الفرنسي مبتدئا بنزع الحجاب والدعوة إلى السفور وفشلت هذه المحاولات. وحافظ شعب الجزائر على إسلامه وتقاليده وخرج من كفاحه مزهواً مرفوع الرأس، وقاوم مقاومة عنيدة انتهت باستسلام المستعمر.

حركات المقاومة الجزائرية:

ما أن وضع الاستعمار أقدامه في الجزائر حتى هبت ثورة القبائل عنيفة صارمة، وكان يقودها محى الدين الحسني أحد زعماء الأشراف، فظل يحارب سنتين ثم تخلى عن القيادة سنة ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) لابنه البطل الأمير عبدالقادر الذي لقب

نفسه بالجزائرى لتكون ثورته تمثل الجزائر كلها، ولمصلحة الشعب الجزائرى كله، والتف حول الأمير عبدالقادر آلاف من الشبان، وأيدته القبائل تأييداً تاماً، وأعلن الجهاد على المستعمرين الكفرة، فقد كان الأمير عضواً في الطريقة الدرقاوية الصوفية مما جعل كفاحة يتسم بالجهاد، وبفضل نضال الأمير ورجاله لم يستطع الأستعمار أن يتعمق في داخل البلاد؛ وظل المستعمر على الساحل مهدداً بهجمات القوى الوطنية التي تعمل بصدق وإيمان لتحرير البلاد، وسيطر الأمير عبدالقادر وقواته على ثلثى أرض - الجزائر، فلما رأت فرنسا قوة الأمير عبدالقادر، لجأت إلى سياسة المفاوضات فعقدت معاهدة معه عام ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) تخلى الفرنسيون بموجبها عن ولاية وهران باستثناء وهران نفسها. وحاول الفرنسيون بعد عام اغتنام فرصة ثورة القبائل على الأمير واستنجادها بهم، فحاولوا إخضاعه ولكنه هزمهم في معركة نهر (المقطع) في عام ١٢٥١هـ (١٨٣٥م). وتمكن القائد الجديد المارشال (كلوزل) من احتلال المعسكر، ولكنه عقد مع الأمير صلحاً مماثلاً للصلح الأول في عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م). ودام الصلح الجديد لمدة سنتين. ونشب القتال مرة أخرى بين الطرفين في عام ١٢٥٥هـ (١٨٩٣م). واضطر الأمير إلى الفرار إلى مراكش للاستنجاد بسلطانها الذي حاول مساعدة الأمير، ولكن الفرنسيين هزموا سلطان مراكش في عام ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م)، وأجبروه على توقيع صلح تعهد بموجبه بإجلاء الأمير عبدالقادر.

وانقض عبدالقادر على الفرنسيين سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٦م) ولكنه اضطر إلى الاستسلام في عام ١٢٦١هـ (١٨٣٧م) لانقطاع المساعدات عنه. وبقى أسيراً إلى عام ١٣٠١هـ (١٨٨٣م). وخلف ولدين هما محى الدين ومحمد باشا وقد ذهب الأول إلى مراكش عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) واشترك في ثورة المقراني دون علم أبيه.

وبعد استسلام عبدالقادر أصدرت فرنسا مرسوماً أعلنت بموجبه أن الجزائر جزء لايتجزأ من الأرض الفرنسية. ولكن الجزائر لم تستسلم، ورفضت الانضمام والدمج، وحمل ثقل النضال في الفترة الأولى رجال القبائل، واضطر الجنرال (راندون) إلى شن حملات انتقامية عنيفة ضد القبائل الصغرى والكبرى. ولم تهدأ القبائل، اذ ثار بعد ذلك (بنوسناسن) عام ١٢٧٦هـ (١٨٦٠م) و (أولاد سيدى

الشيخ) جنوبى وهران ١٢٨١-١٢٨٤هـ والمقرانى ١٢٨٨-١٢٨٩هـ و (أولاد سيدى الشيخ) و (أولاد أبى عمامة) ١٢٩٩هـ ،وبنو زيد بقيادة الحاج سعيد بن عبداللطيف ١٣٣٤-١٣٤٠هـ .

ولعل أهم هذه الثورات محمد المقراني ويؤيده المرابط محمد حداد، وقد انضم إليه مئة ألف مقاتل، استطاع المقراني أن يكتسح بهم قوات فرنسا، وأن يستولي على منطقة كبيرة من الجزائر حتى أصبح غير بعيد عن العاصمة. وثار المقراني نتيجة قوانين الجنسية الفرنسية التي منحت اليهود الجزائريين وعددهم حوالى ٠ئة ألف الجنسية الفرنسية، وهاجم سوق (أهراس) و (الملينة) واحتل الثوار أو رغله. ودارت ٣٤٠ معركة بين المجاهدين وقوات الاستعمار واستشهد ستون ألف جزائري، وقتل عشرون ألف فرنسى. وارتكب الفرنسيون شتى أنواع الفظائع. وشملت الثورة ولاية (قسنطينة)، ولكن لم تتأثر بها (وهران). واستشهد المقرانى في ١٢٨٩هـ (١٨٧٢م)، وتولى أخوه مكانه حتى سقط أسيرا في مطلع العام التالي. فانتهت الثورة. وأعدمت السلطات ستة آلاف شخص وصادرت خمسة ملايين دونم، أرض وأبعدت إلى جزر كالدونيا محمد حداد وولديه وأبو مزراق.

واتجه نضال الجزائريين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري اتجاها سياسيا كان أبرز من النضال العسكري. فقد تأسس عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) لجنةٌ وطنيةٌ برئاسة المحامى أبى دربة وعضوية الصحفى صديق دوران والمالى الحاج عمار، سعت لتحقيق الجامعة الإسلامية والارتباط بالحركات التحررية القائمة في العالم الإسلامي. وبعد الحرب العالمية الأولى شكل وفد الضباط الجزائريين برئاسة الأمير خالد بن الهاشمي بن عبدالقادر وفداً سافر إلى فرنسا ليطالب مؤتمر الصلح بإنصاف الجزائر، ومنحها الاستقلال بموجب حق تقرير المصير، كما قدم الوفد مذكرة أخرى إلى الرئيس الأمريكي ولسن. وأسس خالد كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين التي كان من أهدافها الحصول على كافة الحقوق للجزائريين، وإيقاف الهجرة وتحسين الأحوال الاجتماعية. وأصدروا جريدة الإقدام. وذهب خالد إلى باريس عام ١٣٤٢هـ (١٩٤٤م) ليؤسس مع الحاج عبدالقادر الجزائرى وعلى الحمامى المراكشى لجنة الدفاع عن شمالى إفريقية التي أصدرت جريدة الإقدام. واضطر خالد إلى مغادرة بلاده والذهاب إلى دمشق

حيث بقى يدعو لقضية الشمال الإفريقى. وتوفى خالد في دمشق عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م).

واعتبر الشيوعيون الفرنسيون الدعوة لتحرير الجزائر وتونس حماقة خطيرة على الرغم من أن الكومنترن كان قد طالب في ١٣٤١هـ بتحرير الجزائر. واظهر الشيوعيون الفرنسيون فى الجزائر أنهم لايقلون تمسكا بفرنسة الجزائر عن غيرهم من الفرنسيين. وهكذا كان الشيوعيون في فرنسا ومستعمراتها من دعاة تثبيت دعائم الإمبراطورية الفرنسية.

واتخذ النضال في الجزائر سبيلاً اكثر شعبية بعد فشل حركة الأمير خالد. فقد أسس (مصالى الحاج) منظمة نجمة شمالي إفريقية عام ١٣٥٤هـ . وأعلنت الجمعية ان غايتها هي الدفاع عن المصالح المادية والأدبية والاجتماعية للمسلمين المغاربة، وتربية أعضاء الجماعة. وانضم إليها حتى عام ١٣٤٨هـ خمسة آلاف عضو. واستطاعت أن تعقد اجتماعا برئاسة (مصالى الحاج)، وطالبت بتحسين أحوال الجزائريين، وجعل التعليم باللغة العربية اجباريا. ولكن فرنسا ضاقت ذرعاً بهذه المطالب فحلّت الجمعية. ومع ذلك واصلت الجمعية نشاطها سرا باسم حركة النجمة المجيدة. وأصدر مصالى الحاج في فرنسا عام ١٣٤٩هـ جريدة (الأمة) التي اسمعت البلاد صوت الجمعية. ورفعت الجمعية مذكرة لعصبة الأمم شرحت فيها فظائع فرنسا في الجزائر. وتمكنت النجمة المجيدة من عقد مؤتمرها الثاني عام ١٣٥٢هـ أعلنت فيه أن مطالب البلاد هي:

١ ــ استقلال الجزائر.
٢ ــ جلاء القوات الأجنبية.
٣ ــ تأسيس جيش جزائرى.
٤ ــ حرية الصحافة والاجتماع.
٥ ــ حق الجزائريين بالوظائف.
٦ ــ جعل اللغة العربية لغة رسمية.

ثارت ثائرة الفرنسيين لهذه المطالب، واعتقلت السلطات الفرنسية الحاكمة زعماء النجمة المجيدة بدعوى تنظيم جمعية ممنوعة، ودعوتهم الجنود الجزائريين للثورة. ودخل السجن (مصالى الحاج) و (أيماش عمار) و (بلقاسم). ولكن الاعتقال لم يفت في عضد الحركة التي واصلت نشاطها باسم الاتحاد الوطنى لمسلمى الشمال الإفريقى. ونجحت الحركة في حمل السطات الفرنسية على إخلاء سبيل المعتقلين.

وعاد الزعماء للنضال مرة ثانية متحررين من النفوذ الشيوعى واليسارى ليكافحوا في جو وطنى عربى إسلامي، فعادت السلطات الفرنسية إلى اعتقال (بلقاسم) و (ايماش) وفر (مصالى الحاج) إلى جنيف ليعمل مع الأمير (شكيب أرسلان).

ونشأت في الجزائر عام ١٣٤٦ حركة من نوع جديد هي جمعية العلماء المسلمين التي أسسها (عبدالحميد بن باديس) تلميذ جامع الزيتونة والدعوات ا لسلفية، وأصدر بن باديس جريدة (الشهاب) الأسبوعية ثم جعلها شهرية. وافتتحت الجمعية عدداً من المدارس، وأرسلت البعثات إلى الجامعات الإسلامية في تونس، والمغرب، ومصر وإلى مدارس الشام، والعراق. وكان شعار الجمعية: شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتمى. وطالبت الجمعية في مؤتمرها التاسع بالاعتراف باللغة العربية كلغة وطنية، ومنح حرية الدين والعبادة، وإعادة الأوقاف إلى الإدارة الإسلامية، وتنظيم المحاكم الشرعية. كانت دعوة دينية سلفية تقاوم الاندماج، وتحض على المحافظة على الصبغة العربية الإسلامية للجزائر، وكان ابن باديس مسالما مهادنا للمستعمر. وقويت الحركة بعد عودة الشيخ (البشير الإبراهيمى) والشيخ (الطيب العقبى) من الشرق. وازداد تطرق الجمعية بعد أن تخلصت من المؤسس نفسه الذي توفى عام ١٣٥٨هـ ، وكان مسالما سياسياً كما تخلصت من (العقبى) بعد عام ١٣٥٦ الذي استقال لأن الجمعية رفضت تجديد الولاء لفرنسا. وبزعامة البشير الإبراهيمي أصبحت الجمعية أكثر تعاونا مع المشرق العربى.

وبرز نشاط فئة جديدة عرفت بالمنتخبين. وهم النخبة المسلمة التي تخرجت من المدارس والمعاهد الفرنسية. وتفرنست ثقافةً، وتفكيراً، وسلوكاً، وانقطعت صلتها باللغة العربية وغالبا ما جهلتها. إلا أنها ترتبط بالعاطفة الإسلامية. وكان همها الأول هو حل مشكلة علاقاتها مع فرنسا - فهم يريدون مساواةً في الحقوق مع الاحتفاظ باحوالهم المدنية وبدينهم، وطالب بعضهم، لاسيما الدكتور (الزناتى) في جريدته صوت الأهالى، بالتحسن الكلى الاجبارى بدون قيد أو شرط، والغاء القوانين الجائرة، وجعل العربية لغة رسمية، وتطهير الوظائف، وإتاحة الفرصة لانتخاب نواب جزائريين. وشكلوا اتحاد المنتخبين برئاسة الدكتور (ابن جلون) وضم (الاخضرى) و (فرحات عباس) و (سعدان). وتبنوا مشروع

الـفـرنـسـي (مـوريس فيولـيت) حاكم الجـزائـر الســابق ١٣٤٤-١٣٤٦هـ (١٩٢٦-١٩٢٨م) الـذي اقـترح منـح الجـزائـريين حق التصويت دوما إخلالا بأحوالهم الشخصية.

وفي عام ١٣٥٥هـ انعقد المؤتمر الإسلامي في الجزائر، وألقى (مصالى الحاج) خطابا فيه أعلن أن المطلب الأساسي هو الاستقلال. ولكن الحكومة الفرنسية الاشـتراكية حاولت إيجـاد شرح في الحـركة الوطنية الجزائرية بسيطرة الشيوعيين الجزائريين عليها إلا أنها لم تفلح.

ولم ييأس (مصالى الحاج) بل ألف حزبا جديدا سماه حزب الشعب الجزائري ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) وأقام هذا الحزب استعراضاً رفع فيه العلم الجزائرى لأول مرة وأعلن شعاراته: العربية لغتنا، والإسلام ديننا، والأرض للفلاح. ودعا إلى إقامة مجلس نيابي جزائري، وإلى مقاومة الامتزاج والاستعمار. واعتقل (مصالى الحاج) ولكن الحزب واصل نشاطه، وعقد في مطلع عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) مؤتمـره الثـاني في باريس. وانتخب (مصـالى الحـاج) وهـو معتقل نائباً فألغت السلطات الانتخاب. ولكن عندما نشبت الحرب عام ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) أعلن مصالى الحاج حل الجزب، أوقفت إصدار جريدتى، المجلس النيابي الجزائري، والأمة. ومع ذلك لم يعفه هذا من صدور حكم عليه عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) بالسجن ١٦ سنة، وبالنفى ٢٠ سنة، وبالتجريد من الأملاك.

وتـأسَس في منتصف عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) التجمع الفرنسي الإسلامي، وانضـم إلى التجمـع رابـطة العلماء، والنقـابيون، والمحاربون القدماء، وحزب الشعب، وممثلون أورروبيون للنقـابـات والحـزب الاشـتراكي الفرنسي، والحزب الشيوعى الفرنسي، بينما رفض فرحات عباس الانضمام إليهم. ودعا التجمع إلى تحقيق مطالب الجزائر بتوثيق الصلات مع التجمع الشعبى الفرنسي. أما فرحات فقد صحا من تفكيره القديم وبدأ، ككثيرين غيره بالتخلي عن فكرة الامتزاج والاندماج وأسس في العام نفسه حزب الاتحاد الشعبى الجزائرى للفوز بحقوق الإنسان والمواطن ودعا إلى العمل الشعبي لتحقيق أهدافه. وألف فرحات كتاب الشبيبة الجزائرية، وتزعم حركة حزب البيان.

ولم يتغير الموقف السياسي بعد دخول قوات الحلفاء في أواخر عام ١٣٦١هـ

(١٩٤٢م). فقد بقى المعتقلون في السجون. وواصل حزب الشعب نشاطه بزعامة الكتور الأمين. ثم ألف أعضاء حزب الشعب عام ١٣٦٥هـ بعد عودة مصالى الحاج من منفاه، حزب انتصار الحريات الديمقراطية، وهو حزب نيابي لاينادى بالاستقلال التام ولكنه دعا في بيانه المطبوع، وفي مؤتمرة الثاني في ١٣٧٢هـ (١٩٥١م) إلى الغاء النظام الاستعماري، وتأسيس جمهورية ديمقراطية اشتراكية، ومجلس تأسيسى ذي سيادة بالانتخاب العام.

وأسس فرحات عباس حزب (البيان). ثم حزب (أصدقاء البيان الجزائري). وقدم الحزب في ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) مطالبه لدول الحلفاء، وهي جمهورية جزائرية داخل الاتحاد الفرنسي. فأبعدت السلطات الفرنسية (عباس) و (السايح)، ولكنهذا لم يفت في عضد الحزب. وأضرب المثلون الجزائريون في ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) فاعتقلوا، وعزلوا. وصدر في ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) قانون المساواة الذي اعتبر الجزائريين مواطنين فرنسيين، ولكن ذلك لم يرض وطني ما بعد الحرب. وألف البيان مع مصالى الحاج في مطلع عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) جبهةً واحدةً.

بطش الفرنسيون بكل القوى المناضلة، وأوقعوا بالمنادين بالاستقلال ضروباً من العسف، كان منها القتل، والنفى، والسجن، وجاء ١٣٦٤هـ (يوم ٨ أيار ١٩٤٥م) إبان احتفال الحلفاء بالانتصار على المحور، فخرج الجزائريون يهتفون بمطالبهم في الحرية، والاستقلال في مظاهرة كبيرة، فاعتدى عليهم الجنود الفرنسيون، كما اعتدوا عى غيرهم من الآمنين، وحدثت مذبحة رهيبة شملت الرجال والنساء والأطفال، وكان الدم يجرى في الشوارع أحمر قانيا، ودمرت قرى كاملةً، وحلت كل الهيئات، وزج بانصارها في السجون، ودفن بعض المثقفين أحياء، وبلغ عدد الشهداء ٤٥ ألف شهيد.

اتجه الشباب الجزائري إلى الكفاح المسلح بعد أن رأوا عقم المحاولات السلمية. واستمرار فرنسا في بطشها واضطهادها، وشكلت تنظيمات سرية منذ عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) تمخضت في النهاية عن ظهور جبهة تحرير الوطن الجزائرى، وقيام الثورة الجزائرية الكبرى في عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م).

وفي مطلع شهر صفر ١٣٧٤هـ (ايلول ١٩٥٤م) تفجرت ثورة الجزائر الكبرى، وكانت ثورة من نوع جديد أعدت لها بالتدريب العسكرى وتكوين

القوات الجبهة فتية هي: جبهة التحرير الوطني «وسمى جيشها: بجيش التحرير الجزائرى». وما أن ظهرت جبهة التحرير الوطنى الجزائرية حتى انضمت إليها معظم الأحزاب السياسية بعد أن حلت نفسها، ولم يبق خارج هذه الجبهة إلا جماعة مصالى الحاج الذين أنشأوا جيشا باسم الحركة الوطنية الجزائرية.

وقد ظن الفرنسيون أن تلك الحركة ذات نطاق محدود. لكن الأمور تكشفت بعد نشوب الهجمات القوية شمال قسنطينة في أول يوم من عام ١٣٧٥هـ (١٩ آب ١٩٥٥م). وحينذاك أدرك الفرنسيون أنهم أمام وضع جديد. تسندة ثورة عسكرية مدربة، وأمام شعب استعد كثير من أفراده للكفاح المسلح، بخاصة بعد أن اشتركوا كجنود مرتزقة مع فرنسا في حرب الهند الصينية، وتدربوا على حرب العصابات. حاول الفرنسيون أن يلجأوا إلى أساليبهم القديمة التي ماكانوا يتورعون فيها عن قتل الألوف والعمل على إبادة الشعب إن اقتضى الأمر ذلك. أما بالنسبة للسياسيين فقد رأي الكثير منهم أمام نجاح ضربات جبهة التحرير أن يتخلوا عن سياستهم التقليدية، وقد أخلص بعضهم في تخليه وانضمامه إلى الجبهة الجديدة، وربما كان هناك عدد منهم رأي أن أطماعه تكون أقرب إلى التحقيق بانضمامه إلى هذه القوة الصاعدة.

وحينما جاء عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) كان رئيس الوزارة الفرنسية (غى موليه) قد عين الجنرال (كاترو) وزيراً مقيماً في الجزائر، ثم ذهب لزيارة الجزائر، فقوبل من الفرنسيين المستوطنين بمظاهرات ومطالب أساسها الشك في ولأء (كاترو) بفكرة التشدد في القضية الجزائرية فقد خيل إليهم أنه كان متحرراً في نظرته إلى هذه القضية. وقد قدم لهم (غى موليه) الوعود على حساب الشعب الجزائري وغير الوزير المقيم فعين مكانه «لاكوست» وزوده بصلاحيات واسعة لإخماد الثورة الجزائرية. ولم تكن عند (لاكوست) وسيلة إلى ذلك الا الاساليب العسكرية. وهنا تضخم عدد الجيش الفرنسي في الجزائر حتى بلغ ما يقرب من نصف مليون. وكانت فرنسا تستشعر خزياً من جراء هزيمتها في الهند الصينية. وشعر العسكريون أنهم لايريدون أن تقع بهم هزيمة مماثلة في الجزائر. وفشل كل محاولات فرنسا في القضاء على الثورة.

ولم يفد هذا الجيش الجرار في القضاء على الثورة، فتلفتت فرنسا تحاول القضاء

على ما اعتقدته أنه من أسبابها، خارج حدود الجزائر، فوضعت الأسلاك المكهربة بين الجزائر وتونس من ناحية، وبينها وبين المغرب من ناحية أخرى. وكان الخط بين الجزائر وتونس يحرسه أربعون ألف جندي، ويصونه ٢٥٠٠ عامل فني، ثم دبرت مع بريطانيا وإسرائيل مؤامرة السويس الشهيرة في عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، محاولة بذلك القضاء على النظام القائم بمصر الذي تظنه أنه يساند الجزائر بالسلاح والدعاية. لكن كل هذه الاجراءات لم تنجح في إطفاء لهيب الثورة الجزائرية التي أثبتت قوتها وارتباطها بجذور شعبية واسعة وذلك بفضل عملياتها الهجومية الواسعة الكثيرة التي لم يستطع الفرنسيون بشتى وسائل القمع أن يقضوا عليها، ومن هذه المعارك: معركة الجرف الثانية ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، ومعركة كاتينا، ومعركة جبل بوزقرة، ومعارك جبل عمور ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، وشاع أمر الثورة الجزائرية في جميع أنحاء العالم، ووجدت المؤيدين في كل قطر حتى في فرنسا نفسها التي ثار بعض مفكريها على الفظائع التي كانت ترتكب ضد الوطنيين الجزائريين.

وارتكبت فرنسا حماقات أخرى منها، اختطاف (أحمد بن بلا) ورفاقه وهم مسافرون بالطائرة من المغرب الى تونس بعد أن ضمنت عدم التعرض لهم. فباعدت بذلك بين أي امكانية للتباحث لإيجاد حل ما، وكان سلطان المغرب حينذاك يحاول التوسط بين الثورة الجزائرية وفرنسا.

وفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) بدأت فرنسا تقدم المقترحات لحل القضية الجزائرية، ولكنها كلها تستبعد الاستقلال عن فرنسا. فقد اقترح (غى موليه) اجراء انتخابات تحت إشراف دولي، ثم اقترحت فرنسا مقترحات أخرى ترمى إلى جعل الجزائر حكومة يربطها بفرنسا اتحاد وهذا هو اقتراح (بورج مانورى)، لكن هذا الاقتراح لم يكن يتضمن أية بارقة للاستقلال، فمقترحات حكومة (غى موليه) عرضت تمثيل الجزائر في الجمعية الوطنية الفرنسية لا في مجلس نيابي جزائرى. كما أن مشروع (بورج مانورى) ينص على إنشاء ولايات متحدة في الجزائر تكون من ضمن الجمهورية الفرنسية.

والخلاصة أن الموقف في عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) كان قد أصبح واضحا للعيان وللناقد المحايد وإن لم يتضح للمسؤولين الفرنسيين، فقد تبين أن نصف

مليون جنـدي فرنسي قد عجـزوا عن اخماد الثورة، وأن الروح المعنوية للثوار الجزائريين كانت عالية، فلم يكن أحد منهم يرى إمكاناً أو مكاناً لقاء فرنسا في البلاد. إن فرنسا كانت على العكس تبدى تمسكاً وتشدداً في حالة ميئوس منها، ومما زاد في هذا التمسك ظهور النفط بكميات كبيرة في الجزائر.

وكان عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) عاما حاسماً في توجيه الأحداث في الجزائر، فقد صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٥/رمضان ١٣٧٧هـ (١٠ شباط ١٩٥٨م) لايجاد حلٍ عادلٍ في الجزائر. وكانت الدول العربية قد قامت بعدة محاولات لنقل قضية الجزائر إلى الميدان الدولي منذ عام ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م)، وكانت فرنسا تعارض في ذلك، وأخيراً نجحت الدول العربية في نقل القضية الجـزائرية إلى هيئة الأمم المتحدة. وبدأ الكونغرس الأمريكي يهتم بالموضوع، وحث السنتـور (الرئيس فيما بعد) جون كيندى على إجراء المفاوضات وهاجم أساليب القمع الفرنسية.

وقد خسر جيش التحرير في هذا العام كثيراً من رجاله. وقد عينت فرنسا الجنرال (شال) في نهاية هذا العام قائداً عسكرياً، وكان قاسيا في القضاء على كل جيوب المقاومة الظاهرة. لكن فرنسا انزلقت إلى حماقة أكثر، وذلك بضربها القرية التونسية، ساقية سيدى يوسف، الواقعة على حدود الجزائر بالقنابل، وفي هذا العام بالذات أنشئت حكومة الجزائر المؤقتة بالقاهرة في ٢٠ صفر ١٣٧٨ (١٩ أيلول ١٩٥٨م)، وبدأت هذه الحكومة تلقى تأييداً سياسياً عربياً، وإسلامياً، ودولياً. وفي ذلك العام نفسه اعترفت اللجنة السياسية للأمم المتحدة بحق الجزائر في الاستقلال، لكن الجمعية العامة رفضت إقرار توجيه اللجنة. وبعد عامين عادت الجمعية العامة فأيدت هذه التوصية ذاتها في ١٧ ربيع الأول ١٣٨٠هـ (١٩ كانون أول عام ١٩٦٠م)، بأغلبية ١٦٣ صوتا ومعارضة ٨ وامتناع ٢٧ عن التصويت.

كما شهـد عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) سقـوط الجمهـورية الـرابعة في فرنسا، ووصول الزعيم الفرنسي ديغول إلى الحكم. وقد بدأ ديغول سياسته الجزائرية في إعلانه أن الجزائر فرنسية وبأن الجزائريين متساوون من كافة الوجوه. يعنى بذلك المساواة بين المستوطنين والمسلمين. وزار ديغول الجزائر، وأعلن في قسنطينة خطة

للإسراع بتطوير الجزائر من كافة النواحي وبخاصة الناحية الاقتصادية. وأذاع خطة خمسية للتصنيع، وفي العام نفسه عرض على الثوار (سلام الشجعان) ويعني إجراء تسوية سلمية مشرفة لكن الثوار لم يستجيبوا لهذا النداء. وكان المستوطنون وكذلك كان الجيش الفرنسي يتوقع أن يكون في وصول ديغول إلى الحكم تقوية لمراكزهم في مقاومة الثورة الجزائرية، فقد كان ديغول بطل فرنسا الذي انقذها خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الذي اعتبر معقد الأمل في انقاذ الموقف في الجزائر، لكنه فاجأهم في ١٠ صفر ١٣٧٩هـ (١٦ أيلول ١٩٥٩م) بخطابة الشهير الذي عرض فيه على الجزائريين أحد حلول ثلاثة: الاندماج بفرنسا، أو الاستقلال التام، أو الاستقلال مع الارتباط بفرنسا. وقد أدى هذا إلى ثورة المستوطنين في الجزائر في محاولة لقلبه في أوائل عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وإلى عصيان عسكرى قاده بعض جنرالات فرنسا وعلى رأسهم الجنرال (شال) و (سالان) وغيرهما. وقد نجح ديغول في القضاء على هذا العصيان إذ رفض الجيش الاستجابة لهؤلاء القادة الثوار، وتبين أن هذا الجيش لم يكن متجها وراء فكرة جعل الجزائر فرنسية. وكانت شخصية ديغول السياسية والعسكرية أيضا هي التي ساعدت على إنجاح فكرة التفاوض مع الثورة الجزائرية وعقد الصلح معها.

ومرت السنون وبلغ شهداء الجزائر مليوناً أو أكثر من مليون حتى سميت بلد المليون شهيد، وروّى الأبطال أرضهم الحبيبة بالدماء، واختلطت أشلاء القتلى بالتراب الجزائرى، وأصبح واضحا للعالم كله ألّا مناص من هزيمة فرنسا، بعد أن شارك في ثورة الجزائر رجالها ونساؤها وأطفالها وصهرتهم الثورة في بوتقتها.

وإزاء تصاعد الثورة الجزائرية الكبرى، وعجز فرنسا عن إخمادها إضافة إلى انهيار اقتصادية من الحرب وكثرة قتلاها، ومناداة الشعب الفرنسي بالجلاء عن الجزائر، لهذه الأسباب كلها لجأت فرنسا إلى المفاوضات.

وفي أواخر ١٣٨١هـ جرت محادثات بين ٦ - ١٧ رمضان (١٠-٢١ شباط ١٩٦٢م) بين الجانبين الفرنسى والجزائرى في بلدة (إيفيان) على الحدود السويسرية الفرنسية، انتهى إلى تحقيق الاتفاق بين فرنسا والثورة الجزائرية. وقد نصت هذه الاتفاقية على وقف القتال، واطلاق سراح الزعماء المعتقلين، وحق الجزائر في الاستقلال، وتقرير المصير على أن تتولى السلطة هيئة من ١٢ شخصاً خلال

المرحلة الانتقالية، ثم تم بعد ذلك استفتاء الجزائريين الذي أسفر عن رغبة أكيدة في الاستقلال. وقد أعلن استقلال البلاد في ٢٥ محرم ١٣٨٢هـ (٢٧ حزيران ١٩٦٢م)، واعترفت الدول به. واختير الزعيم (أحمد بن بيلا) رئيساً للجمهورية.

واجهت الجزائر بعد الاستقلال مشكلات كثيرة منها. مشكلة المستوطنين الذين قاوموا اتفاقية الصلح، وكذلك المنظمات السرية الفرنسية، ولكن تعاون السلطات الفرنسية والجزائريين في مقاومة هؤلاء المارقين، أنهت هذه المشكلة، واضطرتهم إلى الهجرة من الجزائر عائدين إلى فرنسا. ومن المشكلات الأخرى تكوين الجيش، وتعريب التعليم، وحل مشكلة الآلاف من اليتامى أبناء المليون شهيد. كذلك بناء الدولة بمؤسساتها المختلفة في جميع المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. وقد استطاعت الدولة بمعونة الدول العربية والصديقة من أن تحل مشكلاتها، كما أعلن (أحمد بن بيلا) عن تطبيق القوانين الاشتراكية واستيلاء الدولة على ما يسمى بالأملاك الشاغرة، وتطبيق قانون الاصلاح الزراعى. وفي عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) أقر الشعب الجزائري أول دستور وهو الذي تم بموجبه انتخاب أحمد بن بيلا رئيسا للجمهورية.

وواجهت الحكومة الجزائرية مشكلة الحدود بين المغرب والجزائر وجرت معارك بين الدولتين في عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، وسقط قتلى من الجانبين، وتوقفت المعارك إثر توسط الإخوة العرب بينهم.

وفي عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) حدث تغيير في قيادة الجزائر، فقد تألف مجلس ثورة برئاسة العقيد (هوارى بومدين)، وقرر هذا المجلس عزل أحمد بن بيلا، والقبض عليه بتهمة الإسراف في بعض النواحي، واستخدام أموال الدولة في غير وجوهها، والارتجال، وعدم التخطيط. وتولى مجلس الثورة الجزائري حكم البلاد برئاسة الرئيس هوارى بومدين.

وقد حققت الجزائر في عهدها الجديد منجزات ضخمة في المجال الداخلي حققت للشعب الخير والاطمئنان والرفاهية. كما شاركت الجزائر في المجال العربي، وحملت مسؤولياتها بجدارة وثقة، وشاركت في معارك الشرف والبطولة مع شقيقاتها العربيات ضد دولة اليهود في عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م)، وكانت سياستهاتقوم على جمع الشمل وتقوية العزائم وقهر الصعاب.

وفي المجال الدول أصبح صوت الجزائر مجلجلا، جريئاً يحسب حسابه، ويخطب وده، وسارت سياسة الجزائر في طريقها تعمل على تحرير الدول التي تأخر تحريرها.

وفي أواخر عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) فقدت الجزائر رئيسها هوارى بومدين، إثر مرض مفاجىء ألم به، فانتخبت جبهة التحرير الوطني الجزائرى الرئيس (الشاذلي بن جديد) الذي وعد بأن يسير على نهج سلفه الراحل. ومازالت الجزائر تحرز التقدم تلو الآخر في شتى المجالات.

وأخذت الحركة الإسلامية دورها، حيث عرف الشعب في الجزائر أنه لولا الإسلام لذابت شخصية الأمة، فانخرط الناس في صفوف الحركة الإسلامية التي برزت بقوة على الساحة، واكتحت السامة بانتخابات البلديات، وكانت الانتخابات النيابية على الأبواب فتأجلت، وافتعلت الحكومة الأحداث وقبضت على زعماء الحركة بدافع من دول أوربا التي أثارها عودة الإسلام إلى المغرب بعد استعمار طويل، وعمل تنصيري واسع، ودفعت المساعدات من دول أوربا النصرانية للقضاء على الحركة الإسلامية، وهدد رئيس الجمهورية الفرنسية (ميتران) بغزو الجزائر ان نجحت الحركة الإسلامية، كما غزت الولايات المتحدة العراق، حيث لاتريد فرنسا أن يذهب عملها سدى بعد استعمار أكثر من مائة وثلاثين عاماً، وأن تظهر أمام دول أوربا والكنيسة وقد أخفقت في تقويض دعائم الإسلام في مستعمراتها.

الفصل السادس
المملكة المغربية (مراكش)

حكم مراكش خلال القرون السبعة الماضية ثلاث أسر هي:

١ ــ بنو مرين من عرب زناتة ٨٧٤ـ٩٥٧هـ (١٢٧٥ـ١٥٥٠م).

٢ ــ بنو سعد العلويون الحسنيون (الأشراف) ٩٥٧ - ١٠٦١هـ (١٥٥٠ - ١٦٥٠م).

تولى الحكم من هذه الأسرة ستة سلاطين تمكنوا من حماية مراكش من البرتغاليين كما لم يدخلها العثمانيون، ولكنهم لم يستطيعوا التدخل لحماية المسلمين في إسبانيا الذين تعرضوا لاضطهاد شديد اضطر أكثر من نصف مليون منهم على الهجرة الى مراكش حتى عام ١٠١٩هـ (١٦١٠م).

٣ ــ العائلة العلوية (الأشراف) ١٠٥٠هـ / ١٦٤١ وحتى الآن:

ثار أبو حسن علي الشريف على السعديين، وتمكّن حفيده الرشيد بن علي المؤيد من القضاء على الأسرة السعدية بعد نضال استمر ربع قرن. وحكم من سلاطين هذه العائلة حتى يومنا هذا سبعة عشر سلطانا عاصر أربعة منهم عهد الحماية.

وجاء بعد رشيد أخوه إسماعيل (١٠٨٢هـ /١٦٧٢م - ١١٣٩هـ /١٧٢٩م) أشهر ملوك العائلة وأطولهم حكماً. واستعاد إسماعيل عام ١٠٩٦هـ (١٦٨٤) طنجة من الإنكليز الذين كانوا قد أخذوها مهرا (هدية) لزوجة ملكهم كاترينا البرتغالية عام ١٠٧٢هـ (١٦٦١م) بعد أن بقيت بيد البرتغاليين والإنكليز منذ عام ٨١٨هـ /١٤٦٦م. ولكنه فشل في استعادة سبتة التي احتلها الإسبان منذ عام ٩٨٨هـ (١٥٨٠م) ولا تزال إلى الآن بأيدى الإسبان. وتبادل اسماعيل السفارات

مع ملوك فرنسا، وإسبانيا، وحكام هولندا. ولكن بعد وفاته انتشرت الفتن والفوضى، ونشبت حرب أهلية بين أولاده محمد، وعبدالملك، وعبدالله إلى أن استتب الأمر للأخير. وازداد التغلغل الأوروبي في عهد محمد بن عبدالله بن إسماعيل (١١٧١هـ /١٧٥٧م - ١٢٠٤هـ/١٧٩٢م) الذي جعل طنجة مركزا للأوروبيين، كما تمركزت بريطانيا في جبل طارق عام ١١٩٥هـ /١٧٨٣م منتزعة الحصن من الإسبان. ومنح السلطان عبدالرحمن بن سليمان بن محمد ١٢٣٨-١٢٧٦هـ (١٨٢٢-١٨٥٩) امتيازات لرعايا الولايات المتحدة الأمريكية في بلاده عام ١٢٥٢هـ (١٨٣٦م)، وعقد معاهدة مماثلة مع بريطانيا عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦). وفي عهده ازداد الخطر الذي يهدد مراكش بعد أن تم للفرنسيين احتلال الجزائر.

أما علاقة الأشراف بالعثمانيين فكان يسودها التوتر أحيانا، والتعاون أحيانا أخرى، فكانا الأشراف يتعاونون مع الدولة العثمانية ضد العدو المشترك إسبانيا. وكان الأشراف يستقلون استقلالا تاما في أكثر الأحيان، ولكن الظروف كانت ترغمهم أحيانا لإظهار نوع من التبعية للسلطان العثماني. وعلى العموم فإن العلاقة لم تكن طيبة في مطلع عهد الأشراف العلويين، فقد اصطدمت الأسرة العلوية بالحكومة العثمانية في الجزائر، ولكن هذه العلاقات توثقت روابطها خلال عهد السلطان محمد بن عبدالله بهدف توحيد القوى الإسلامية ضد الغزو الأوروبى.

الأطماع الاستعمارية في المغرب:

وازداد تعرض مراكش للتغلغل الأوروبي خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. فقد ازداد النفوذ الإسباني بموجب معاهدة ١٢٧٩هـ (١٨٦١) التي عقدها مع إسبانيا السطان محمد بن عبدالرحمن ١٢٧٧-١٩٢١هـ (١٨٥٩-١٨٧٣). ونال قناصل الدول في طنجة حق اشراف على شؤون المدينة الصحية بموجب معاهدة مدريد الدولية عام ١٢٩٨هـ ١٨٨٠م وأصبح لطنجة مجلس صحي يتناوب رئاسته قنصلا فرنسا، وإسبانيا. واكتسب الأجانب حق تأسيس محاكم قنصلية وحماية مواطنين مراكشيين.

وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) لجأ السلطان الحسن بن محمد ١٢٩١-١٣١٢هـ (١٨٧٣-١٨٩٤م) إلى بريطانيا التي حمته زمناً من الاحتلال الفرنسي، كذلك حاول السلطان الاستعانة بألمانيا، فعقد معها معاهدة عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م).

التنافس الاستعماري على مراكش :

وازدادت أطماع فرنسا في عهد أولاد الحسن: عبدالعزيز ١٣١٢-١٣٢٥هـ (١٨٩٤-١٩٠٧م) وعبد الحفيظ ١٣٢٥-١٣٣١هـ (١٩٠٧-١٩١٢م) ويوسف ١٣٣١-١٣٤٦هـ (١٩١٢-١٩٢٧م). فقد اتفقت فرنسا، وإسبانيا في ١٣١٨هـ (٢٨ حزيران ١٩٠٠م) على اقتسام الأجزاء الجنوبية من مراكش، فنالت إسبانيا (الصحراء المغربية) وأخذت فرنسا (موريتانيا). وكانت مراكش قد خسرت (افنى) منذ عام ٩١٦هـ (١٥١٠م). واضطر السلطان إلى قبول الأمر الواقع في ١٣١٩هـ (٢٠ تموز عام ١٩٠١م). كذلك تم الاتفاق بين فرنسا، وايطاليا في ١٣٢٠هـ (أول تشرين الثاني عام ١٩٠٢م) على منح فرنسا حرية العمل في مراكش مقابل إطلاق يد إيطاليا في طرابلس، وأجبرت الدول سلطان مراكش على إصدار ظهير الثالث من ١٣٢١هـ (آذار ١٩٠٣) بتشكيل مجلس لإدارة طنجة يتألف من (٢٦) عضواً، يعين القناصل عشرة، وينتخب الأجانب من سكان طنجة اثنى عشر منهم، ويعين السلطان مراكشياً واحداً، كما يعين الخاخام يهودياً واحداً، والحاكم المحلي مسلمين اثنين. ودفع هذا الأمر المدعو (أبو حماره) إلى إعلان الثورة على السلطان «عبد الأجانب» وجعل (تاز) عاصمة له.

وكانت فرنسا تترقب الفرصة المناسبة لاحتلال مراكش وليس أفضل من ثورة (أبى حماره) لتحقيق هذا الهدف، ولكن بريطانيا، وألمانيا كانتا بالمرصاد. وسلمت بريطانيا بأطماع فرنسا بموجب معاهدة ٢٣ محرم ١٣٢٢هـ (٨ نيسان ١٩٠٤م) (الاتفاق الودى) مقابل اعتراف فرنسا بوضع بريطانيا في مصر، ونصت الاتفاقية الجديدة على مايلي:

١ ـ لفرنسا حق حفظ الأمن وتقديم المساعدات للقيام بإصلاحات.
٢ ـ تبقى معاهدة بريطانيا القديمة مع مراكش سارية المفعول.

٣ ـ لاتتخذ إجراءات مالية ولا تسن قوانين ضارة بالمصالح البريطانية.
٤ ـ تبقى المنطقة الساحلية الشمالية غير محصنة باستثناء (مليلة) وتوضع تحت إشراف إسبانيا.
٥ ـ لايحق لإسبانيا التنازل عما أعطي إليها لدولة أخرى.
٦ ـ تصبح الاتفاقية سارية المفعول حتى ولو رفضتها إسبانيا.

وقد قبلتها أسبانيا فوراً، وعقدت اتفاقية مع فرنسا في ١٣٢٢هـ أول أيلول (١٩٠٤م)، نصت أيضاً على إعطاء الأمن في طنجة إلى قوة فرنسية ـ أسبانية مشتركة. وجاء أمبراطور ألمانيا إلى طنجة في ١٣٢٣هـ (أواخر آذار ١٩٠٥) ليؤكد صداقته للسلطان، محاولاً إحباط المؤامرة الفرنسية الإسبانية البريطانية.

وعقد مؤتمر الجزيرة في عام ١٣٢٤هـ (١٥/١-٧/٦/١٩٠٦م) لدراسة الوضع في مراكش وحضر المؤتمر ممثلو الدول الثلاث عشرة التي حضرت مؤتمر معاهدة مدريد ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م). ووقفت إسبانيا، وروسيا، وإنكلترا، وإيطاليا، في صف واحد مؤيدين فرنسا، ووقفت ألمانيا وحيدة لاناصر لها غير النمسا. وتم الاتفاق على الاعتراف بسيادة السلطان، واستقلاله ووحدة أراضيه مع المساواة التجارية لجميع هذه الدول في مراكش ومساعدة السلطان على تنفيذ برامج الإصلاح وتقرر تأسيس مصرف مركزي برأسمال دولي، وتشكيل بوليس إسباني فرنسي بقيادة سويسري.

ولكن قبل أن يمر عام واحد على توقيع الاتفاقية كانت فرنسا، وإسبانيا قد شرعتا بخرقها. فقد احتل الفرنسيون (ثار المراكشيون على السلطان عبد العزيز، وخلعوه ونصبوا أخاه عبد الحفيظ ١٣٢٥ ـ ١٣٣١هـ (١٩٠٧-١٩١٢م) الذي قضى على ثورة (أبي حماره)، وعقد قرضاً بمئة مليون فرنك لتسديد نفقات حملاته العسكرية. واستمرت نقمة المراكشيين على السلطان الجديد، وحاصروا السلطان في فاس، فتقدمت قوة فرنسية لإنجاد السلطان فدخلت فاس في عام ١٣٢٩هـ (٢١/٥/١٩١١م)، ومكناس والرباط في وقت لاحق. فثارت ثائرة امبراطور ألمانيا، وأرسل قطعة حربية في ١٣٢٩هـ (أول تموز ١٩١١م) إلى المياه المراكشية. ولكن فرنسا أرضته بقطعة من الكاميرون فأقر الاحتلال الفرنسي لمراكش في الرابع من تشرين الثاني من العام نفسه.

الاحتلال الفرنســـي :

واستمرت ثورة السكان على السلطان: وأباد الوطنيون الحامية الفرنسية في فاس في عام ١٣٣١هـ (١٧ و ١٨ نيسان ١٩١٢م)، ولكن الفرنسيين أعادوا احتلالها بعد أسبوعين بقيادة المارشال (ليوتى) الذي فرض على السلطان معاهدة حماية. ونـدم السلطان عبـد الحفيظ عَلَىَ عمله، فتنـازل عن السلطة لأخيه يوسف ١٣٣٠-١٣٣٥هـ (١٩١٢-١٩١٧م) في الثامن عشر من آب ١٩١٢م (٢٧ شعبان ١٣٣٠هـ). ولجأ إلى طنجة حيث سبقة أخوه عبدالعزيز، وتوفى عبدالحفيظ في فرنسا عام ١٣٥٥هـ (١٩٣٧م). وشرع الفرنسيون بتوسيع مناطق احتلالهم في مراكش فأتمـوا احتـلال البـلاد في الفـترة ما بين عامي ١٣٣٣-١٣٣٦هـ (١٩١٤-١٩١٧م). وتمكن الفرنسيون من حمل عدد كبـير من المراكشيين على الاشتراك في القتال في أوروبا إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. وعارض المارشال (ليوتى) في فرض الجندية الإجبارية في مراكش التي فرضت في تونس والجـزائر. واحتج (ليوتى) بأن معاهدة الحماية حفظت للمغرب وضعيته كدولة تتمتـع باستقلال ذاتي حقيقى تحت سيادة السلطان الفعلية الدينية والسياسية. ورأت الحكومة الفرنسية ضرورة سحب أكثر القوة الفرنسية من مراكش إلى الجبهة الغربية في أوروبا، وأبقت فقط على القوات اللازمة لحماية المواصلات بين أهم الموانىء والمدن. وكان على (ليوتى) أن يحارب بعنف ضد الوطنيين اللذين أوقعوا بالفرنسيين هزائم هامة. وكادت القوات الوطنية بقيادة الشيخ (الهبة ين الشيخ ماء العينين) أن تحرر مدينة مراكش.

وسعت فرنسا إلى الاستفادة من كافة الامتيازات التي منحتها إياها معاهدة الحـماية. فقد نصت المادة الأولى على تأسيس نظام جديد شامل للإصلاحات الإدارية، والقضائية، والعلمية، والاقتصادية، والمالية، والعسكرية، وعلى إدخال كل إصلاح ترى الحكومة الفرنسية فائدة في إدخاله. وأجازت هذه المادة لفرنسا حق التخلي عن هذه الحقوق لإسبانيا في منطقة الريف. وأوجبت المعاهدة على فرنسا الإبقاء على وضع طنجة الخاص، وحماية السلطان، واحترام نفوذه، وعدم المساس بالمؤسسات والشعائر الدينية، كما التزمت فرنسا بحماية شخص السلطان، وعرشه، هو وأولاده من بعده، وبتكليف السلك السياسي، والقنصل الفرنسي

بتمثيل المغرب في الخارج. وفي مقابل ذلك يسمح السلطان باحتلال القوات العسكرية الفرنسية الأراضى المغربية، وأن يمتنع عن عقد أى اتفاق دولى، أو امتياز دون موافقة فرنسا. وتنص المعاهدة على أن يصدر السلطان القوانين التي تقترحها فرنسا، وأن يمثل فرنسا لدى السلطان «مقيم عام» فرنسى للإشراف على تنفيذ المعاهدة، ولرعاية شؤون الأجانب.

وتنفيذاً لبنود المعاهدة، بادر الفرنسيون إلى عقد اتفاقية مع إسبانيا في عام ١٣٣١هـ (١٧ تشرين الثاني ١٩١٢م) وتقضى بوضع الجزء الشمالي من المغرب والمعروف بمنطقة الريف تحت حماية إسبانيا على أن يظل خاضعاً لسيادة السلطان الدينية وذلك بموجب الفقرة الأخيرة من المادة الأولى. وكذلك عقدت فرنسا مع الدول ذات المصالح في طنجة معاهدة في عام ١٣٣٧هـ (١٨ كانون أول ١٩١٨م) لتنظيم شؤون المدينة، وتنفيذاً لأحكام المادة الخامسة التي جعلت المقيم العام الفرنسى ممثلا لفرنسا، ووسيطاً وحيدا بين السلطان والأجانب وراعيا لشؤون الأجانب. وبذلك أصبحت طنجة دولية. وبموجب المعاهدة ألغيت وزارات الحربية، والخارجية، والداخلية، والمالية.

وأبقت فرنسا على الوزارة المغربية كحكومة ذاتية للبلاد. وضمت الوزارة المغربية الصدر الأعظم، ووزيرى العدل والأوقاف. وأنشأت إلى جانب الوزارة هيئة مراقبين ومديرين تابعة للمقيم العام الفرنسي. وضمت الهيئة الأخيرة مصالح المالية، والأشغال، والصناعة، والزراعة، والتجارة، والمواصلات، والتعليم، والصحة، والداخلية. واحتل الفرنسيون أكثر وظائف الدولة. ومن بين ٢٠٥٠٠ وظيفة حكومية عام ١٣٦٣هـ ١٩٤٤م) شغل المراكشيون فيها أقل من ستة آلاف منصب. ولم تكتف فرنسا بذلك بل سيطرت على مصادر الثروة، وفي مقدمتها الأرض الزراعية التي منحتها للمهاجرين الفرنسيين، مما أشاع الفقر، والجهل، والمرض في البلاد، هذا فضلا عن تشجيع حركات الانحلال، والثورات الداخلية، وإثارة العصبية بين العرب والبربر، ونشر اللغة الفرنسية، والقضاء على الحركات التحررية.

ولم تحاول فرنسا أن تتقدم بمراكش في طريق المجالس النيابية. فقد وجد في مراكش قبل الاحتلال مجلس أعيان أسسه السطان عبدالعزيز، ورفض هذا

المجلس إقرار معاهدة الجزيرة وساهم في خلع السلطان، وسجل في عقد بيعة عبد الحفيظ ألا يعقد معاهدة مع الدول الأجنبية إلا بعد مشورة الأمة ورضاها. وكذلك تأسست في بعض المدن مجالس بلدية منتخبة.

وجاء الفرنسيون وألغوا هذه المجالس جميعاً باستثناء مجلس فاس البلدى. وحاول المارشال (ليوتى) عام ١٣٣٥هـ (١٩١٦م)، إثر مؤتمر عقدته الغرف التجارية والزراعية والصناعية في مراكش أن يشكل مجلساً حكومياً ممثلا للجاليات الفرنسية. ولم يسمح للمراكشيين بتأسيس غرف مراكشية إلا بعد عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م)، إلا أنهم منحوا حق التمثيل في المجلس الحكومي على أن يجتمعوا منفصلين عن الفرنسيين. ولكن هذه المؤسسة بقيت فرنسية، ولم يعترف بها السلطان ولا المواطنون.

إسبانيا في مراكش :

وشرعت إسبانيا تحتل المناطق المراكشية (منطقة الريف) التي سمحت لها بها معاهدة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) ولكن سكان الريف قاوموا الاحتلال الإسباني، وهزموا المارشال (مارينا) في ١٣٢٧هـ (الثالث من أيلول ١٩٠٩م). وظهر في أثناء ذلك الشريف احمد الرسولي (أو الريسوني) «أحمد بن محمد بن عبدالله الحسنى من قبيلة بنى عروة»، فثار على السلطان، واختطف القنصل الأمريكي في طنجة، وعائلته عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)، فجاء الأسطول الأمريكي وحصل على ٧٠ ألف دولار كغرامة. وعين الرسولي حاكماً على طنجة، ثم عزله السلطان بضغط من قناصل الدول الغربية عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م). وسهل نزول القوات الإسبانية في ميناء العرائش في ١٣٣٠هـ (أيلول ١٩١١م) وصادق الجنرال (سلفستر). ونشب خلاف بين الرسولي و (سلفستر) عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) فعادر الرسولى مركزه في (أصيلا)، واعتصم في (زينه)، ووسع الإسبان منطقة احتلالهم، فدخلوا تطوان دون قتال، ولكنهم اصطدموا بقوات الرسولي عندما حاولوا التغلغل في الجبال. وتجمعت القبائل حول راية الرسولي، ونادوا به في (شفشوان) سلطان الجبل عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م). وأخيراً عقد صلح بين الرسولي والإسبان في ١٣٣٣هـ (أيلول ١٩١٥م) بعد استقالة سلفستر، وأعاد الأسبان إليه إملاكه، وأمدوه بالأموال لتخفيف الضائقة التي انتشرت بين القبائل،

واعترفوا به حاكماً على المنطقة الجبلية، فجعل (تازروت) عاصمة له. وثارت القبائل عليه، واتهمته ببيع البلاد للنصارى، ولكنه تمكن من إحباط محاولات القبائل لحرق عاصمته. إلا أن الرسولي ما لبث أن اختلف مع المقيم الإسباني (غوردانا) ١٣٣٣-١٣٣٧هـ (١٩١٤-١٩١٨م)، إلا أن موت (غوردانا) وضع حداً للخلاف. ورفض الرسولي عروض محمد عبدالكريم للتعاون ضد العدو المشترك. وبدأ الرسولي يقاوم انتشار دعوة محمد عبدالكريم إلى أن نشب القتال بينهما فأسر الرسولي، وتوفي في الأسر في عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م).

ثورة الأمير محمد عبدالكريم الخطابى :

وبرز في المنطقة الشرقية من الريف زعيم (بنى وريغال) الأمير «عبدالكريم الخطابى» الذي كان الحاكم الفعل لمنطقته. واشتهرت منطقته بمعادنها فتهافت عليه الإخوان (مقسمان) الألمانيان والسنيور (اجغريتا) الاسباني يبغون استثمار هذه المعادن. ولماشعر عبدالكريم بأهمية هذه المعادن سارع إلى إرسال ابنه الأصغر إلى مدريد لدارسة علم التعدين فتخرج مهندس مناجم من جامعة مدريد. أما ابنه الأكبر فكان قد درس الشريعة، واللغة وأصبح قاضياً في «مليك» وأصدر جريدة تلغراف الريف، وغدا مستشاراً للحاكم الإسباني لشؤون الريف. وخيل للكثيرين أن الأمور ستسير سيراً حسناً بين إسبانيا والأمير الخطابى.

ولكن الجنرال (غوردانا) المندوب السامى الإسباني لم يحسن التصرف. فقد طلب من الأمير عبدالكريم بنفسه تقديم الولاء، ولكن عبدالكريم رفض. فبادر الجنرال إلى إلقاء القبض على ابن عبدالكريم الأكبر القاضى محمد وزجه في السجن قرابة سنة. ولم يقم الأمير عبدالكريم بأى عمل عدائي ضد الإسبان إلى أن أتم ابنه الأصغر دراسته في مدريد، وأخلى سبيل الأكبر. وبعد أن اطمأن إلى سلامة ولديه قطع علاقاته مع السلطات الإسبانية. وبدأت العمليات الحربية بين الأمير الخطابى والإسبان في ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م). وتوفى أثناء ذلك الأمير عبدالكريم وخلفه ابنه الأكبر القاضى محمد الذي اشتهر فيما بعد باسم الأمير محمد عبدالكريم الريفى. والتزم محمد عبدالكريم جانب الدفاع، ولم يحاول التحرش بالإسبان.

وكان الجنرال (غوردانا) قد توصل إلى اتفاقية مع الرسولى، وتمكن الرسولى من السيطرة على منطقة (جباله) وتهديد طنجة. ولما عين الجنرال (برنغر) «١٩١٨-١٩٢٢م» مندوباً سامياً خلفاً للجنرال (غوردانا)، قرر اتخاذ موقف حازم نحو الرسولى، فأعلن (برنغر) أن الرسولى ثائر، وبدأ عملياته الحربية مطارداً الرسولي خلالى عامى ١٣٣٨-١٣٣٩هـ (١٩١٩-١٩٢٠م). وفى عام ١٣٤٠هـ (١٩٢١م) هاجم الإسبان منطقة الرسولى، ووصل الجيش الإسبانى إلى بعد ستة كيلومترات من (ثازروت) معقل الرسولي. وأعطى الرسولى مهلة لمدة أسبوع. اضطر بعده إلى قبول شروط الإسبان. ولكن الوضع كان قد تغير في أثناء هذه الأيام بعد أن أصيب الجيش الإسباني بكارثة كبرى في منطقة أخرى من الريف فسارع الرسولى إلى قطع المفاوضات والتمرد مرة أخرى.

أصيب جيش إسباني بقيادة الجنرال (سلفستر) قائد قطاع (مليلة)، بكارثة كبرى فقد زحف سلفستر في عام ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) نحو منطقة قبيلة الأمير عبدالكريم الخطابى، واحتل «أنوال» فأرسل عبدالكريم إليه محذرا إياه من التقدم أكثر من ذلك، ولكن (سلفستر) رفض الإصغاء إلى تحذيرات الأمير الخطابى. وفي عام ١٣٣٩هـ (أول تموز ١٩٢١م) تقدم الإسبان اثنى عشر كيلومترا بعد نوال) واقتربوا من أغدر). وفي تلك الليلة بدأ عبدالكريم هجومه المعاكس، وبعد شهر واحد كان الريفيون قد قضوا على جيش (سلفستر)، ولم يبق بيد الاسبان في ذلك القطاع إلا حصن (مليلة). واعترف الإسبان بخسارة خمسة عشر ألف جندى، وثلاثين ألف بندقية، وأربعمائة مدفع رشاش، و١٢٩ مدفع ميدان، وأسر الريفيون ٥٧٠ أسيراً افتداهم الإسبان بمبلغ ١٣٨ ليرة استرينية. وهذه اكبر هزيمة ألحقها جيش عربي بجيش أوربي في التاريخ الحديث.

كان هذا النصر الكبير مفاجأة للجميع. ولو أدرك عبدالكريم أهمية انتصاره، ولو تابع زجفه لما ثبتت مليلة أمامه. ولكنه توقف وأتاح للإسبان فرصة جلب إمدادات جديدة بلغت «٦٠٠٠٠» مقاتل. وتمكن الإسبان في عام ١٣٣٩هـ الثاني عشر من أيلول ١٩٢١م) من القيام بهجوم معاكس، واستعادة بعض ما فقدوه. وبلغت قوة الجيش الإباني في الريف في عام ١٣٤١هـ (مطلع عام ١٩٢٢م) أكثر من مائة وخمسين ألف جندى. وتمكن الجنرال (برنغر) من احتلال معقل الرسولي

في ١٣٤١هـ (منتصف عام ١٩٢٢م)، ولكن الحكومة الإسبانية أجبرت على الاستقالة ـ وخلفه الجنرال (برنجت) ١٣٤٢-١٣٤٣هـ (١٩٢٢-١٩٢٤م) الذي هادن الرسولي ليتفرغ لمنازلة محمد عبدالكريم.

وفي غضون ذلك تمكن محمد عبدالكريم من بسط سيطرته على القبائل المجاورة، وتنظيم حكومة عاصمتها (أغدر) وإعلان قيام جمهورية الريف. كما أرسل وفداً إلى أوروبا زار فرنسا وانكلترا للدعاية لقضية جمهورية الريف. وتمكن محمد عبدالكريم من صد هجمات الإسبان، وفشلت المحاولات المختلفة للوصول إلى اتفاق سلمي معهم.

ووقع انقلاب في إسبانيا أدى إلى تغيير جذري في سياسة اسبانيا فقد استلم الحكم إثر الانقلاب الجنرال (بريمودى ريفيرا) في عام ١٣٤٢هـ (١٢ أيلول ١٩٢٣م). وأعلن الجنرال في ١٣٤٣هـ أواسط عام ١٩٢٤م سياسة جديدة لإسبانيا في مراكش، وهى الانسحاب من المناطق الداخلية إلى مراكز حصينة على الساحل. وفي أثناء ذلك امتد ميدان نشاط الريفيين حتى وصلوا إلى أطراف تطوان، وقطعوا الطريق بينها وبين كل من طنجة، وشفشوان. وأشرف الجنرال (بريمودى ريفيرا) بنفسه على عمليات الانسحاب خلال النصف الثاني من عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م). وقد كلفت هذه العمليات الإسبان «٢١٢٥٠» إصابة كمايلي: قتلى (١١٠) ضابط و (٣٨٠٠) جندى، جرحى: (٧٠٠) ضابط، و (١٤٠٠٠) جندى، مفقودون: (٦٠) ضابط، و (٢٥٠٠) جندى.

وتمكن محمد عبدالكريم من بسط سيطرته على أكثر الريف، فقد أخضع قبائل منطقة (جبالا) إلى الغرب، وأخمد في مطلع عام ١٣٤٣هـ ثورة في شفشوان، وأسر الرسولي في ٢٧ كانون الثاني، واستولى على ثروته. وفي أيار ١٩٢٥م بدأت اسبانيا بمفاوضة محمد عبدالكريم لعقد هدنة شريفة. ولكن فرنسا تدخلت ضد الحركة الريف الاستقلالية.

تدخل فرنسا ضد الريفين :

لم تتم فرنسا احتلال المناطق الجبلية المتاخمة للريف إلا في عام ١٣٤٢هـ (١٩٢٤م) في الوقت الذي وصل محمد عبدالكريم الخطابي فيه إلى أوج قوته.

وتوالت حركات الفرنسيين العسكرية ضد المناطق المجاورة للريف وضد القبائل الموالية لمحمد عبدالكريم الخطابي، كما تتالت تصريحات المارشال (ليوتى) منذراً ومحذراً. فقد انتقد (ليوتى) بشدة انسحاب الإسبان وادعى أنه مخالف للاتفاقية الفرنسية الاسبانية. كما حذر الدول الأوروبية النصرانية لاسيما بريطانيا من خطر انتصار المسلمين في الريف، وأثر ذلك على الشعوب الإسلامية الخاضعة للاستعمار الأوروبى.

حاول محمد عبدالكريم الخطابي أن يتوصل إلى اتفاق مع فرنسا، فأرسل أخاه موفداً إلى باريس للتفاوض مع الحكومة الفرنسية، كما أرسل مندوباً إلى فاس للاتصال بالسلطات الفرنسيا في مراكش، إلا أن جميع محاولاته قد باءت بالفشل. وهدد الزحف الفرنسي جمهورية الريف بإكمال حلقات الحصار حولها.

كانت قوات فرنسا في مراكش ٦٥ ألف جندى، وهى غير كافة لحرب الريف، فزادت فرنسا قوات جيشها بحيث بلغت ١٥٨ ألف جندى، ومائة واثنتين وثلاثين طائرة، وضاعفت اسبانيا قواتها العكسرية حتى زادت على (١٢٠٠٠٠) جندى، فبلغت بذلك عدد القوة الإسبانية الفرنسية (٢٨٠٠٠٠) جندى، بينما لم تزد قوات جمهورية الريف على ستين ألفاً. وكان أكثر المحاربين في الجانبين قوات مغربية مراكشية، إذ ضم الجيش الفرنسى ١٢٠٠٠٠ فرنسى، ومثل هذا الرقم من الأوروبيين، و ١٣٣٠٠٠ مغربياً. أما الجيش الإسباني فقد ضم (٧٠٠٠٠) إسبانيا، وثلاثة عشر ألف مغربى. فبلغ عدد المغاربة المحاربين ضد استقلال الريف ضعف عدد المغاربة المدافعين عن استقلال الريف. وأشرف على وضع الخطط الحربية الفرنسية قواد من ألمع قادة فرنسا العسكريين كان من بينهم المارشال (بيتان) والجنرال (ليوتى). واجتمع المارشال (بيتان) بالجنرال (دي ريفيرا) للاتفاق على خطة عسكرية موحدة ضد جمهورية الريف. واتفقت كل من اسبانيا وفرنسا بأن لاتعقد مع الريف صلحاً منفرداً. وفشلت محاولات محمد عبدالكريم الخطابي للوصول إلى حل سلمى على أساس الاعتراف باستقلال جمهورية الريف.

بدأ الريفيون هجومهم على الخطوط الفرنسية في ربيع عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م). وتمكن الريفيون من خرق الجبهة الفرنسية، وأصبح موقف الفرنسيين حرجاً في قطاع (تازة) إلى الشرق من (فاس)، فأرسلت الحكومة الفرنسية المارشال

(بيتان) لإنقاذ الموقف، وعين الجنرال (ستاسلاس فوليه) قائداً للقوات الفرنسية في مراكش. وفي خريف العام نفسه، بدأ الفرنسيون هجوماً معاكساً بعد أن مهدوا له بقصف شديد طوال اليوم العاشر من أيلول في جهة (ورغة). كما هجم الفرنسيون في جبهة (تازة) محاولين الاتصال بالقوات الاسبانية الزاحفة من الساحل، ولكن الأمطار أوقفت الحركات الحربية. وكنتيجة للمعركة التي بدأت في الربيع وانتهت في الشتاء من عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٥م) فشل كل فريق في الوصول إلى أهدافه فلم يوفق الريفيون في إثارة قبائل الأطلس خلف الخطوط الفرنسية، على الرغم من مواقفهم البطولية ضد المستعمر خلال الحرب العالمية الأولى ومستقبلا، وفشل الفرنسيون والإسبان في محاولتهم تحطيم جيش الريف أو قسمه إلى جزأين.

اغتنم الفرنسيون فرصة توقف الحركات الحربية خلال فصل الشتاء، وحاولوا استمالة القبائل الموالية لجمهورية الريف. وبدأت القبائل تنفض من حول راية الجمهورية الريفية، وتسارع إلى الحصول على أفضل الشروط من الفرنسيين أو الإسبان وحاول محمد عبدالكريم الخطابي في مطلع عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) أن يقوم بنشاط عسكرى ليوقف هذا الانحلال، ولكن فشلت محاولته. فلجأ إلى المفاوضات وإرسال الوفود إلى أوروبا ونشر الرسائل في الصحف عن غاياته السلمية، واستعداده للدخول في مفاوضات الصلح.

وافقت الحكومتان الفرنسية والإسبانية على عقد مفاوضات للصلح في وجده في ٣ شوال ١٣٤٤هـ (١٩٢٦/٤/١٥م). ووصل وفد الريف إلى وجده، واستمرت المفاوضات مدة ثلاثة أسابيع. ولكن لم يستطع الوفدان الوصول إلى اتفاقية رغم استعداد محمد عبدالكريم الخطابي للتنازل والانسحاب إلى بلد اسلامي. وبدأ الجيشان الإسباني والفرنسي هجومهما فوراً، والتقى الجيشان معاً بعد عشرة أيام من القتال، فطلب محمد عبدالكريم الخطابي وقف العمليات الحربية، وعرض الاستسلام دون قيد أو شرط. ولكن الفرنسيين طلبوا منه إطلاق سراح الأسرى فنفذ هذا الشرط، وسلم نفسه للقوات الفرنسية.

واستمرت الحركات الحربية بعد ذلك زمناً. فقد أخرج سكان (شفشوان) مندوب محمد عبد الكريم الخطابي من بلدهم في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٤هـ

(١ حزيران ١٩٢٦م) كما انتخبت قبائل (جيبالا) زعيماً لهم. واستمر الزحف الإسباني، واحتل الإسبان (شفشوان). وما أن اقترب فصل الشتاء حتى كان الإسبان قد أتموا احتلال الريف واتفقت كل من اسبانيا وفرنسا على نفي محمد عبدالكريم الخطابي إلى جزيرة ريونيون في المحيط الهندى.

ولاشك أن هذه الحركة الوطنية كادت أن تعصف بالوجود الأجنبي الاستعماري لو التفت حولها القوى الوطنية والقبائل، ولو وجدت تأييداً من القوى الإسلامية في الخارج. ويعزى فشل ثورة الأمير محمد عبدالكريم الخطابى إلى عدة عوامل منها عدم تأييد القبائل المغربية له بشكل كبير وانفضاض أنصاره من حوله، ونجاح فرنسا في التغلب على المقاومة الداخلية، والفارق الكبير في الإمكانات المادية، والعتاد وأعداد الجند، مع العلم أن معنوية الريفيين كانت أكبر، فضلا أن فرنسا ضمنت حياد الدول الأجنبية وخاصة بريطانية وهي التي حاول محمد عبدالكريم الخطابي كسبها إلى جانبه، كما أقنعت إسبانيا بالقتال، وأخيراً إلى سياسة التدمير والإبادة التي اتخذتها فرنسا وأسبانيا لإرهاب السكان ولتفريغ شحنة من الحقد الصليبي.

النضال السياسي السلمي ١٣٤٤-١٣٦٣هـ (١٩٢٦-١٩٤٤م):

بعد أن فشل المراكشيون في عهد النضال المسلح في تحقيق أى هدف من أهدافهم، وبعد أن تم لإسبانيا وفرنسا سحق كل مقاومة عسكرية في البلاد، لجأ الوطنيون إلى النضال السياسي، فبرزت خلال هذه الفترة أحزاب عديدة في منطقتى الاحتلال الإسباني والفرنسي. ومالت هذه الأحزاب إلى اللين في مطالبها، فلم تستهدف الاستقلال التام، وجلاء القوات والنفوذ الأجنبى، بل اكتفت بالمطالبة بالإصلاحات، والحريات، وحماية المراكشيين. ولكن هذا الهدوء عكر مراراً بسبب إجراءات طائشة اتخذها المستعمرون. فقد استثارت السياسة التي اتبعتها فرنسا نحو البربر شعور المسلمين في مراكش والخارج. كذلك حدثت اضطرابات دامية ضد اليهود في عامي ١٣٥٢-١٣٥٥هـ (١٩٣٣-١٩٣٦م)، واضطرابات عمالية بتحريض من النقابات الفرنسية استهدفت فرنسا سياسة إبعاد البربر عن إخوانهم العرب في مراكش. وفي سبيل تنفيذ هذا الغرض استصدرت ظهيراً (مرسوماً) في ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) أعفت فيه البربر من تطبيع الشريعة

الإسلامية، ودراسة اللغة العربية، وسمحت لهم بالتقاضى بموجب العادات، وبـاللغة المحلية (البربرية). واستصدرت في منتصف عام ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ظهيرا (مرسوماً) نظّم انتقال الأراضي وملكيتها في المناطق البربرية بشكل يتعارض والشريعـة الإسلامية. ثم خطت فرنسا خطوة ثالثة فاستصدرت ظهيراً في عام ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) خطت فيه خطوة كبرى في محاربة الإسلام واللغة العربية في مناطق البربر. ونص هذا الظهير على أن يحكم شيوخ القبائل في مناطقهم حسب العـرف والعـادة، وعـلى تشكيل محاكم تحكم حسب عادات القبائل البربرية. وثارات ثائرة المسلمين في كل مكان. فقامت مظاهرات احتجاج في فاس والرباط وشكلت اللجان للدفاع عن اللغة، والدين، والكيان. وشجب المؤتمر الإسلامي في القدس الـذي انعقـد آخـر عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) هذا الظهير. واحتج المسلمون في الأمصار الإسلامية كافة على ذلك. وعقد مؤتمر في المجلس البلدي في مدينة فاس لدراسة هذه الحالة، وشكل وفد من العلماء، والأعيان، والشباب سافر إلى الرباط وقدم إلى السلطان عريضة تحوى مطالب البلاد وهى:

١ ـــ إلغاء التشريعات المتعلقة بالظهير البربري.
٢ ـــ توحيد التشريع والإدارة في البلاد.
٣ ـــ تركيز جميع السلطات في يد السلطان وحكومته.

وأسست صحف عديدة للدفاع عن مصالح الوطن. فصدرت مجلة «المغرب» في باريس، وجريدة عمل «الشعب» في فاس بالفرنسية، وجريدة «الحياة» ومجلة «السلام» في تطوان بالعربية، ونشأ أول حزب مغربى باسم «كتلة العمل المغربى» أواخر عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م). ويشكل هذا الحزب حركة عربية إسلامية، تشبه الدستور التونسى، ورابطة العلماء في الجزائر، ويضم المتعلمين الذين درسوا في الجامعات الفرنسية، واتصلوا برفاقهم من أبناء البلاد العربية الأخرى. وقدمت الكتلة مذكرة المطالب المغربية للسلطان ولفرنسا. وتتخلص المطالب بمايلي:

١ ـــ إلغاء مظاهر الحكم المباشر الفرنسي، وتطبيق المعاهدة نصًا وروحا، وقيام حكم ملكى دستورى.
٢ ـــ إلحاق المغاربة بالوظائف.
٣ ـــ تحقيق الوحدة القضائية والإدارية للبلاد ووحدة البلاد المراكشية.

٤ ــ الفصل بين السلطات.
٥ ــ تأسيس مجالس بلدية، وإقليمية، ومجلس وطنى جميع أعضائها من المغاربة.

واستجاب الشعب للكتلة الجديدة وأيدها. وباشرت الكتلة عملها بنشاط، وسعت الى نشر التعليم، وحماية الثقافة العربية، وتنمية الوعى بين الشباب. وحاولت الكتلة الاستفادة من قيام حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا. فعقدت مؤتمراً وطنياً في الرباط في ١٣٥٥هـ (٢٥ تشرين أول ١٩٣٦م)، واتخذت فيه قرارات مستعجلة قدمت الى المقيم الفرنسى. وباشرت باستكتاب عرائض وقعها أفراد الشعب تأييداً لمطالب الكتلة. وعقدت اجتماعاً آخر في الدار البيضاء. ولكن المقيم الفرنسى الجنرال «نوجس» ١٣٥٥-١٣٦٢هـ (١٩٣٦-١٩٤٣م) بادر إلى اعتقال ثلاثة من رجال الكتلة. فأعلن الإضراب العام، وقامت المظاهرات، ونشبت معارك عنيفة بين المتظاهرين والجيش، فتراجع المقيم الفرنسى، وأخلى سبيل المعتقلين، وسمح بإصدار أربع صحف عربية، وواحدة فرنسية. وزاد نشاط الكتلة بعد هذا النجاح، فافتتحت مكتباً لها في فاس، وانتخب «علال الفاسي» رئيساً للكتلة فانسحب محمد الوزاني من الحزب. وبادرت السلطات الفرنسية إلى حل الحزب في التاسع من آذار (١٩٣٧م) ١٣٥٦هـ.

وتزعم فرع الكتلة في منطقة الاحتلال الإسباني السيد عبدالخالق الطريسى، ولكن بعد نشوب ثورة فرانكو انفصل فرع الحزب عن الجنوب. وتلا ذلك انشقاقات أخرى في الفرع الشمالي. وأصدر الطريسى جريدة «الحياة» في تطوان في ١٣٥٣هـ آذار (١٩٣٤م)، وأسس المعهد الحر، وشكّل فرق الفتيان المغاربة، كما اشترك مع الشريف الوزانى، والطيب بنون، ومحمد الفاسي في تشكيل عصبة الفكر المغربى. ولما استقل حزبه عن الكتلة في الجنوب دعاه باسم حزب الإصلاح الوطنى. واستمر هذا الحزب وثيق الاتصال بالحزب الوطنى برئاسة علال الفاسى ثم اندمج عام ١٣٧٦هـ بحزب الاستقلال. وانشق عن الطريسى محمد بودرة الذي شكل حزب الأحرار، فأصدر جريدة الريف، وكذلك انشق محمد الملكى الناصرى، فألف حزب الوحدة، وأصدر جريدة الوحدة المغربية وأدار المعهد الخليفى.

وأعاد الوطنيون في منطقة الاحتلال الفرنسي تشكيل حزبهم وسموه الحزب

الوطني برئاسة علال الفاسي. أما محمد الوزاني فقد أسس اللجنة القومية، ثم شكل حزب الاستقلال الديمقراطي الذي جل هدفه التدرج في العلاقات مع فرنسا وتثبيت حكم دستوري نيابي وأصدر جريدة «الرأى العام» العربية لتنتشر مبادىء الحزب الذي اقتصر نشاطه على المدن. ولما ازداد نشاط الحزب الوطنى بادر الفرنسيون إلى اعتقال أعضاء اللجنة التنفيذية وإرسالهم إلى المنفى. وأصبح نشاط الحزب يجرى في السر.

وانتشرت الاضطرابات عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) في البلاد. فقد بدأ العمال إضرابهم بتحريض من اتحاد العمل الفرنسى، فبادرت السلطات إلى حل حزب العمال على الفور. ونشبت الاضطرابات في مدينة مكناس بسبب إعطاء مياه الرى للفرنسيين، وحرمان المراكشيين منها. وأشرف المقيم العام على إخماد هذه الاضطرابات بنفسه، ولكنه واجه بعد أقل من شهر حملة عنيفة بدأت في المساجد. وجرت اعتقالات واسعة في الرباط وفاس واعتقلت القوات الفرنسية المصلين في جامع فاس، وأصدر الوزير الأعظم قراراً يمنع استعمال المساجد في أغراض سياسية.

ونزلت الجيوش الأمريكية في مراكش عام ١٣٦١هـ (١٩٤٢م) فأحدث ذلك أثراً كبيراً في مراكش، فقد رحب السلطان محمد الخامس بالأمريكيين، وعقد اجتماعاً مع روزفلت في الدار البيضاء في ١٣٦٢هـ (٢٢ كانون الثاني ١٩٤٣م)، فوعده روزفلت بتأييد استقلال مراكش. وأصدر الوطنيون مجلة «رسالة المغرب العربى» للتعبير عن الشعور الوطنى. ودخل النضال في مراكش مرحلة جديدة هي المطالبة بالاستقلال التام. ولم يكتف الوطنيون بعد الآن بمجرد المطالبة بنصيب أكبر من الحكم الذاتي. بل تجاوزوا ذلك وتخلوا عن الأفكار القديمة التي تعترف بمعاهدة الحماية وتقر لفرنسا ببعض الحقوق، وتحرروا فكريا من ارتباطاتهم الفرنسية وفقدوا كل ثقة بفرنسا. وسبق الوطنيون في مراكش في هذا الأمر إخوانهم في تونس وفي عدد من البلاد العربية الأخرى.

دور النضال في سبيل الاستقلال التام ١٣٦٣ - ١٣٧٦هـ (١٩٤٤ - ١٩٥٦م):

اجتمعت الأحزاب الوطنية المغربية واتخذت في ١٦ محرم ١٣٦٣هـ (١١ كانون الثاني ١٩٤٤م) ميثاقاً تضمن الأهداف الجديدة للمغرب. وقد وقع هذه الوثيقة قرابة ستين زعيماً وطنياً، وتضمنت المطالب الجديدة مايلي:

١ ـ المطالبة بالاستقلال التام ووحدة الأراضى المغربية.

٢ ـ إقرار الملكية الدستورية كنظام للحكم.

٣ ـ التعاون بين الملك والشعب على تحرير البلاد وتحقيق الإصلاح المنشود بصفته أمراً داخلياً لاحق للفرنسيين بالتدخل في أمره.

وهكذا قرّر الوطنيون في المغرب أن نظام الحماية لايمكن أن يحقق شيئاً، وأن الاستقلال هو السبيل الوحيد لتحقيق الإصلاح.

ونشأ عام ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) حزب جديد حل محل الحزب الوطنى. فقد تشكل حزب الاستقلال برئاسة علال الفاسي، وأمانة سر أحمد بلفريج، وضم أعضاء الحزب الوطني، وأساتذة جامعة فاس، وأصدر الحزب جريدة «العلم» بالعربية، وجريدة «الاستقلال» بالفرنسية، واندمج فيه فيما بعد حزب الإصلاح في الريف، وبلغ عدد أعضائه مليون ونصف مليون عضو. وكان هذا الحزب هو المسؤول الرئيسي عن مطالب الأحزاب الوطنية الآنفة الذكر. وقد تضامن الشعب مع الحزب في هذه المطالب. وأيدها السلطان محمد بن يوسف الذي شكل لجنة لدراستها، وعقد مؤتمراً لأعيان البلاد وعين لجنة اتصال مع الحزب. واتخذ المقيم العام الفرنسي (جبريل بيو) ١٣٦٢-١٣٦٥هـ (١٩٤٣-١٩٤٦م) إجراءات تعسفية شديدة. فقد أمر باعتقال أحمد بلفريج، ومحمد اليزيدي وعدداً من الزعماء. وقامت مظاهرت عنيفة تضامناً مع الحزب قمعها الفرنسيون بشدة، ونفذوا حكم الإعدام بعدد من الشباب في فجر ذكرى المولد النبوى الشريف، ولكن التأييد الشعبى للحركة كان كبيراً فاضطرت فرنسا للتراجع وتغيير مقيمها.

وجاء مراكش مقيم جديد هو «اريك لابون» ١٣٦٦-١٣٦٧هـ (١٩٤٦-١٩٤٧م) الذي أعاد الزعماء المنفيين أمثال: علال الفاسي (من الغابون) وأحمد بلفريج (من كورسيكا) ومحمد الوزانى (من بنزرت)، كما سمح بإصدار

الصحف العربية. وفي منتصف عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) قدم المقيم اقتراحا لإجراء انتخابات المجالس في المدن والأرياف على أن يشترك الفرنسيون بالأولى، ولكن حزب الاستقلال، والسلطان عارضا اشتراك الفرنسيين في الحكم والمجالس المنتخبة. واقترح حزب الاستقلال إلغاء معاهدة الحماية. وعقد معاهدة استقلال، وقام السلطان في ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) بأول مظاهرة ضخمة تأييداً للمطالب الوطنية. فقد عزم السطان على زيارة طنجة، ومنطقة الاحتلال الإسباني، ولم يثن السلطان عن عزمه المذابح التي قام بها الفرنسيون في الدار البيضاء. واستقبل السلطان استقبالا حافلا في المنطقتين، وألقى خطاباً هاماً في طنجة. وأعلن السلطان في خطابه الهام وحدة المغرب وأنه جزء لايتجزأ من البلاد العربية. وكانت هذه أول زيارة ملكية لطنجة منذ عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وأول مرة يعلن فيها سلطان المغرب عن وحدة أراضي المغرب. ويطالب باستقلالها، وأنه ضمن البلدان العربية.

وثارت ثائرة الفرنسيين على هذا الخطاب واعتبروه تحدياً لفرنسا. وبادرت فرنسا إلى تغيير مقيمها في مراكش فأرسلت الجنرال «الفونسو جوان» ١٣٦٦-١٣٧١هـ (١٩٤٧-١٩٥١م) كرجل حديدى لإرهاب السلطان الوطنيين. «وجوان» من مواليد الجزائر، نشأ وهو يعتقد بحيوية احتفاظ فرنسا بممتلكاتها في المغرب بأى ثمن. وبدأ «جوان» بتوزيع التهديدات منذ أن وطأت قدماه أرض مراكش. وبادر «جوان» باقناع عدد من العلماء ليصدروا فتاوى ضد أعمال السلطان الجريئة وأنها مخالفة للدين في كثير من جوانبها فأبوا ذلك. وسعى «جوان» إلى تشوية اسم حزب الاستقلال متهماً إياه بأنه ومجموعة من المثقفين الناقمين العاطلين عن العمل لايمثلون إلا أنفسهم.

حاول حزب الاستقلال التفاوض مباشرة مع باريس، فأوفد عمر عبدالجليل، وأحمد الحمياني، وعبدالكريم جلون ألى باريس لتنوير الرأى العام الفرنسى، ثم أوفدأحمد بلفريج خريج السوربون إلى باريس لمواصلة هذا النشاط فقضى شهرين فيها. وأخيراً ذهب رئيس الحزب علال الفاسى لإقناع باريس بحسن نيات المواطنين، فشعر أن لا أمل بالتفاهم بعد أن منح «جوان» سلطات واسعة وأبيح له خلع السلطان. فبادر علال الفاسى إلى نقل مركز نشاطه إلى القاهرة التي

وصل إليها في ١٣٦٦هـ (أيار ١٩٤٧م) واتصل بالأمير محمد عبدالكريم الخطابى الذي لجأ إلى مصر، وتولى زعامة مكتب المغرب العربى فيها.

ووقف السلطان موقفاً صلباً من الجنرال «جوان». فقد رفض توقيع مشروعات القوانين المعروضة، وأحالها على لجان وزارية لدراستها فكانت هذه اللجان تضع دوما مشروعات معاكسة يقرها السلطان. ورفض السلطان مشروع تشكيل وزارة مشتركة. ومجلس شورى مشترك، ورفض مبدأ اشتراك الفرنسيين بهذه المجالس.

ورأت فرنسا أن تجامل السلطان فدعته لزيارة باريس. ووصل السلطان إلى باريس في الأيام التي تلت العيد الأضحى ١٣٦٩هـ (أول تشرين الأول ١٩٥٠م) مصحوباً بوزرائه، وبعض القواد، والأعيان وديوانه الخاص وقدم في اليوم التالي مذكرة الى رئيس الجمهورية، وطالب فيها بإلغاء معاهدة الحماية ١٣٣١هـ (١٩١٢م). ودرست الوزارة الفرنسية مذكرة السلطان بعد أن تعرضت لضغطٍ شديد من الفرنسيين في مراكش، وقرر مجلس الوزراء الفرنسي مواصلة مهمة فرنسا في المغرب مع استعدادها لإدخال بعض الإصلاحات التي تدرسها لجنة فرنسية مغربية. وقدم السلطان مذكرة ثانية أعلن فيها أسفة لاستمرار تمسك فرنسا بمعاهدة ١٣٣١هـ (١٩١٢م) وتفضيل مصالح المستوطنين الفرنسيين، وطالب من جديد بإعلان استقلال المغرب، وعقد معاهدة مع فرنسا على أساس الاستقلال.

وعاد السلطان إلى بلده دون أن يحقق شيئاً. وأعلن الجلاوي تأييده لفرنسا، وانتقد السلطان لاعتماده على «حزب الاستقلال» الذي لايمثل إلا سكان المدن. إلا أن الشعب أظهر تأييده للسطان، ولحزب الاستقلال في الاحتفالات بذكرى جلوس السلطان. ونادى الأعضاء المنتخبون في مجلس شورى الإقامة العامة (مكتب المقيم العام الفرنسي) بفشل نظام الحماية وطالبوا بإعلان الاستقلال، فبادر الجنرال «جوان» إلى طرد المتكلم السيد محمد الاغزاوى من المجلس فغادر القاعة محتجاً ومتضامناً معه احمد اليزيدي، ومحمد العراقى، وأكثر الأعضاء المنتخبين، وذهبوا جميعاً إلى القصر فاستقبلهم السلطان واستمع إلى مطالبهم.

ولجأ الفرنسيون مرة أخرى إلى التهديد باستخدام القوة. فقد استقبل السلطان محمد ابن يوسف الجنرال «جوان» قبيل سفر الجنرال إلى أمريكا في مطلع عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) وقدم الجنرال إنذاراً الى السلطان يطالبه فيه بوجوب التبرؤ

من حزب الاستقلال، وطرد أعضاء الديوان، وبعض كبار الموظفين وتوقيع المراسيم الموقوفة. أما إذا رفض السلطانات تنفيذ هذه الطلبات فما عليه إلا أن يتنازل عن العرش وإلا خلعته فرنسا بالقوة. وعاد الجنرال من أمريكا وجدد إنذاره، وحاصرت القوات الفرنسية القصر الملكي واحتلت المدن الرئيسية. واضطر السلطان في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٧١هـ (الرابع والعشرين من شباط ١٩٥٢م) إلى توقيع بعض المراسيم، وعزل أعضاء ديوانه، وعزل رئيس جامعة القرويين في فاس. وفي اليوم التالي أصدر السلطان بياناً أعلن فيه أنه فوق الأحزاب، وشجب العنف والانقسامات المخالفة للدين، وأكد على الصداقة الفرنسية. وكانت الجامعة العربية قد بحثت الحالة في المغرب فشجبت عمل فرنسا، وأيدت المغرب واغتنم السلطان فرصة وجود مندوب جريدة «الأهرام» المصرية في الرباط «محمود عزمى» فأكد له بأنه رضخ مكرها. ونظم حزب الاستقلال في عيد الجامعة العربية مظاهرة ضخمة في طنجة. رفعت فيها أعلام الدول الأسيوية والإفريقية.

وأثرت قضية المغرب على الصعيد الدولى في الخريف. فقد عرضت كتلة الدول الإسلامية الافريقية قضية المغرب على هيئة الأمم المتحدة إبان اجتماعها في باريس إلا أن الجمعية العمومية قررت تأجيل النظر في القضية. واحتفل في عام ١٣٧٢هـ (تشرين الثاني ١٩٥٢م) حزب الاستقلال بذكرى تولى السطان العرش، فاشتركت الوفود العربية في الاحتفال وألقى وزير خارجية مصر خطاباً. وفي الرباط أعلن السلطان في المناسبة نفسها ضرورة إلغاء معاهدة الحماية، ودعا الشعب إلى الهدوء.

وحدث تطور آخر في النضال. فقد غيرت فرنسا مقيمها (سفيرها) جوان، وأرسلت الجنرال «أجستين جيوم» الذي وصل إلى البلاد في نهاية عام ١٣٧١هـ (في الثامن عشر من آب ١٩٥١) والذي قدر له أن يلعب دورا خطيراً. وكانت الأحزاب المغربية قد تجمعت قبل ذلك في الشهر الرابع (نيسان)، وشكلّت جبهة وطنية قدمت في (الحادي عشر من كانون الثاني ١٩٥٢م) مذكرة إلى السلطان كررت فيها الأماني الوطنية التي سبق أن أعلنتها في اليوم نفسه قبل ثمانية أعوام.

وازدادت حماسة العالم العربى والإسلامى لقضية المغرب. فقد قدمت الدول العربية احتجاجاً إلى هيئة الأمم المتحدة، وفرنسا، كما طالب بعضها كالأردن

بتدخل الولايات المتحدة. وقامت مظاهرات صاخبة ومعادية لفرنسا في لبنان، والباكستان. واجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية في الثالث عشر من آذار، وقررت الاحتجاج على أعمال فرنسا والتهديد بإثارة القضية في هيئة الأمم المتحدة. ولكن وزارة الخارجية الفرنسية رفضت مذكرات احتجاج سعودية، وأردنية، وسورية، ومصرية.

وزاد نشاط السلطان بعد أن رأى هذا التأييد المعنوى الكبير في الداخل والخارج. فأرسل في الرابع عشر من آذار مذكرة إلى الرئيس الفرنسى أيد فيها المطالب الوطنية. وردت فرنسا رافضة المطالب الوطنية مقدمة عروضاً جديدة رفضها السلطان بدوره وأصدر بعد أسبوع بياناً رسمياً شرح فيه أوجه الخلاف.

وأثيرت قضية المغرب مرة أخرى في هيئة الأمم المحدة. فقدم العراق مذكرة إلى هيئة الأمم طالباً عرض القضية. وأيد طلب العراق ثلاث عشرة دولة عربية وإسلامية. وأقرت اللجنة التوجيهية إعطاء صفة الاستعجال للقضية. وناقشت اللجنة السياسية في أواخر عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) موضوع المغرب فرفضت مشروعاً عربياً آسيوياً. وأقرت مشروعاً مائعاً قدمته دول أمريكا اللاتينية. وقبلته فيما بعد الجمعية العمومية بأكثرية ٤٥ صوتاً.

وحدث أثناء نقاش قضية تونس ومراكش في هيئة الأمم أن اغتال الفرنسيون الزعيم العمالى التونسي «فرحات حشاد»، فأعلن حزب الاستقلال، والاتحاد النقابى المغربى الإضراب العام تضامناً مع تونس. ولكن الفرنسيين اغتنموا الفرصة للقيام بمذبحة كبيرة في الدار البيضاء قتل فيها أكثر من أربعة آلاف مواطن مغربى. واعتقل الفرنسيون زعماء الاستقلال والاتحاد النقابى، وأعلنوا حل الحزب، وعطلوا الصحف العربية. وسجنوا، وعذبوا، وشردو آلاف المواطنين. ودفعت فرنسا أكثر من ٢٧٠ من أعيان، وقواد مراكش إلى توقيع عريضة في ١٣٧٢هـ (أواخر أيار ١٩٥٣م) طالبوا فيها بخلع السلطان لمعارضته للإصلاحات، ولثقافته العصرية التي تؤذى شعور الإسلام، ولاتجاهاته المعادية فجرد من رئاسته الدينية. وعقد «الجلاوى» مؤتمراً معاديا للسلطان في الثالث من ذي الحجة ١٣٧٢هـ (١٣ آب ١٩٥٣م) نادى فيه بخلع السلطان. وفي يوم عيد الأضحى المبارك، اعتقل السلطان، وأفراد عائلته، ونقلوا بالقوة الى كورسيكا،

ثم إلى مدغشقر ونصب محمد بن عرفة سلطاناً على المغرب.

وأصبحت المعركة سافرة بين الشعب العربي في المغرب وقى الاستعمار الفرنسي. وخاضها هذه المرة جميع أفراد الشعب من مثقفين، وعمال. وعلماء من عرب وبربر من المدن والقرى والأرياف. ولم يعد بإمكان الساسة إقناع الشعب بالاكتفاء بالنضال السلمى لاسيما وأن أساليب القمع الاستعمارى قد اتجهت نحو العنف واتخاذ إجراءات تؤدى إلى الانصهار أو الإبادة. فخرج الشعب على إرادة زعمائه وقابل العنف بالعنف واستطاع المجاهدون في المرحلة الأولى القضاء على عدد كبير من المتعاونين مع فرنسا والموالين لها.

استمرت الأحوال مضطربة في المغرب بعد نفى السلطان. وعقدت القبائل الريفية مؤتمر في ١٦ جمادى الأولى ١٣٧٣هـ (العشرين من كانون الثاني ١٩٥٤م) حضرة الجنرال (غارسيا) المندوب الأسباني.

واتخذ المجتمعون قرار باستنكار أعمال فرنسا، وتأييد السلطان محمد الخامس. وفي منطقة الاحتلال الفرنسي استمر استبسال الفدائيين وجرت محاولة لاغتيال محمد بن عرفة وغيره من المتعاونين مع فرنسا، كما قاطع المراكشيون البضائع الفرنسية، وكثرت الاضطرابات. وغيرت فرنسا ممثلها وأتت (بفرنسيس لاكوست) مقيما عاما جديدا ولكن ذلك لم يحسن سير الأحوال، وعادت الدول العربية والإسلامية الى عرض المشكلة على هيئة الأمم المتحدة في الوقت الذي أصر فيه حزب الاستقلال على رفض أى حل في ظل ابن عرفة.

وتحت ضغط الرأى العام الدولى والمقاومة الداخلية المغربية، تراجعت فرنسا عن موقفها فأعادت السلطان المنفى إلى عرشه بعد عامين من الصراع المرير، وقد عاد السلطان بعد أن صدر تصريح مشترك بينه وبين فرنسا في ٢١ ربيع الأول ١٣٧٥هـ (٦ تشرين الثاني ١٩٥٥م) اعترفت فيه فرنسا باستقلال مراكش وبإقامة ملكية دستورية بها. واستمرت المفاوضات بعد ذلك حتى انتهى الطرفان إلى توقيع اتفاقية ٢٠ رجب ١٣٧٥هـ (٢ آذار ١٩٥٦م). وتتضمن الغاء الحماية، والاعتراف باستقلال مراكش ووحدة الأراضى المغربية. وبعد شهر صدر بيان إسباني مغربى مماثل. وفي ١٠ شوال ١٣٧٥هـ (العشرين من أيار ١٩٥٦م) استعاد المغرب حريته السياسية بعد أن عقد اتفاقاً سياسياً مع فرنسا، ونص على التعاون في

السياسة الخارجية، والتشاور في حالة التهديد بأى صفة من الصفات. وعدم اتخاذ موقف في السياسة الخارجية يتعارض مع مصالح الطرف الآخر. كما نصت الاتفاقية السياسية على التزام المغرب بالمعاهدات والاتفاقات التي تمت في عهد الحماية. والظاهر أن المقصود بهذا هو مراعاة الاتفاقيات المعقودة مع الولايات المتحدة الأمريكية بشأن قواعدها العسكرية. وفي نهاية العام الغى النظام الدولى لطنجة، وعادت للمغرب بذلك وحدته السياسية.

اتخذت مراكش اسم المغرب رسميا للدولة، وقبلت عضواً في هيئة الأمم المتحدة عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ثم دخلت الجامعة العربية عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م). وقد اهتم السلطان محمد بن يوسف الخامس بإنشاء جيش وطنى قوى، وتوسيع وتعريب التعليم والقضاء، وإلغاء القواعد الأمريكية الموجودة في البلاد، وتم ذلك مابين ١٣٨٣-١٣٩١هـ (١٩٦٣-١٩٧١م)، وأخيراً تدبير القروض اللازمة للتنمية الاقتصادية مع فرنسا، وقد نجح المغرب في ذلك ولكن السلطان محمد بن يوسف عاجلته المنية ١١ رمضان ١٣٨٠هـ (٢٦ شباط ١٩٦١م) قبل أن يرى جلاء القوات الفرنسية والأمريكية عن بلاده والتي تمت في عهد خلفه ابنه الملك الحسن الثاني.

وقد مرت علاقات المغرب مع الدول العربية المجاورة بأزمتين إحداهما مع الجزائر تتعلق بالحدود في عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، والأخرى تتعلق بالاعتراف باستقلال موريتانيا. وقد سويت الأزمتان بروح الأخوة كما نشأت أزمة ثالثة بشأن الصحراء المغربية في عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، ولا زالت المشكلة قائمة بين المغرب والجزائر بشأنها بعد أن حصلت الصحراء على استقلالها وتقاسمتها المغرب وموريتانيا دون الجزائر. ولا زالت الدول العربية تحاول حل هذه الأزمة بروح الأخوة والتضامن العربى. أما الجيوب الإسبانية كمدينتى (سبتة) و (ميلله) فلا زالت تحت الحكم الاسباني الذي استمر قرابة ستة قرون. ويبدو أن المغاربة لايهتمون كثيراً باستعادتها بعد أن شعروا بأن سكان هاتين المدينتين أكثريتهم من النصارى ولغتهم إسبانية وثقافتهم إسبانية أيضا، وهم لايمتون بصلة إلى المغرب، لأن إسبانيا قد صبغتها بصبغة إسبانية من ناحية اللغة والدين.

وجابهت البلاد في الميدان الداخلى مشكلات عديدة. فقد بدأ الانقسام واضحا

في الـرأى بين أعضـاء الـوزارة الائتـلافية الأولى التي شكلها محمـد البكـاى (١٢/٧/١٩٥٥-٢٦/١٠/١٩٥٦) ولا سيما بين وزراء حزب الاستقلال وحزب الشـورى- والاستقـلال «الاستقلال الديمقراطى» وعارض وزراء حزب الشورى والاستقلال في حل منظمة كاديما الصهيونية (أول حزيران ١٩٥٦م) وسمح وزير المواصلات للبريد المغربى بالتعامل مع دولة اليهود. وطالب وزيران من وزراء هذا الحزب شطب كلمات العروبة والإسلام من مشروع بيان الحزب الذي أعد أوائل العام. ودعت جريدة الرأى العام الناطقة بلسان ذلك الحزب إلى قيام ديمقراطية لادينية، ونـادى زعيم الحـزب عبدالقادر بن جلون بأن الحزب لاديني وطالب بمشاركة اليهود في ادارة الدولة.

واغتنم حزب الاستقلال هذه الفرصة للطعن بحزب الشورى ولا سيما بعد أن انتشرت أنباء اعتراضات محمد حسن الوزانى الأمين العام لحزب الشورى على اتجاهات حزبه اللادينية. وحمل علال الفاسى زعيم حزب الاستقلال في جريدة العلم على هذا الاتجاه المعادى للعروبة والإسلام، وانتقد بشدة العلاقات البريديـة مع دولة اليهودية وأعاد البكاى تشكيل وزارته دون أن يضم وزراء من حزب الشورى، وبقيت الدعوة اللادينية قوية تحت شعار «التقدمية». وانتقد «التقدميون والقوميون» وزارة بلفريج لأنها تضم وزيرا يهوديا بينما أيدوا وزارة عبدالله إبراهيم «التقدمية» واعتبروا إقالتها من قبل الملك عملا «رجعيا» يعيد مراكش إلى اتباع سياسة دينية إسلامية. وشكل التقدميون في ١٣٧٩هـ (تشرين الثاني ١٩٥٩م) تجمعا جديدا سموه الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية برئاسة المهدى بن بركة. ونال هذا الحزب تأييد اتحاد العمل المغربى الذي يضم أكثر من نصف مليون عامل بزعامة محجوب بن صديق، كما أيده قادة جيش التحرير المغربى، وتبدو هذه الكتـل التقـدمية قوية في الـربـاط وطنجة والدار البيضاء بينما تبرز قوة حزب الاستقلال والاتحاد المغربى للعمل في المدن القديمة كفاس ومراكش التي تعتز بطابعها الإسلامي.

الفصل السابع
موريتانيا

يطلق على موريتانيا اسم (شنقيط) وهو الاسم العربى الإسلامى الذي ظل قائماً حتى جاء الاستعمار الفرنسى وأطلق عليها اسم موريتانيا وهى أرض مغربية منذ فجر الإسلام حتى جاء الاستعمار المذكور، وفصلها عن المغرب، ويعود تاريخ انتشار الإسلام فيها إلى النصف الثاني من القرن الأول الهجرى أيام معاوية بن أبى سفيان وتتابعت العهود الإسلامية عليها، ثم توالت الأسر الحاكمة بعد دولة الموحدين فقامت الدولة السعدية، وأخيرا الدولة العلوية منذ عام ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م) حتى اليوم.

التنافس الاستعمارى:

بدأ الأوروبيين يفدون على الساحل الإفريقي في القرن الخامس عشر الميلادى البرتغاليون أول من وفد من الأوروبيين على هذه المنطقة وقد أغرتهم تجارة الصمغ والذهب والرقيق واستقروا على الساحل، وأسسوا مراكز تجارية لهم، وتحكموا في تلك المراكز قرابة قرنين من الزمن، ثم جاء بعدهم الإسبان، وتلاهم الهولنديون واخيرا جاء الفرنسيون. والذي جذب أنظار الاستعمار إلى موريتانيا هو الصمغ العربى الذي تشتهر به لذلك كانت كل شركة تحاول أن تحتكر هذه التجارة لنفسها وأخذت تنشىء محطات ومراكز تجارية على طول نهر السنغال في سبيل تحقيق هذا الهدف واستمرت المنافسة بين التجار الأوروبيين ولم تحل مشكلة السيطرة إلا في عام ١٢٣١هـ (١٨١٥م) عندما أعطيت منطقة السنغال إلى فرنسا بموجب المعاهدة التي عقدت بين دول أوروبا الكبرى في أعقاب حروب نابليون.

وخلال القرن التاسع عشر الميلادي وقع الفرنسيون معاهدات مع بعض الأمراء المحليين ولكن الموريتانيين قاموا بهجمات على مراكز التجارة الفرنسية على طول نهر السنغال مما اضطر الفرنسيين إلى التفكير في الاستيلاء على موريتانيا لتأمين السنغال، ولم تكن موريتانيا موحدة بل كانت مقسمة إلى ٧ مناطق على كل منها أمير.

وفي عام ١٣١٩هـ (١٩٠١م) بدأت المحاولة الجدية لاحتلال البلاد بقيادة (كوبولانى) وسيطر الفرنسيون على منطقة (ترارزة) قاعدة الهجوم على المراكز التجارية ثم سيطر (كوبولانى) على براكنا عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) وعلى (تاغنت) عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) وأقنع بعض الزعماء المحليين بطلب الحماية الفرنسية. وبعد هلاك كوبولاني عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) خلفه الجنرال (غورو) الذي سار نهجه فبسط نفوذه الفعلى على منطقة (أدرار) عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) بعد القضاء على المقاومة الوطنية وبخضوع المغرب لفرنسا تم الاستيلاء الكامل على موريتانيا وفي عام ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م) اعتبر الفرنسيون أراضى موريتانيا وحدة إدارية وعدت موريتانيا بالتالي جزءاً من إفريقية الغربية الفرنسية.

السياسة الاستعمارية :

ألحقت فرنسا موريتانيا بالسنغال من الناحية الإدارية بعد أن قسمت البلاد إلى عشر دوائر ويوجد في كل دائرة مدير فرنسى ويعاونه ثلاثة أشخاص وقد خطط الاستعمار لمحاربة الإسلام باتباعه وسائل وأساليب عديد منها: سياسة التفريق بين المسلمين البيض والزنوج ومحاربة اللغة العربية ونشر اللغة والثقافة الفرنسية وإهمال التعليم والصحة ومحاولة نشر المخدات والمسكرات والدعوة إلى السفور والاختلاط وإفقار الشعب وإذلاله.

المقاومة الموريتانية :

قاد الشيخ ماء العينين بن محمد حركة المقاومة ضد الفرنسيين منذ بدء الاحتلال فجعل (أدار) مركز قيادته وأعلن الجهاد المقدس واستعان بسلطان المغرب الذي أمده بالمساعدات، وبدأت المعركة التي دامت عامين كاملين ١٣٢٦/١٣٢٨هـ (١٩٠٨-١٩١٠م) وانتهت بدخول الفرنسيين إلى (أدرار) بعد

موت الشيخ ماء العينين على الرغم من الروح المعنوية العالية التي كان الموريتانيون يتمتعون بها وتتابعت المقاومة الموريتانية حتى عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م).

وظهرت بوادر الدعوة إلى الاستقلال وتشكل حزبان هما حزب الاتحاد الوطنى وحزب منظمة الشباب، وانحصرت مطالب كلا الحزبين بالاستقلال المباشر والحرية المطلقة، كما نجحت الحركة الوطنية في توحيد الحزبين ودمجهما في حزب واحد هو حزب التفاهم الموريتاني ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) وكان يهدف إلى توحيد جهود الموريتانيين بعد أن فرقتهم السياسة الفرنسية مستغلة الخصومات القبلية ولكن هذه الحركة الوطنية لم تلبث أن عادت إلى لانقسام وكونت حزبين جديدين هما حزب التفاهم الموريتانى وحزب الاتحاد التقدمى، وقد فاز حزب الاتحاد التقدمى في الانتخابات التي جرت عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) وفي عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) وفي مطلع عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م) تقرر دمج الحزبين السابقين في حزب واحد هو «حزب التجمع الموريتاني» الذي دعا إلى الاستقلال.

وجدير بالذكر أن فرنسا أيام حكم «ديغول» قد عرضت على مستعمراتها قبول الدستور الفرنسى أو عدمه بحيث تصبح هذه الدول أعضاء في مجموعة الشعوب الفرنسية وتشكل حكومات محلية تتمتع بالاستقلال الداخلى على أن تكون السلطة المركزية لفرنسا في الدفاع والاقتصاد والشؤون الخارجية أما الأقاليم التي لاتوافق عليه فتمنح الاستقلال التام وعندها تقطع فرنسا مباشرة كل معونة فنية أو مالية أو إدارية ولما جرى الاستفتاء على الدستور في ١٥ ربيع أول ١٣٧٨هـ (٢٨ أيلول سنة ١٩٥٨م) قبلت موريتانيا تحت الضغط والتهديد دستور ديغول وأصبحت عضوا في الجامعة الفرنسية وشكل مجلس تأسيسى في مارس ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) لمدة خمس سنوات ووضع دستور للبلاد وفي الوقت نفسه فاز حزب التجمع الموريتاني في الانتخابات وشكل رئيسه المختار ولد داده الوزارة وأصبح الحزب الحاكم في البلاد.

وفي الوقت نفسه نشأ حزب جديد هو حزب النهضة ويدعو إلى استقلال موريتانيا والانضمام إلى الوطن الأم المغرب واعتبار موريتانيا جزءاً من المغرب لايتجزأ ويعتبر هذا الحزب هو الحزب المعارض وتتفق معه آرائه منظمة الشباب الموريتاني وكان قد شكل في المغرب فور استقلالها سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) جيش

التحرير الموريتاني ولكنه فشل في تحقيق شيء وعلى الرغم من مطالبة المغرب بضم موريتانيا إلا أن هيئة الأمم أصدرت قراراً بمنح موريتانيا الاستقلال التام في ٩ جمادى الآخرة ١٣٨٠هـ (٢٨ تشرين الثاني ١٩٦٠م) ثم دخلت موريتانيا الأمم المتحدة في نفس العام كما قبلت عضوا في جامعة الدول العربية عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م).

ومما يجدر ذكره أن انقلابا قد أطاح بحكم المختار ولد داده برئاسة رئيس اللجنة الوطنية للانقاذ الوطنى العقيد مصطفى ولد محمد السالك الذي تزعم البلاد منذ أواخر في ٥ شعبان عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م). وما لبث أن جرى تغييرات عل الحكم وذلك في ٩ جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (٦ نيسان ١٩٧٩م) إذ أصبح المقدم أحمد بوسيف رئيساً للوزراء، ولكنه لم يلبث أن مات في حادث طائرة. فتسلم رئاسة الحكومة بعده محمد خونا ولد هيداله الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع. وبقي مصطفى ولد محمد السالك صورة رمزية لرئاسة الجمهورية.

رفّع محمد خونا ولد هيداله نفسه إلى رتبة وعزل رئيس الجمهورية وتسلم مكانه، ثم ترك رئاسة الحكومة، وعهد بها إلى معاوية ولد سيدي أحمد الطايع عضو اللجنة العسكرية.

كانت البلاد تعيش في ضائقة اقتصادية، ثم إنه رئيس الجمهورية عزل رئيس الحكومة، وتحمل منها هو: هذا ماجعل رئيس الحكومة المعزول معاوية ولد سيدي أحمد الطابع يقوم بحركة انقلابية في ١٩ ربيع الأول ١٤٠٥هـ (١٢ كانون أول ١٩٨٤م) ويتسلم رئاسة الجمهورية ورئاسة اللجنة العسكرية، ورئاسة الحكومة، وأطلق سراح السجناء السياسيين وسمح للمشردين بالعودة إلى البلاد، وسمح بالحريات، ومنع التدخل في شؤون القضاء.

الفصل الثامن
الصومال

كان عرب الجزيرة العربية بوجه عام وعرب اليمن وحضر موت وعمان بوجه خاص هم أول من عرف منطقة شرق إفريقية قبل غيرهم من الأمم الأخرى كالإغريق والرومان. ويذكر المؤرخون أن العرب استطاعوا منذ أقدم العصور أن يعبروا مضيق باب المندب، وأن يكتشفوا البلاد الواقعة إلى الجنوب من هذا المضيق من بلاد الدناقل شمالا إلى موزمبيق وجزيرة مدغشقر جنوبا.

ومن الملاحظ أن مضمون الاتصال بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين شرقي إفريقية، كان التبادل التجارى وتصريف منتجات المنطقة في شتى الأسواق العالمية. وساعد العرب على القيام بهذه المهمة عدة عوامل، أهمها مايلي:

أولاً - الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تدفع المراكب العربية من شواطىء شبه الجزيرة العربية والخليج العربى إلى ساحل إفريقية الشرقى، وذلك في الفترة من شهر كانون أول حتى أواخر شهر آذار، ثم الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تدفع تلك المراكب من ساحل إفريقية الشرقى لتعود إلى قواعدها عبر ألفي ميل من مياه المحيط الهندى، وذلك في الفترة من شهر نيسان حتى أواخر شهر أيلول.

ثانياً - موقع بلاد العرب الجغرافى الهام على الشريان التجارى العظيم بين الشرق الأقصى ومنطقة الشرق الأدنى. وكان هذا الشريان التجارى يبدأ من الصين والهند وجزر الهند الشرقية، ثم يسير بحرا بمحاذاة جنوبي بلاد العرب حتى مدخل البحر الأحمر، ثم يعبره إلى السويس أو العقبة، ومن العقبة يتجه شمالا إلى بلاد الشام ثم الى البحر المتوسط، ومن السويس يتجه إلى الإسكندرية، ومنها

إلى موانىء أوروبا.

ثالثاً ـ خبرة العرب الكبيرة في ركوب البحار واحاطتهم بأسرار الملاحـة في تلك الـرقعة المائية الشاسعة بين سواحل الهند، بالإضافة إلى معرفتهم بعلم الفلك وتحديد الاتجاهات بالشمس والكواكب.

على أن العرب لم يقتصروا على القيام بالوساطة في نقل المتاجر من سواحل شرقي إفريقية وإليها فحسب، بل دأبوا على اختيار قواعد على تلك السواحل تصلح كمحطات لتموين مراكبهم ولتخزين سلعهم التي كانت تأتى من داخل القارة، وتساعد على جعل مراكز للعمران يتجمع حولها السكان المحليون، وهى مراكز لم يحفظ التاريخ شيئا من أخبارها في عصر ما قبل الإسلام.

ثم جاء الإسـلام وساعد على خروج العرب من جزيرتهم مندفعين بحماسة عوة وكان من نتيجة الاضطرابات السياسية التي شهدتها الدولة الأموية من حدثت هجرات قبيلية من شبه جزيرة العرب إلى الساحل الإفريقي، ومنه تسللت إلى داخل القارة، حيث اختلطت بالسكان الأصليين من الإفريقيين. ثم وفدت خلال القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) هجرات عربية أخرى إلى ساحل إفريقية الشرقى، وأسس العرب المهاجرون هناك أول مدن أو مراكز تجارية معروفة في التاريخ. وكانت مقديشيو أول مدينة أسست وقتئذ على ساحل الصومال أو البنادر، ثم تلتها براوه. وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين (السـادس والسـابـع الهجريين) أسست مدن عربية أخرى في الساحل، أهمها (ملندى) و (ممبسة) و (لامو). وكانت كل مدينة من هذه المدن مستقلة بشؤونها الداخية. مما حدا بالمؤرخين إلى تشبيهها «بدول المدن» المعروفة في تاريخ الإغريق.

ومن الممكن القول بأن مجىء العرب إلى ساحل إفريقية الشرقى وإقامتهم به إقامة دائمة، كان بمثابة بدء لعهد جديد في تاريخ شرقي إفريقية، وهو عهد اتسم بظهور تغيرات واسعة في علاقات الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فمن الناحية السياسية حملت الهجرات العربية معها الإسلام كدين ونظام. كما

حملت معها أيضا بذور الاختلافات المذهبية والدينية التي شهدها العالم الإسلامى بين السنـة والشيعة والخوارج. واستطاعت هذه الهجرات أن تؤسس مدنا وإمارات وسلطنات.

ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أنه قبل مجىء الهجرات العربية ثم الفارسية لم تكن الجماعات البشرية المستقرة بساحل إفريقية الشرقي تعرف إلا رعى الأغنام والأبقار وصيد بعض الحيوانات كالفيلة وزراعة أنواع بسيطة من الغلات مثل اللوبيا والزنجبيل. ولكن بعد تأسيس المدن والإمارات والسلطنات الإسلامية، اشتغـل العرب الوافدون بالزراعة، وعملوا حرفة الزراعة لجيرانهم الإفريقيين، وأدخلوا زراعة قصب السكر والسمسم الهندى والتوابل وغيرها من الزراعات التي لم يعرفها ساحل إفريقية الشرق من قبل. وعلاوة على ذلك، غدت المدن العربية بمثابة محطات تفد إليها منتجات الجهات الداخلية من القارة، مثل الرقيق والعاج (أو سن الفيل) والذهب والعنبر والصمغ واللبان والبخور، وراح العرب يصدرون هذا السلع إلى الأسواق الخارجية ويستوردون في مقابلها المتاجر الشرقية. وعلى هذا النحو، نجح العرب في إخراج شرقي إفريقية عزلتها، وربطوها بأهم مصادر الإنتاج العالمى في الشرق الأقصى وفي بلاد البحر المتوسط.

ومن النـاحية الاجتماعية يلاحظ أن الإسلام لم يعرف الحاجز اللونى الذي لايسمح للرجل الأبيض بأن يندمج ويختلط مع قرينه صاحب البشرة السوداء. وكان لسمو الحضارة الإسلامية في هذا الشأن أثره في انتشار الإسلام في شرقي إفـريقية وتهيئـة الـظروف الموضوعية لتغيير علاقات الزواج في مجتمعات شرقي إفريقية، وبالتالي تكوين الشعب السواحلي.

ولقد نشأ الشعب السواحلى نتيجة للزيجات التي تمت على مدى طويل بين الجاليات العربية والفارسية وبين قبائل البانتو الإفريقية. وكان من الطبيعى أن يعتنق السـواحلية الإسـلام، بل إنهم صاروا يقلدون العـرب في كل مايتصل بحياتهم الاجتماعية. ومع أن السواحلية ينحدرون أصلا من قبائل البانتو، إلا أن ملامحهم وصفاتهم الجسمانية قد تعدلت إلى حد كبير نتيجة لامتزاجهم بالدماء الآسيوية. ومع تكوين الشعب السواحلى، نشأت اللغة السواحلية، وهي خليط من اللغة العربية ولغة البانتو.

ورغم ازدهـار المدن والإمارات العربية في ساحل إفريقية الشرقى، إلا أنها كانت تفتقر إلى قوة حربية منظمة. ولم تكن الأسلحة التي يتقلدها أهل هذه المدن والإمارات تتعدى السيوف والخناجر. ويمكن تعليل افتقار تلك المدن والإمارات لقوة حربية منظمة، إلى أنها لم تقم أصلا على الفتح بل على التجارة، إذ أن التجـار والمهـاجرين العرب هم الذين أسسوها، وهم الذين امتلكوا الأراضى الزراعية فيها وتولوا تصريف السلع التي تأتى من داخل القارة في الأسواق العالمية.

وكان بعد اكتشاف طريق رأس الرجال الصالح عام ٩٠٤هـ (١٤٩٨م) على يد فاسكو دى غاما، أن وصل النفوذ البرتغالى إلى سواحل شرقي إفريقية. ومنذ أوائل القرن السادس عشر، أخذ البرتغاليون يرسلون الحملات البحرية إلى هذا الساحل، بغية الاستيلاء عليه وتوطيد نفوذهم به، فأرسلوا لهذا الغرض (كابرال) و (فاسكو دي غاما) و (دالميدا) و (البوكيرك) على التوالي وكانت النتيجة أن أستولى البـرتغاليون على بعض المدن العربية بساحل إفريقية الشرقى، وأحالوا بعضها الآخر إلى توابع أو حلفاء لهم. والحقيقة أنه لم يأت عام (٥١٩هـ (١٥٠٩م) إلا وكـانت جميع المـدن والمـراكـز التجـارية بسـاحـل إفريقية الشرقى قد خضعت للبرتغاليين: من (سفالة) جنوبا إلى (براوة) شمالا، بالإضافة إلى جزر (زنجبار) و (بمبه) و (مافيا)، وكذلك (موزامبيق).

وارتكز البرتغاليون في ساحل إفريقية الشرقى على الجزء الجنوبى منه. وأما الجـزء الشـمالي من الساحل، والذي يمتد من رأس (دلغادو) جنوبا إلى رأس (غردافوى) شمالا، فقد اكتفى البرتغاليون بالاعتماد على مخالفة شيوخ (ملندى).

ومـما يجب ذكـره أن سلطة الـبرتغـاليين لم تتوطد بسهولة في ساحل إفريقية الشرقى، فقـد أخـذ الغـرب يحرضون الأهالى على طرد البرتغاليين من المراكز التجارية التي كانوا هم أصحاب التصرف المطلق فيها. وكانت (ممبسة) هي التي بدأت حركـة المقـاومـة العـربية ضد الاستعـمار الـبرتغالى. ففي عام ٩٣٤هـ (١٥٢٨م) حاول سلطان (ممبسـة) تحريض أهالى (زنجبار) و (بمبه) على طرد البرتغاليين، ولكن الأهالى خشوا العاقبة فوشوا به لدى السلطات البرتغالية التي أسرعت بضرب الحصار على (ممبسة)، وعرضت على سلطانها معاهدة اشترطت

مقابل فك الحصار أن يدفع فدية للبرتغال، وأن يتعهد بعدم الاتصال بالاتراك العثمانيين.

وفي هذا الوقت كان الأتراك العثمانيون قد استولوا على بلاد المشرق العربى، فابتدأوا بالشام ثم مصر فالحجاز فاليمن، واتخذوا من عدن قاعدة لمهاجمة المحطات والمراكز التجارية البرتغالية في المحيط الهندى والخليج العربى. ومع أن العثمانيين نجحوا بعض الشيء في تخفيف الضغط البرتغالى على التجار العرب والإمارات العربية الساحلية وحطموا كل المحاولات الرامية إلى تكوين جبهة نصرانية من البرتغاليين والأحباش ضد القوى العربية الإسلامية على البحر الأحمر وشرق إفريقية، إلا أن جهود الأتراك في البحار الشرقية لم تؤد إلى نتائج حاسمة. إذ أن الأتراك لم يحاولوا أن يكتلوا القوى الإسلامية المبعثرة على شواطىء المحيط الهندى أو يكونوا منها جبهة تعمل في تناسق ضد البرتغاليين. ومن هنا لم يَقدم العثمانيون يد المساعدة لسكان والإمارات العربية بشرق إفريقية إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وجاءت مساعدتهم لهم بطريقة غير مباشرة على يد أحد أمراء البحر العثمانيين ويدعى على (ميرال).

ففي عام (١٥٨٦م) جاء (علي ميرال) إلى مقديشيو، وأبلغ أهلها أنه موفد من قبل السلطان العثماني ليوطد نفوذه وحكمه على الساحل الإفريقي. وحتى يشجع سكان الساحل على الجهاد ضد البرتغاليين، أوهمهم بأن أسطولا عثمانياً ضخما في طريقه إلى مياه شرقى إفريقية، مما كان له أثره في إسراع أهل مقديشيو بالاعتراف بسيادة السلطان العثماني. واستطاع (علي ميرال) بمساعدة الأهالى أن يأسر بعض السفن البرتغالية وأن يرسل بحارتها إلى الآستانة، ولكنه لم يلبث وقع أسيرا في أيدى البرتغاليين، فأرسل إلى لشبونة، حيث توفي هناك. واستعاد البرتغاليون نفوذهم على المدن والإمارات العربية بساحل إفريقية الشرقى باستثناء مقديشيو.

واستطاع البرتغاليون أن يسيطروا على زمام الموقف في ساحل إفريقية الشرقى حتى حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى، إلا أنهم تعرضوا في النصف الثاني من هذا القرن لمقاومة شديدة من جانب سكانه المسلمين بمساعدة دولة اليعاربة (١٢٦٤-١٧٤١م) في عمان. فقد أرسل الإمام سيف بن سلطان عام

١٦٩٨م أسطولاً بحريا إلى ساحل إفريقية الشرقى، استطاع أن يطرد البرتغاليين من ممبسة، ثم أخذت عمان تعمل لنشر نفوذها على الساحل. وعلى أوائل الثلاثينات من القرن الثامن عشر الميلادي، كانت عمان قد نشرت نفوذها على الساحل من مقديشيو شمالا إلى نهر روفوما جنوبا، ولم يتبق للبرتغاليين من ممتلكاتهم في هذا الساحل سوى مستعمرة موزمبيق.

ولكن عرب شرقي إفريقية لم يرحبوا بعرب عمان إلا كمخلصين لهم من قسوة الاحتلال البرتغالي وظلمه، وليس كأسياد جدد يحلون محل البرتغاليين ويفرضون سيادتهم عليهم. ولذلك أخذت الروح الاستقلالية تنمو بين سكان موانى ساحل إفريقية الشرقى وجزره. ولاسيما بعد سقوط دولة اليعاربة في عمان وحلول دولة آل بوسعيد محلها عام ١١٥٤هـ (١٧٤١م)، حيث استأثر المزروعيون بحكم ممبسة وتوابعها.

وبعد صراع طويل بين ممبسة وبين عمان، أو بالأحرى بين المزروعيين وبين آل بوسعيد، استطاع السيد سعيد بن سلطان عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) إنزال قواته في ممبسة والاستيلاء عليها. وأدى خضوع ممبسة لعمان إلى انتشار النفوذ العمانى في كل ساحل إفريقية الشرقى من (وارشيخ) شمالا إلى رأس (دلغادو) جنوبا، بالإضافة إلى جميع الجزر المجاورة لهذا الساحل.

وكان السيد سعيد بن سلطان قبل أن يخضع ممبسة عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م) قد نقل عاصمته من مسقط في عمان إلى زنجبار بساحل إفريقية الشرقي منذ عام ١٢٨٤هـ (١٨٣٢م)، إلا أنه لم يستقر نهائيا في عاصمته الجديدة إلا في عام ١٢٥٦هـ (١٨٤٠م)، لانشغاله في محاربة ممبسة من جهة، واضطراره من جهة أخرى للعودة إلى عمان بين الحين والآخر لإخماد القلاقل والاضطرابات الداخلية فيها.

ومما تجدر ملاحظته أن السلطنة العمانية بقسميها الآسيوى والإفريقى كانت تكون دولة واحدة في عهد السيد سعيد بن سلطان، وظلت كذلك حتى وفاته عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م). وكان السيد سعيد قبل وفاته قد عين ابنه ماجد حاكما على القسم الإفريقي من السلطنة. وعين ابنه (ثوينيى) حاكماً على القسم الآسيوى منها. فلما توفي السيد سعيد عام (١٢٧٣هـ (١٨٥٦م)، حدث نزاع

بين الشقيقين على الحكم، ولكن بريطانيا لم تلبث أن تدخلت في هذا النزاع، فأصـــدر اللورد كانـنـــج حاكم الهنـــد العـام حكمـه المشهـور عام (١٢٧٨هـ (١٨٦١م)، والـذي ينص على أن يعـين ماجـد سلطانـا على زنجبار وتوابعها الإفريقية، وأن يعين ثوينى سلطانا على عمان وملحقاتها على الخليج العربى، بشرط أن يدفع ماجد لثوينى اعانة سنوية مقدارها ٠٠: ٤٠, ريال. ونجحت بذلك بريطانيا في تقسيم السلطنة العمانية.

ولقد ظل ماجد يحكم سلطنة زنجبار حتى توفي عام ١٢٨٨هـ (١٨٧٠م)، فخلفـه أخوه برغش بن سعيد ١٢٨٨-١٣٠٦هـ (١٨٧٠-١٨٨٨م). وفي عهد برغش جاءت حملة مصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م) بهدف فتح طريق للمواصلات بين خليج ممبسة أو مصب نهر الجب (جوبا) وبين مديرية خط الاستواء المصرية (السودان الجنوبي). ولكن الحملة فشلت في تحقيق غرضها أمام معارضة جون كيرك قنصل بريطانيا في زنجبار. وكانت سياسة جون كيرك في سلطنة زنجبار تعتمد على عاملين رئيسيين:

١ ــ عامل التظاهر برعاية مصالح سلطان زنجبار والمحافظة على ممتلكاته، أو بعبارة أخرى التستر وراء السلطان لتشديد قبضة بريطانيا على شرق إفريقية وتنفيذ أغراضها ومخططاتها فيها بسهولة.

٢ ــ والعامل الآخر، هو إبعاد الدول الأخرى عن تلك المنطقة من القارة، والتي ازدادات أهميتهـا الدولية بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٢٨٧هـ (١٨٦٩م)، واتصال زنجبار بعدن والهند بخطوط ملاحية منتظمة.

ومن المـلاحظ أنه قبل مجيء الحملة المصرية إلى ساحل الصومال الجنوبي، كانت الإدارة المصرية في عهد الخديوى اسماعيل قد امتدت على طول ساحل البحر الأحمر الغربى وبعض أجزاء من بلاد الصومال على النحو التالي:

١ ــ في عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) حصلت مصر من الدولة العثمانية على حق إدارة ولايتى مصوع وسواكن.

٢ ــ في عام ١٢٨٨هـ (١٨٧٠م) أنشأت مصر محافظة سواحل البحر الأحمر وتمتد من السويس شمالا إلى راس غردافوى جنوباً.

٣ ـ في عام ١٢٩٣هـ (١٨٧٥م) تنازل الباب العالى لمصر عن ميناء زيلع مقابل جزية سنوية مقدارها ١٥,٠٠٠ جنيه تركي.

والواقع ان الشاطىء الجنوبي لخليج عدن ظل تابعا لمصر حتى عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م)، حين أرغمت مصر على إخلاء السودان وجميع الموانىء المطلة على البحر الأحمر فيما عدا سواكن، وذلك بعد عامين من خضوع مصر للاحتلال البريطاني. وسرعان ما أطلت حركة التسابق الاستعمارى الأوروبى على منطقة شرقي إفريقية، وهي الحركة التي ترتب عليها تفتيت وحدة الصومال واقتسامه بين فرنسا وبريطانيا وإيطاليا، ثم حصول كل من أثيوبيا وكينيا على أراض منه.

وكـانت فرنسـا في الحقيقـة أول دولـة أوروبية تبدي أهتماماً كبيراً بالساحل الإفريقي المطل على خليج عدن، وذلك منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي، كنتيجة لاستيلاء بريطانيا عام (١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) على عدن القريبة من مدخل البحر الأحمر. وفي عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) عقدت فرنسا مع سلطان (رهيطة) ويدعى ديني أحمـد أبو بكر معاهدة اتفق فيها على أن يتنازل شيوخ الـدناكل للإمبراطور نابليون الثالث مقابل ١٠,٠٠٠ ريال عن ميناء (أوبوك) وخليجه، مع السهل الممتد من رأس (علي) جنوباً إلى رأس (دوميرا) شمالا.

ولقد أخذت فرنسا منذ هذا الوقت تعقد معاهدات مع الشيوخ المحليين أو السـلاطـين لتـوسيع ممتلكـاتها على الساحل الإفريقي المطل على خليج عدن. وحـرصت فرنسا على أن تثبت في هذه المعاهدات أن هؤلاء السلاطين رؤساء مستقلون يتمتعون بسيادة تامة على بلادهم. كما صارت البوارج الفرنسية تظهر منذ هذا الحين بكثرة في مياه خليج عدن.

وفي عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) أسس الفرنسيون محطة أفضل من (أوبوك) عند رأس جيبوتى، التي تسيطر على نهاية طريق القوافل من هرر والحبشة، وسرعان ما هجر التجار الفرنسيون (أوبوك)، واتجهوا بقوافلهم إلى (جيبوتى)، كما انتقلت السلطات الفرنسية نفسها من (أوبوك) إلى هذا الميناء الجديد، الذي تقرر اتخاذه عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) عاصمة لمستعمرة الصومال الفرنسي.

ومن الجـدير بالذكر أن الروح الوطنية لم تظهر في الصومال الفرنسي بشكل

واضح إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وإن كانت قد قامت شواهد قبل ذلك تشير إلى قيام حركة مقاومة للاستعمار الفرنسي في صورة مطالبة ببعض الحقوق السياسية. والواقع ان الحياة السياسية في الصومال الفرنسي قد تطورت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تطوراً تدريجياً، ولكنه ملحوظ. فظهرت عدة أحزاب أو تكتلات مثل: الاتحاد الجمهورى الصومالى، والاتحاد الديمقراطي للعفر، ورابطة العيسى الديمقراطية، واتحاد العيسى الديموقراطى.

استـفـتــــاء عـــام ١٩٥٨م

وفي عام ١٣٨٧هـ (١٩٥٨م)، جرى استفتاء على دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة، وفي هذا الاستفتاء خير سكان الصومال الفرنسي بين استمرار تبيعتهم لفرنسا وبين الاستقلال. وقد أثار هذا الاستفتاء خلافاً كبيراً بين الصومـاليين، وأسفـر عن ٧٥٪ في صالـح استمرار التبعية لفرنسا. وقد ذكر بعض المراقين والمحليين السياسيين أن نتيجة هذا الاستفتاء ترجع إلى خوف أهالي الصومال الفرنسي من أطماع أثيوبيا في بلادهم، تلك الأطماع التي أفصحت عنها تصريحات الامبراطور هيلاسلاسى، والتي أعلن فيها أن ساحل الصومال جزء لايتجزأ من الأراضى الأثيوبية لاعتبارات تاريخية وعنصرية واقتصادية. فالصومال الفرنسى ـ على حد تعبير الإمبراطور ـ كان تابعاً لأثيوبيا منذ القدم إلى أن ثم تقسيم شرقي إفريقية بين الدول الإستعمارية.

أما العناصر الوطنية في الصومال الفرنسي فقد اتهمت السلطات الفرنسية في جيبـوتى بتزوير الاستفتاء، وليس فقط لاستمرار الاستعمار الفرنسى للمنطقة، ولكن أيضاً لإيهام الرأى العام الفرنسى والدولى بأن هناك انقساماً قبلياً خطيراً في الصومال الفرنسى بين الصوماليين والدناكل لا يشجع على قيام حكومة واحدة متسقلة.

وإن لقلة السكان وفقر المنطقة وجهل الأهالي وانصرافهم وراء لقمة العيش لتلعب دوراً رئيسياً في تأخر روح المقاومة.

وإذا كان قد ترتب على استفتاء ١٣٧٨هـ (٢١٩٥٨م) استمرار تبعية جيبوتى لفرنسا، إلا أنه كان بداية لنشأة روح التذمر عند الشعب. وتظهر روح التذمر في تلك المظاهرات الصاخبة التي نادت باستقلال البلاد، والتي استقبلت الجنرال ديغول عند زيارته لمستعمرة جيبوتى عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

وكان الإنجليز يتتبعون بحذر شديد منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر الميلادي نشاط الفرنسيين على ساحل الصومال المطل على خليج عدن، إذ رأوا أن مصالحهم في عدن تقتضى عدم وقوع ذلك الساحل تحت نفوذ فرنسا. فمن المعـروف أن مستعمرة عدن البريطانية كانت تعتمد في تموينها اعتماداً تاماً على مينائي (زيلع) و (بربرة) الواقعين على ساحل الصومال المطل على خليج عدن. ومن ناحية أخرى، فقد تبين للانجليز أن وقوع الشاطىء الجنوبي لخليج عدن في قبضة الفرنسيين، وما يتبع ذلك من قيام قوة حربية فرنسية معادية في مدخل البحر الأحمر وعلى طريق الهند، يهدد بريطانيا في كيانها الاستعمارى في الهند ذاتها، ويمنع الأسـاطيل الـبريطانية من السيادة البحـرية على سواحل إفريقية الشرقية وسواحل بلاد العرب الجنوبية. يضاف إلى ذلك عامل آخر، هو مااكتسبه ساحل الصومال المطل على خليج عدن من أهمية بسبب افتتاح قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٢٨٧هـ (١٩٦٩م).

ولهـذه الأسبـاب إذن، تذرعت بريطانيا التي احتلت مصر عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) باندلاع الثورة المهدية في السودان وفشل مصر في إخمادها، فأرغمت الحكومة المصرية عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) على إخلاء سواحل شرق إفريقية، من مضـيق باب المـنـدب إلى رأس حافـون. وقـامـت مصر فيما بين سنتـى ١٣٠٢-١٣٠٦هـ ١٨٨٤ و ١٨٨٨م) بإخلاء المنطقة التي تضم موانىء (زيلع) و (بلحار) و (بربرة) على خليج عدن، ليستولى عليها الانجليز ويؤسسوا بها ما عرف باسم الصومال البريطاني.

استقلال الصومال البريطانى

وكـان لاقتسام الصومال وتفتيته إلى مناطق نفوذ بين الدول الاستعمارية وقع شديد الأثر في نفس الوطنيين، مما أدى ظهور حركة وطنية بقيادة محمد بن عبدالله حسن المعروف بالملا تستهدف طرد المستعمرين من بلاد الصومال. وقد بدأ الملا حركتـه السياسية عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) عنـدما أعلن أنه مهدى الصومال، ونـادى بالجهـاد المقـدس ضد الإنجليز، فالتف حوله كثيرون من الاتباع، الذين أطلق عليهم اسم الدراويش، واسمى الذين رفضوا الانضمام إلى حركته من الصوماليين بالكفرة.

واتخذ الملا من الركن الجنوبى الشرقى من محمية الصومال البريطاني مسرحاً

لنشاطه ضد الإنجليز. ونجح في السيطرة على داخل البلاد لمدة من الزمن بلغت حوالى العشرين عاماً، أقض خلالها مضاجع البريطانيين الذين اضطروا إلى إخلاء الأقاليم الداخلية من محمية الصومال البريطاني والمحافظة على الثغور الساحلية. وفيها بين سنتى ١٣١٨-١٣٢٢هـ (١٩٠٠ و ١٩٠٤م)، استطاع الملا الإفلات من أربع حملات بريطانية متعاقبة، نظمتها السلطات البريطانية للإيقاع به.

والواقع أن الملا ظل شوكة في جنب البريطانيين حتى عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) ففي هذا العام استطاعت القوات البريطانية أن تنزل الهزيمة بقوات الملا بعد سلسلة من المعارك، وقيل أن الملاقد جرح في احدى هذه المعارك الختامية، واضطر للهرب الى اقليم أوغادين ليعيد تنظيم صفوفه، ولكنه لم يلبث أن مات متأثراً بجراحه. ولا تزال سيرة الملا يتغنى بها الصوماليون. وعلى الرغم من وفاة الملا، فقد استمر كفاح الصوماليين ضد الاستعمار البريطاني لبضعة شهور أخرى، ومنذ هذا الوقت وحتى قيام الحرب العالمية الثانية سيطرت بريطانيا على الصومال البريطاني سيطرة تامة.

وأما فيما يتعلق بالصومال الإيطالي فمن المعروف ان الإيطاليين بعد استيلائهم على مصوع عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) قد بدأوا يبسطون نفوذهم على الصومال، ولكن بخطوات وئيدة. وفي عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) عقد الإيطاليون معاهدتى حماية مع سلطانى (أوبيا) و (ميجورتين).

على أنه بالرغم من خضوع سلطنتى (أوبيا) و (ميجورتين)، أي ساحل الصومال الشمالي المطل على المحيط الهندى، للحماية الإيطالية منذ عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، فقد ظل هذا الساحل في الواقع بعيداً عن أيدى الإيطاليين حتى ١٣٤٣-١٣٤٥هـ (١٩٢٥-١٩٢٧م)، عندما أرسل هؤلاء حملة حربية أدخلته مباشرة تحت الحكم الإيطالي.

وكان بسبب الضائقة المالية التي تعانى منها إيطاليا، إلى جانب انشغالها بنشر نفوذها السياسي في الإمبراطورية الأثيوبية، أن أسند حكم مستعمرة ساحل (البنادر) إلى الشركات الإيطالية. وعلى العموم، فقد ظلت إيطاليا تحتل الصومال الإيطالي حتى الحرب العالمية الثانية.

وكانت العناصر الوطنية في الصومال الإيطالي قد أجمعت على ضرورة انتهاز فرصة هزيمة إيطاليا في الحرب العالمية الثانية وحاجة بريطانيا إلى تأييد الصومال وغيره من الدول، فتقدمت إلى الإدارة البريطانية ببرنامج سياسي تضمن تصفية الاستعمار من كل أجزاء الصومال وتوحيدها في ظل علم واحد ودولة واحدة وإلغاء التعصب القبلي وكل التقاليد المناهضة لمضمون الدولة، وأن يكون الصومال جمهورية ديموقراطية، ودينه الرسمى هو الإسلام.

وفي مطلع ربيع أول ١٣٧٠هـ كانون أول (١٩٥٠م) وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على وضع الصومال الإيطالي تحت الوصاية الدولية لمدة لاتتجاوز عشر سنوات، وأن تكون إيطاليا هي الدولة التي تتولّى تنفيذ الوصاية بإشراف مجلس استشارى للصومال يتبع هيئة الأمم المتحدة. وكان هذا المجلس يتكون من مندوبى دول ثلاث: هى مصر والفلبين وكولومبيا.

وفي ١٥ صفر ١٣٧٤هـ (١٢ تشرين أول ١٩٥٤م) نفذت الإدارة الإيطالية ـ بإشراف هيئة الوصاية الدولية أول بند من بنود استقلال الصومال وتهيئة شعبه لتولى زمام أموره، وذلك حين احتفل بإنشاء العلم الصومالى، ثم بدأ مشروع صوملة الوظائف، وكانت كل الوظائف تقريباً حتى ذلك التاريخ: في الجيش والشرطة والإدارة والمصالح والتعليم وشتى المرافق في أيدى الأجانب.

وكانت الحركة الانتقالية الكبرى بعد إنشاء العلم الصومالى وصوملة الوظائف، هي إجراء انتخابات لأول مرة في الصومال لتكوين أول مجلس تشريعي في البلاد. وي شعبان ١٣٧٥هـ (آذار مارس ١٩٥٦م) أجريت الانتخابات العامة، التي أسفرت عن حصول حزب وحدة الشباب الصومالي على غالبية المقاعد، حين ظفر بثلاثة وأربعين مقعدا من مجموع المقاعد البالغ سبعين مقعداً. واقتسمت الأحزاب الاخرى بقية المقاعد. وانتهت الانتخابات لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تنفيذ اتفاقية الوصاية، وهى تشكيل أول وزارة في تاريخ الصومال الحديث من حزب الأغلبية الذي فاز في الانتخابات. وشكل بالفعل الوزارة من خمسة وزراء إلى جانب رئيسها عبدالله عيسى. وفي جمادى الآخرة ١٣٧٩هـ (كانون أول ١٩٥٩م) أصـدرت الجمعية العـامـة للأمم المتحـدة قراراً بمنح هذا الجزء من الصومال الموضوع تحت الوصاية الدولية الاستقلال في مطلع عام ١٣٨٠هـ (أول تموز ١٩٦٠م).

وبينما كان هذا يحدثُ في الصومال الإيطالي السابق، كانت الحركة الوطنية يشتد ساعدها في الصومال البريطاني بزعامة حزبين كبيرين، هما الرابطة الوطنية الصـومالية والحزب الصومالي المتحد. وطالب كلا الحزبين بالاستقلال الفورى والـوحـدة مع الصومال الايطالي السابق. وفي ١٠ شوال ١٣٧٩هـ (٦ نيسان ١٩٦٠م) اتخـذ المجلس التشريعي بالصـومـال البريطاني قراراً بوحدة الصومال البريطاني مع الصومال الايطالي بعد حصول الأخير على استقلاله.

وعلى كل حال، ففي ٢٦ ذي الحجة ١٣٧٩هـ (٢٠ حزيران ١٩٦٠م) أعلن استقلال الصومال البريطاني، كما حصلَ الصومال الايطالي السابق على استقلاله في ٧ محرم ١٣٨٠هـ (أول تموز ١٩٦٠م). وتلا ذلك وحدة كل من الصوماليين البريطاني والإيطالي، وكان من الإقليمين جمهورية واحدة باسم جمهورية الصومال. بينـما رفضت فرنسـا منـح الصومال الفرنسي استقلاله، وظل سكانه يكافحون الاستعمار الفرنسى حتى حصلوا على الاستقلال عام ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) و كانت جمهورية جيبوتى.

الفصل التاسع

فتح المسلمون الأوائل مصر، ومنها انتقلوا إلى الغرب فدخلوا شمالي إفريقية، واستقروا هناك، فساد الإسلام، وعمت اللغة العربية، ورسخت أقدامها، وزادها رسوخاً انتقال كثير من القبائل العربية إلى تلك الجهات، وتوطنها الأمر الذي جعل هذه الأجزاء ضمن البلدان العربية يوم تجزأت الأمة المسلمة إلى عصبيات.

ومن شمالي إفريقية انتقل الإسلام إلى بقية أجزائها، ففي غربي إفريقية كان العامل البارز في هذا الانتقال إلى الدول التي قامت في شمالي إفريقية وغربيها، ثم إلى ارتحال القبائل والدعاة والتجار، وفي الجهات الوسطى كان أثر الارتحال واضحاً هذا بالإضافة إلى الدور الذي قامت به الإمارات وما بذله الدعاة الذين لايكاد يخلو أثرهم من مكان وفي كل عصر.

أما في شرقي إفريقية فقد كان ركوب البحر الطريق الطبيعية التي سلكها الإسلام فالتجارة، وانتقال الأفراد والجماعات، وتأسيس الإمارات، وفي النهاية برز دور سلطنة عُمان بشكل ظاهر ثم غدا شرقي إفريقية جزءاً تابعاً لعُمان، ثم دولة منفصلة يحكمها العمانيون حتى سنوات قليلة خلت ومن الشرق توغل المسلمون تجاراً ودعاة إلى أواسط القارة حتى اقتربوا من غربيها، وبذا كان امتداد نفوذ المسلمين وإماراتهم إلى مسافات أبعد جنوباً بكثير من بقية جهات القارة.

وهكذا عمّ الاسلام الأجزاء الشمالية كلها من قارة إفريقية حتى أقرب من خط الاستواء، وتجاوزه على شاطىء الشرق بمراحل كثيرة. ويمكن تقسيم البلدان الإسلامية في إفريقية من حيث الموقع إلى:

١ ـ بلدان شمالي إفريقية: وهي البلدان العربية، وعددها سبع، ويزيد عدد

سكانها على المائة مليون، وتعدّ بعض مناطقها أكثر جهات إفريقية كثافة بالسكان، وخاصة دلتا النيل ووادية مثل المناطق الساحلية في بلاد الغرب، بينما يقلّ السكان في البقاع الصحراوية بشكل واضح بحيث لاتصل الكثافة إلى شخص واحد في الكيلومتر المربع.

٢ ــ بلدان وسط إفريقية (دول الصحراء)؛ وعددها خمس، وهى: تشاد، والنيجر، ومالي، بوركينا فاسو، وإفريقية الوسطى، وتعد هذه الدول أقل نواحى إفريقية كثافة بالسلطان لأن الصحراء تغطى أكثر أرجائها، ولايزيد عدد سكانها مجتمعه على خمسة وعشرين مليوناً.

٣ ــ بلدان شرقى إفريقية: وعددها خمس، وهى: الصومال، وجيبوتى، والحبشه، وتانزانيا، وجزائر القمر انضمت الأولى والثانية منها إلى جامعة الدول العربية، وتحكم الثالثة منها النصرانية المتمكنة الجذور في المنطقة رغم أنها لاتتجاوز ثلث/السكان كثيراً، ويسيطروا على الرابعة النصارى الذين أوجدهم الاستعمار، أما الخامسة فهى جزر صغيرة قليلة السكان خرجت حديثاً من نير الاستعمار، وتسود العربية فيها.

ويقدر عدد سكان هذه الدول بخمسة وأربعين مليوناً، وتعدّ ذات كثافة متوسطة بسبب اعتدال مناخها لارتفاعها، ولوجود السهل الساحلى وقيام الموانىء التجارية على الشاطىء.

٤ ــ بلدان غربى إفريقية: وهي التي تمتد على سواحل المحيط الأطلسى من جنوب البلدان العربية وحتى زاوية خليج غينيا، وعددها تسع دول، وهي: سنغامبيا، وغينيا ـ بيساو. وغينيا، وسيراليون، وساحل العاج، والتوغو، وبنين، ونيجيريا، والكاميرون، ويزيد عدد سكانها على المائة وعشرين مليونا، وتعدّ صغيرة وقليلة الكثافة باستثناء نيجيريا التي تضم أربعة أرباع المجموع، وهى أكثر دول إفريقية سكاناً.

وبذا يكون عدد الدول الإسلامية في إفريقية ستا وعشرون دولة، وترتفع نسبة المسلمين في البلدان المجاورة حتى تزيد على الثلث وتقترب أحياناً من النصف الأمر الذي يجعلها قريبة من أن تصبح ضمن العالم الإسلامى، كما هى الحال في شرقى إفريقية وغربيها مثل: أوغندة، وكينيا، وموزامبيق، ومالاغاشى في

الشرق، وغانا، والغابون في الغرب.

ويكـون عدد سكان الدول الإسلامية في إفريقية قريباً من ثلاثمائة مليون، ويشكل هذا الرقم ثلاثة أرباع سكان القارة، وفي الواقع فإن نسبة المسلمين في القارة كلها تقترب من ٦٠٪ من مجموع السكان، وتعد قارة مسلمية بهذا الرقم.

دول وسط إفريقية

« دول الصحراء »

تنتشر الصحراء الكبرى على مساحاتٍ واسعةٍ من إفريقية، وتمتد من سواحل المحيط الأطلسى في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق، لايشذّ عن ذلك سوى الواحات التي تمتد على شكل شريط على طول مجارى الأنهار إن وجدت مثل: نهر النيل، والنيجر، والسنغال، أو على شكل بقع صغيرة من الخضرة توجد حيث تنبجس عيون من المياه فتشكل منطقة مأهولة تتباين مساحتها حسب كمية الماء التي تنبع هناك، أو تتوافر في باطن الأرض، ويمكن استخراجها بطريقةٍ أو بأخرى.

وتشتمل هذه الصحراء مساحات واسعة من البلدان العربية في إفريقية، وأجزاء كبيرة من البلدان الإسلامية التي تقع وسط إفريقية، وإذا كانت البلدان العربية تمتد نحو الشمال لتضم أجزاء من منطقة البحر الأبيض المتوسط ذات الأمطار الشتوية، والتي يعتدل مناخها لوقوعها على درجات العرض الموسطة والملامسة سواحلها للمياه المعتدلة فإن دول وسط إفريقية الإسلامية بالمقابل تمتد نحو الجنوب لتضم أجزاء من المناطق السودانية ذات الأمطار الصيفية التي تعدل بدورها من الحرارة المرتفعة، وتساعد في إنبات الحشائش الطويلة (السافانا)، كما توجد أشجار على ضفاف الأنهار، وأجمات في بعض المرتفعات، ومن هنا كانت هذه البلاد صحراوية في الشمال سودانية في الجنوب، ويسكنها عرب وبربر في الشمال، وزنوج في الجنوب. وليست هذه الدول ذات أراض جافة فقط، وإنما هي بلاد داخلية بعيدة عن البحار، منزوية وسط القارة وهى: تشاد، والنيجر، ومالى، بوركينا فاسو، وإفريقية الوسطى. وإذا كانت الدول الثلاث تشمل مناطق واسعة من الصحراء-أما الدولتان الأخريان فلا تضم أراضيهما بقاعاً جافة تماما كما هى في الصحراء الكبرى إذ لاتمتدان نحو الشمال لتصلا إلى تلك البقاع وإنما تقتصر على المناطق السودانية ذات الأمطار الصيفية ولكن تلك الأمطار قليلة فيهما ولبعدهما عن البحار.

تشـــاد

لمحة جغرافيـــة :

تشغـل تشاد مساحة واسعة تزيد على مليون وربع من الكيلومترات المربعة (١,٢٨٤,٠٠٠كم٢) وتميل أرض تشاد بشكل عام نحو الجنوب الغربي، يدل على ذلـك اتجـاه المياه من مختلف الجهات نحو بحيرة تشاد التي أخذت البلاد اسمها. . وتتألف من سهل رسوبي واسع، تحيط به المرتفعات من جميع الجهات، وبـين هذه المرتفعات عتبات تصل بين تشاد من جهة وبين ليبيا، والسودان، وإفريقية الوسطى من جهة ثانية. وتتقاسم تشاد البحيرة مع كل من نيجيريا، والنيجر، والكاميرون، والبحيرة قليلة العمق، حيث لايزيد أكبر عمق فيها على ٤,٥م، وغالبًا مايساوي المترين، وتغطى النباتات $\frac{٤}{١٠}$* مساحة البحيرة، وأهـم هذه النبـاتـات القصب الذي يصل ارتفاعه إلى ٦ـ٨م، والطحالب التي تعيق الملاحة فيها. وتزيد مساحة هذه البحيرة على مساحة دولة لبنان (١٠,٠٠٠كم٢).

تمتد البلاد بين خطى عرض ٧,٣٠ و ٢٣,٣٠ شمال خط الاستواء، وعلى هذا فهي تقع ضمن مناخى السودان والصحراء، فالمناخ السوداني كما هو معروف يمتد من ٨ـ١٨° أما الصحراء فهى بين خطى عرض ١٨-٣٠°.

يمتـاز المنـاخ السـوداني بفصـل جاف وهو فصل الشتاء، وفصل مطير وهو الصيف، ويبلغ معدل المطر أكثر من ٥٠ سم تنمو خلال ذلك الأعشاب الطويلة التي ارتفاعها إلى ثلاثة أمتار، ويتناقص هذا الطول كلما اتجهنا شمالاً حيث تقل أيضاً مدة المطر وكميته، أما على ضفاف الأنهار فتنمو الأشجار العالية.

وبـلاد تشـاد حارة كلها بوجه العموم، ولكن ترافق هذه الحرارة رطوبة في الجنوب، وتهب رياح شمالية شرقية جافة تحمل معها الرمال، وتسود أكثر أيام السنة وإن كانت تصل إلى الجنوب رياح بحرية من المحيط الأطلسى وذلك في فصل الصيف وهي من الموسميات، وتسبب فيضان الأنهار.

يجرى في الجنـوب نهر (شـارى) الـذي ينبع من جمهورية إفريقية لوسطى، وكذلك نهر (لوغون) الذي يشكل الحدود بين تشـاد والكاميرون، أما في الشمال فالمجارى المائية سيول تجرى عقب الأمطار ثم لاتلبث أن تجف، ولا تزال بعض البحيرات وسط السهل الرسوبي.

تعد تشاد بلاداً رعوية وزراعية، فتربى مليوني رأس من الأغنام ومثلها من الماعز وثلاثمائة ألف من الإبل ذات الوبر الطويل وتعد واسطة النقل الوحيدة في الصحراء.

وتقوم الزراعة بالدرجة الأولى في الجنوب فنجد القطن ويزيد إنتاجه على ٨٠ ألف طن، والأرز وتنتج ٢٥ ألف طن، ويستهلك محلياً، ثم هناك الدخن، والـذرة، والفـول السـوداني، وقليل من الحنطة، والتمر، والموز، وجوز الهند، والكاكاو، كما تربى الأبقار في الجنوب، وتزيد عن الحاجة فتصدر اللحوم والجلود. وتصيد ثمانين ألف طن من الأسماك، ولاتزال الغابة على شكلها الطبيعى لم تمس بعد. ويظهر أن أرض تشاد غنية بالثروة المعدنية ولكن لم تستثمر بعد وقت عرف منها (اليورانيوم)، ومن هنا تظهر الصراعات الاستعمارية على الأرض التشادية.

والمواصلات متأخرة جداً، والميزان التجارى خاسر.

السـكان :

يزيد عدد سكان تشاد اليوم على أربعة ملايين ونصف، تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٨٥٪، وتزداد هذه النسبة في الشمال وتقل كثيراً في الأجزاء الجنوبية حيث تغلب نسبـة النصـارى والوثنيين الذين يعتقدون بالأرواح ويقدسون الأشباح، ويكادون يتساوون في العدد.

واللغـة الفرنسية هي الرسمية، أما العربية فتسود في الشمال، ويزيد عدد اللغـات المحلية على ١١٨ لغة. وينتظم السكان ضمن قبائل أشهرها: بيلي، وتيدا، والبودوما، والتيبو وتقطن الشمال، وتدين بالإسلام، والهاوسا، وشوا، في الوسط وهى مسلمة أيضاً، وكوتوكو، والكانورى في الوسط أيضاً وهى مزيج من العرب والزنوج وأكثرها مسلمة، أما الفولانى أو البهل فيدعون أنهم من أصل عربى، ويقيمون في الوسط وأكثرهم مسلمون ويبقى عدد قليل منهم على وثنيته.

وتزداد نسبة العرب والبربر عادة في الشمال، أما الزنوج فيكثرون جنوب خط عرض ١٢.

وقد حدث اختلاط بين العرب والزنوج. وإن احتفظت بعض القبائل الزنجية بصفاتها إذ لم تختلط بغيرها وانعزلت في بعض الكتل الجبلية مثل: ملفى ، وأبو ضيا.

وأشهر قبائل الجنوب (قبيلة السارا) التي تنتشر في المقاطعات التشادية الجنوبية الخمس، كما تنتشر في جمهورية إفريقية الوسطى، وقد انتشرت النصرانية في هذه القبيلة، وكان منها رئيسا الجمهورية السابقين.

ومن القبائل القديمة البلالا ، والتاما، والارنجا، والموسجو، والقرعان وغيرهم.

تاريخ تشـاد

يبدو أن الإنسان قد أقام في منطقة تشاد من القديم، فسكنت شعوب امتهنت الصيد والرعى في الشمال، ويدلّ على ذلك بعض الآثار التي خلّفوها منحوتةً على الصخور، وأقام شعب (الصاو) في الجنوب على ضفاف نهر (شارى)، وامتهن الزراعة والصيد وصناعة الخزف، وتدل آثارهم على ذلك.

وإن تاريخ منطقة تشاد يكاد يكون مجهولاً حتى المدة التي شع فيها نور الإسلام عن طريق التجارة والدعوة وانتقال القبائل من الشمال إلى الجنوب. ونزوح بعض الرجالات إثر الأحداث التي تحل بالعالم الإسلامي مثل: سقوط بغداد، وخروج المسلمين من الأندلس وغير ذلك... ومن ثم تأسست بعض الممالك الإسلامية في تلك الديار أهمها ثلاث وهى:

١ ـ مملكـة كانم :

وتأسست في القرن الثاني الهجري على أيدي جماعة قادمين من الشمال، وكان مركزها هذه المملكة شمال شرقي بحيرة تشاد ، وحكم أسرة سيف (١٨٣ـ١٢٢٥هـ)، كانت على الوثنية مدةً من الزمن تعد غامضة في أكثر مراحلها ثم دخل إليها الإسلام في أواخر القرن الخامس، وأول الأمراء الذين إعتنقوا الإسلام يدعى (أوم) وحكم من (٤٧٨ـ٤٨٩هـ)، ولقب الملوك بعده (ماى)،

وانتشر الإسلام في أيامه كثيراً، وتوسعت مملكتهم حتى امتدت من النيجر غرباً إلى (واداى) شرقاً، وضمت مناطق من الصحراء، وشملت أجزاء من المناطق السودانية في الجنوب، وكان هذا التوسع بمساعدة حكام تونس من الحفصيين، ووصلت إلى الأوج أيام (عبدالجليل سلما) و (جونوما الثاني).

وفي عام ٧٨٩هـ (١٣٨٧م) عمـد قوم (البـلالا) وهم أخـلاط من العرب والتشاديين إلى انهاء حكم هذه المملكة، وبقيت الحرب قائمة بين الطرفين حتى أوائل القرن التاسع، قتل في خلالهـا أربعة ملوك من دولة كانم، وأخيراً هرب حكـامها إلى (بورنو) غرب بحيرة تشاد، وهو الأقليم الذي انتزعوه من شعب (الصاو)، وأسسوا هنالك مملكة جديدة، ثم استطاع (علي دوناما) الذي حكم (٨٧٧ـ٩١٠هـ) أن يهاجم (البلالا)، وأن يعود إلى كانم. وابتدأ الازدهار لهذه المملكة مرة أخرى في أيام الملك (إدريس الثالث) الذي يعرف باسم (إدريس الونة) وقد حكم ٩٧٩ـ١٠١٣هـ (١٥٧١ـ١٥٩٦م) ووسع حدود مملكته.

وأخيراً تدهور الحكم، وفي هذه الأثناء هاجمت قبائل الفولاني بزعامة (عثمان دانفديو) المنطقة، واحتلت منطقة (بورنو)، وأصبحت قبائل (الهاوسا) كلها تحت حكمه، وفرض الإسلام على القبائل الوثنية.

استدعى أهل كانم الشيخ محمد الأمين الكانمي عام ١٢٢٥هـ (١٨١٠م)، فتولى الحكم، وأنهى حكم أسرة (سيف)، ووقف في وجه قبائل الفولاني، وصد هجومهم، وبنى له عاصمة في مدينة (كوكا)، وسار في البلاد سيرة حميدة، إلا أن الضعف عاد بعده، وتمكن الأمير (رابح) مولى الزبير باشا أن يدخل البلاد، كما استـطاع دخول منطقة (بورنو) وبقي في الحكم حتى جاء الفرنسيون عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م).

٢ ـ مملكـــة وادّاى :

وادّاى منطقة وعرة في الشرق، حكمتها أسرة (التنجور) حتى القرن العاشر الهجري، وكانت على الوثنية، وجاءت من الصحراء فارّة من وجه قبائل بنى هلال، ووصلت إلى منطقة (دارفور)، واختلطت مع شعب (الداجو) الأسود، ومن اختلاط الشعبين نشأ شعب (الفور) الذي طرد (التنجور) فاتجه نحو الغرب

وسيطر على منطقة (وادّاى)، واستمر في الحكم إلى أن دخل الإسلام المنطقة في القرن العاشر الهجري.

إن أول الملوك المسلمين هو (عبدالكريم) الذي أصبح سلطاناً عام ١٠٣٠هـ (١٦٢١م) وتولّى بعده ابنه (عروة) فأسس مدينة جديدة لتكون مركز حكمه هى (وارا)، ثم انتقلت العاصمة إلى (أبيشه)، وخضعت لحكم (دارفور)، وأخيراً استقلت عنها في أواخر القرن الحادى عشر الهجري، وعاد إليها الضعف، ثم عادت إلى الازدهـــار أيام الملك (صـــابـــون) الـــذي حكم ١٢٢٠-١٢٣٠هـ (١٨٠٥-١٨١٥م)، وخلفه أخوه (محمد شريف صالح)، ثم ابنه (علي)، وقويت الدولة، ثم حدثت الفرقة بين أفراد الأسرة الحاكمة، وتدخل الفرنسيون لنصرة أحد الأراف وسيطروا على الوضع.

٣ ـ مملكـــة باغيرمى :

وهي في جنوب الأجزاء الوسطى من البلاد، وقد تأخر دخول الإسلام، إلى هذه الرقعة، حيث وصل إليها في مطلع القرن العاشر الهجري، ويعد السلطان (بـــريمى) أول الحكـــام المسلمين فيهـــا، ولعـــل هذا الإسم محرف عن اسم (إبـــراهيم)، وازدهـــرت هذه المملكـــة أيام السلطان الحـــاج محمـــود الأمـــين ١١٦٥-١٢٠٠هـ (١٧٥١-١٧٨٥م)، وقد عم في عهده الإسلام بلاد (باغيرمى) كافةً.

وفي عام ١٢٢١هـ (١٨٠٦م) خضعت هذه المملكة الى سلطان (وادّاى)، ثم ضمهـــا الشيخ محمـــد الأمـــين الكانمى إلى مملكته، ولكن عادت لها قوتها عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م)، ولم يلبـــث أن هاجمـــهـــا ملك (وادّاى) عام ١٢٨٨هـ (١٨٧٠م)، وأخيراً ضمها الأمير رابح إلى سلطانه عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، وبقيت تحت سلطانه حتى جاء الفرنسيون ودخلوها عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م). ومن المالك الأخرى مملكة (مانغا) التي تقع أراضيها إلى الشمال من بحيرة تشاد. أما شمالي تشاد اليوم فقد كان بيد العثمانيين، وقد أقاموا فيه عدداً من القلاع وكان لهم دور في نشر الإسلام، ومن القلاع الأثرية لهم هناك (فايا) و (غريدة).

الأمير رابـــح

تمكن الإنكليز في السودان من القضاء على سليمان بن الزبير سلطان دارفور، وقتلوا سبعمائة من أتباعه وذلك عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م)، إلا أن أحد قادته وهو الأمير رابح قد نجا بمن معه فسار نحو أرض تشاد في ألف فارس، واستطاع أن يسيطر على منطقة (وادّاى)، ثم اتجه نحو بحيرة تشاد فضم إلى سلطانه الجديد الممالك القائمة وهى: (باغيرمى)و (كانم)، كما شمل حكمه بلاد (بورنو)، واتخذ من ديكوا)[1] عاصمة له. وأقام حكومة إسلامية في هذه البلاد كلها، وذلك عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م). ولكنـه لم يلبث أن اصـطدم مع الفرنسيين الذين كانوا يوسعون نفوذهم شمالاً من بلاد الكونغو، وذلك عن طريق الارساليات التنصيرية والرحالة، فوجه الفرنسيون ثلاث حملات بقيادة الجنرال (لامى) الذي قتل على أبواب مدينة (قصيرى) الواقعة على الضفة اليسرى لنهر (لوغون) مقابل مدينة (نجـامينـا) وهى اليوم ضمن أراضى دولة الكاميرون، إذ يشكل النهر الحدود السياسية بين الدولتين، أما الأمير رابح فقد جرح في هذه المعركة ثم توفى متأثراً بجراحه عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م).

تولى سلطان إمارة رابح بعده ابنه فضل الله، فانتصر على الفرنسيين في بعض المعارك، الا أن الفرنسيين قد دخلوا تشاد ١٣٢٧هـ بفضل اسلحتهم وكثرتهم، وقتلوا السلطانِ فضل الله، واستمرت المقاومة الإسلامية في البلاد مدة عامين، ثم قضى عليها بعد معركة (عين جالا) عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م).

الفرنسيـــــون

أخضع الفرنسيون تشاد، وحتى يستطيعوا البقاء في سيطرتهم عملوا على إرهاب الشعب فجمعوا أربعمائة عالم من أنحاء البلاد، وساقوهم إلى مدينة (ابيشة) قاعدة (واداى) وقتلوهم بالساطور، وقد عرفت هذه المذبحة باسم مذبحة (كبكب) وذلك عام ١٣٣٦هـ (١٩١٨م) أثناء الحرب العالمية الأولى، ومع هذه الوحشية فلم

(١) ديكوا: مدينة تقع فش شمال شرق نيجيريا في بلاد بورنو إحدى أجزاء نيجيريا اليوم، وتقع إلى الغرب من مدينة (نجامينا) على بعيد ٢٠٠ كم منها.

تتمكن فرنسا من السيطرة على الأجزاء الشمالية ودخول قلاع (زوار) و (فور) و (أوزو) إلا عام ١٣٤٨هـ (١٩٣٠م) حيث كان السنوسيون يقاومون الاستعمار الفـرنسي في الجنـوب، كما يقـاومـون الاستعـمار الـطلياني في الشمال، وكـان لهم أكثر من مائة رباط منتشرة في تشاد من (غورو) إلى (بوركو) ومن (فايا) إلى (كانم) وفي منطقة (عيندى) و (تيبستى).

اتبعت فرنسا سياسة استعمارية صليبية إذ عملت على جعل السياسة الاقتصادية والسياسية والثقافية في يدها. ومن هذا المنطلق فقد عملت على إبقاء المسلمين في حالـةٍ من الجهل والفقر، ينتابهم المرض، ويلحق بهم العذاب، فلم يكن ليدخل المدارس التي تشرف عليها الحكومة، أو المستشفيات التي يشرف عليها المنصرّون ـ وهى الوحيدة في البلاد تقريباً ـ إلا الذين اعتنقوا النصرانية أو الذين يؤمل منهم ذلك. وكانت سياسة فرنسا تقضى بامتصاص كل مجموعةٍ مثقفةٍ من سكان تشاد إلى فلك الثقافة الفرنسية كى لاتجعل لنفسها وجود ثقافتين متباينتين إحداهما إسلامية وطنية والثانية نصرانية دخيلة، ومشكلة وجود عددٍ من المثقفين من أبناء البلاد يطالبون بالمساواة مع الفرنسين أو يطالبون بالاستقلال. كما اتبعت سياسة التمييز بين الفرنسيين والتشاديين تمييزاً يعتمد على اللون والتعالي، والرتب العسكرية وكل جوانب الحياة.

ومنعت فرنسا من وجود تنظيمات سياسية أو اجتماعية في البلاد، لكنها سمحت بوجود شعبٍ لأحزابها الموجودة على الأرض الفرنسية كي توجه السياسة من باريس. فكان من هذه الفروع:

١ ـ الحزب الراديكالي: ويتولى رئاسته في تشاد (فرانسوا توتمبالباى)

٢ ـ الحزب الاشتراكى: وقد انتهى مع ظهور (ديغول).

٣ ـ حزب أوديت: ويرأسه في تشاد (ربتليس)، ثم (غبرييل ليزبيت).

٤ ـ الحزب الوطنى التشادى: ويتزعمه (أحمد أبا).

واتبعت فرنسـا سياسة القمع والإرهاب، واستمر الوضع حتى قيام الحرب العالمية الثانية، ولم يحدث من شىء سوى تعديل الحدود بين ليبيا وتشاد عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) حيث ضمت ليبيا إليها أجزاء من منطقة جبال تيبستى، ولكن المعاهدة لم يؤخذ بها.

قامت الحـرب العـالمية الثـانية، وكانت تشاد جزءاً من إفريقية الاستوائيةلا الفرنسية التي تشمل منطقة واسعة وسط القارة وغربيها. ويحكم منطقة تشاد فيها (فيلكس أبوية) وهو غريب ينتمى إلى (غواد لوب) إحدى جزر البحر الكاريبى، وهزمت فرنسا أمام ألمانيا وانقسم الفرنسيون إلى قسمين أطلق على أحدهما اسم حكومة (بيتان) وهى تتبع ألمانيا، وعلى الآخر فرنسا الحرة ويتزعمها ديغول الذي يدير شؤون الجند من إنكلترا، واعلن حكام تشاد عن وقوفهم مع ديغول فأعطاهم الأمان، وزار البلاد، وكانت تشاد مركزاً لتموين جيوش الحلفاء التي قاتلت في الصحراء، وقاعدة لتحرك الجيوش التي دخلت ليبيا وتونس.

انتهت الحـرب، وانتخب أول مجلس نيابي فيها عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م)، وقامت حكومة برئاسة (غيبريل ليزبيت)، ثم حصلت على استقلال ذاتى بعد أن وافقت على مشروع ديغول بشأن المستعمرات الفرنسية عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٨م)، وأجـريت الانتخـابـات، وتشكل الحزب التقدمى التشادى من ائتلاف الحزب الراديكالى وحزب (أوديت) وحصلا على جميع مقاعد الجمعية التأسيسية، وشكل (فرانسوا تومبالباى) الحكومة، وكان (ليزبيت) نائباً له. وبعد عام نالت البلاد الاستقلال، ودخلت الأمم المتحدة، وعدل الدستور، وغدت اللغة الفرنسية هى الرسمية، وأصبحت السلطة التنفيذية بيد رئيس الجمهورية وهو في الوقت نفسه رئيساً للوزراء ويتولى هذا المنصب (فرانسوا تومبالباى)، وشكلت الوزارة من ستة عشر وزيراً نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم.

ألغى رئيس الجمهورية عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) الأحزاب كلها، واعتمد على نظام الحزب الواحد وهو الحزب التقدمى التشادى الذي يتزعمه، وألقى القبض على ثلاثـة من زعـماء المسلمين بتهمة تهديد أمن الدولة، وعدل الدستور من جديد. وجرت انتخابات في عامين متواليين، وصل سفير دولة اليهود إلى تشاد الأمر الذي أثار غضب المسلمين وهذا ما أدى إلى إخراج المسلمين من الوزارة، واعتقل عدد منهم، وحكم على بعضهم أحكاماً قاسية لاتقل عن عشرين سنة مع الأشغال الشاقة. وانضم المسلمون بعد ذلك إلى المعارضة التي كانت تتمثل في حزب الاستقلال الوطنى، والاتحاد الوطنى التشادى.

فرضت الحكومة ضرائب جديدة فحدثت انتفاضة عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)

بقيادة (أحمد غلام الله) و (جبرييل خير الله) ولكن قضي عليها بسرعة، وتشكلت بعدها (الجبهة الشعبية لتحرير تشاد)، وكان أمين سرها (أبا صديق)، وحدثت اعتقالات واسعة شملت الوزراء المسلمين ونائب رئيس الجمعية الوطنية وبعض النواب.

وحدثت الانتفاضة الثانية عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) وذلك في مدينة (مانغالم) بسبب الضرائب التي كانت تجبى عدة مرات في العام الواحد، واستمرت المعارك ستة أشهر.

ثم قامت الثورة عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م)، وشملت أكثر المناطق الإسلامية وخاصة بلاد (التيبو) وبلاد (تيبستي) في الشمال. وسيطرت الحركة على الشمال، وكان سبب الثورة تافهاً وهو حدوث خلاف بين امرأتين إحداهما مسلمة زوج أحد رجال الهجانة المسلمين، والثانية نصرانية زوج أحد رجال الجيش وتطور الأمر، ولم يكن الأمر كافياً لاشعال نار الثورة إلا أن النفوس مشحونة[1]، واستنجد رئيس الجمهورية (فرانسوا تومبالباى) بفرنسا بعد سيطرة المسلمين على الشمال فأمدته بثمانمائة مظلي عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) ثم أردفت ذلك بمائتين وستين جندياً، ولم تستطع حكومة تشاد من السيطرة على الموقف إلا عام ١٣٩٠هـ.

أظهر (تومبالباى) سياسة المهادنة، وطلب سحب القوات الفرنسية من المناطق الشمالية، فقبلت ليبيا هذا التصرف، ولكن لم يوافق عليه زعيم قبائل التيبو الذي كان يعيش منفياً في ليبيا، ولا جبهة تحرير تشاد التي كان مقرها في الجزائر حيث يعلمون مراوغة (تومبالباى).

دعمت ليبيا الثورة في تشاد، وبدأت تمدها بالسلاح والمؤن، وخرجت القوات الفرنسية من تشاد عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) واضطرت الحكومة التشادية إلى جلب قوات مرتزقة من زائير لدعم موقفها. ولكنها لم تلبث أن أعلنت عن محاولة انقلاب فاشلة بزعامة أحمد عبدالله الذي انتحر عندما فشلت المحاولة، وساءت العلاقات جداً بين الدولتين المتجاورتين ليبيا وتشاد.

---

(١) كان سلطان منطقة الشمال والد غوكونى عويدى رئيس الجمهورية فيما بعد. وكان له الدور في اشعال الثورة.

وبعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ (تشرين أول ١٩٧٣م) بين العرب ودولة اليهود في فلسطين قطعت تشاد علاقتها مع دولة اليهود وتحسنت الأوضاع قليلاً.

وفي عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م) استولى الجيش بقيادة (عبدالقادر كاموغا) على السلطة، وهو نصراني من الجنوب، ومن قبيلة (تومبالباى) نفسها، وعين الجنرال (فيلكس مالوم) رئيساً للدولة، وهو مثل الرئيس السابق ومن قبيلته أيضاً، وبهذه التمثيلية احتفظ النصارى في الجنوب بالسلطة.

انقسمت جبهة التحرير الوطنية في تشاد (فرولينا) إذ انفصل عنها حسين هبرى، وأسس قوات الشمال، على حين بقى غوكونى عويدى مدعوماً من القوات الشعبية التابعة لجبهة (فرولينا). ثم انفصل (أحمد أصيل) عن الجبهة، وانضم أخيراً إلى حسين هبرى.

بدأت الأحداث الدامية عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م)، واضطر رئيس الدولة (فيلكس مالوم) على مغادرة البلاد شهر من مؤتمر (لاغوس) في نيجيريا. وتشكل مجلس وطني حكم البلاد ثلاثة أشهر، ثم قامت حكومة وطنية دام حكمها ثلاثة أشهر أيضاً، أعقبها حكومة مثلت الاتجاهات الأحد عشر في البلاد ثم انفرط عقدها بعد ثلاثة أشهر، وعاد القتال، ولعبت الدول العربية والأجنبية دوراً في هذا القتال، فاظهرت فرنسا دعمها لحسين هبرى وكذا مصر مخالفة لليبيا التي تدعم غوكونى عويدى الذي اتفق مع قائد الجيش عبدالقادر كاموغا.

تعد المناطق الشرقية مركز نفوذ (حسين هبرى) وأهم هذه الأجزاء اقليم (وادّاى). واقليم (بيلتن)، والقسم الشرقي من اقليم (باتا)، أما مناطق الشمال والأجزاء التي تشرف على بحيرة تشاد مراكز دعم لـ (غوكونى عويدى)، وهى مناطق كانم، والبحيرة، أما عبدالقادر كاموغا فيسيطر على نصارى الجنوب وتسمى قواته (القوات التشادية المسلحة).

وتمكن حسين هبرى من السيطرة على أكبر قسم من العاصمة (نجامينا)، ودخلت القسم الباقي جماعات من جبهة فرولينا، ونتيجة القتال الدائر بين الأطراف المتنازعة فقد فر إلى الكاميرون أكثر من سبعين ألفا اتجه أكثرهم إلى عاصمة الكاميرون (باوندى) كما رحل عن العاصمة أكثر من ٩٠٪ من أهل الجنوب الذين كانوا يقيمون فيها. ودخلت القوات الليبية دعماً لغوكونى عويدى وعبدالقادر كاموغا، وخرج من العاصمة مضطراً إلى المناطق الشرقية حسين هبرى الذي يهدد الوضع باستمرار وهذا مايجعل السلطة تحرص على إبقاء القوات الليبية في العاصمة.

ثم استطاع حسين هبرى من السيطرة على تشاد، وتسلم السلطة، وفر غوكوني عويدي إلى جنوبي ليبيا واستقر في (سبها).

وعاد غوكوني عويدي في الخامس من رمضان ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) وسيطر على أقسام من الشمال.....

مـــالي

لمحة جغرافيـــــة:

تبلغ مساحة مالي «١,٢٠٤,٠٠٠ كيلو متر مربع، فهى إحدى دول إفريقية الواسعة المساحة، تتألف أرضها من هضبة يبلغ معدل ارتفاعها ٥٠٠م، تستوى في أقسامها الشمالية والشمالية الغربية فتبدو كسهل فسيح منبسط تسوده الكثبان الرملية والأراضى الحصوية في حين ترتفع في أجزائها الشمالية الشرقية قرب حدود الجزائر والنيجر، وتعد امتداداً لمرتفعات الهكار، ويطلق عليها هنا اسم هضبة (أدرار)، وكـذلك ترتفع في جهاتها الجنوبية والجنوبية الغربية قرب حدود غينيا وساحل العاج حيث السفوح الشمالية لمرتفعات (فوتا جالون)، ويفصل بين هذين القسمين من المرتفعات الجزء الأوسط من الهضبة المستوية المعروفة باسم هضبة (ماندينغ) والتي يجرى فيها نهر النيجر، وتنحدر المياه نحوه من كلا الجانبين. وتكون أخفض نقطة في الوسط عند مدينة (تومبوكتو)، ثم تنحدر باتجاه الجنوب الشرقى مع مجرى النهر. وفي المنطقة المنخفضة تكثر المستنقعات وخاصة في فصل الصيف. ويجرى نهر السنغال في الغرب نحو الشمال الغربى مع انحدار قليل للأرض ويكون بين مجريي النهرين مرتفع وئيد من الأرض هو جزء من هضبة (ماندينغ).

وتكون بعض المناطق المنخفضة في الشمال قرب الحدود مع موريتانيا والجزائر تؤول إليها بعض السيول. كما يجرى وادى (الأسواق) قرب الحدود مع النيجر، وتتجه مياهه نحو نهر النيجر.

المنـــاخ :

تمتـد مالي بين خطي عرض ١٠ ـ ٢٥ شمالاً، وبذا تكون ضمن نطاقين كبيرين هما:

١ ــ النطاق السوداني: ويمتد بين خطى عرض ١٠ـ١٨°، وتكون الحرارة مرتفعة طيلة العام، وتتراوح كمية الأمطار بين ٢٥٠ـ٥٠٠ مم تهطل خلال سبعة أشهر، وهى أشهر الصيف التي تمتد من نيسان إلى تشرين الأول، وتكون الأشهـر الأخـرى جافـة، وهى الأكثر حرارة. وتزداد الأمطار في المنطقة الجنوبية، والجنوبية الغربية حيث يبلغ معدلها ٧٥٠ـ١٢٠٠ مم.

٢ ــ النطاق الصحراوى: ويمتد بين خطى عرض ١٨ ـ ٢٥°، ويمتاز بشدة الحرارة، وقلة الأمطار التي لايزيد متوسطها على ٢٥٠ مم، تهطل في خلال الصيف، وتتنـاقص كلما اتجهنـا شمالاً، وتقل مدتها فلا يهطل في مدينة (تومبوكتو) أكثر من ١٠٠ مم في شهري تموز و آب فقط.

الميـــاه :

يرتبط نظام الأمطار بالأمطار ارتباطاً واضحاً، حيث تزداد الغزارة في فصل الصيف فصل الأمطار، وتشح في فصل الشتاء فصل الجفاف.

ويعد نهر النيجر أهم مجرى مائي في البلاد فيرسم قوساً مقعراً نحو الجنوب، وتبلغ غزارتـه ١٠,٠٠٠م٣/ثـا في الصيف، وتقـل إلى ١٠٠م٣/ثا في الشتاء. ويشكـل عدداً من المستنقعـات جنوب غربى مدينة (تومبوكتو) وتزداد مساحتها صيفاً، وتقل شتاءً. ويبلغ طول هذا النهر في مالي مايقرب من ٧٥٠ كم. وتقعملى هذا النهر أهم المدن بما فيها العاصمة وكذا الحياة الحضرية المستقرة، والزراعات.

كما يجرى نهر السنغال في الغرب راسماً قوسفا نحو الغرب، وتقوم عليه بعض المدن، كما تكثر الزراعات على ضفافه.

الســـكان :

يقدر عدد سكان مالى عام ١٤٠٢هـ بستة ملايين نسمة، وبذا فإن الكثافة قليلة تختلف عن مثيلاتها تشاد، والنيجر، وهي من الكثافات القليلة في العالم،

وتـتركـز الغالبية العظمى في الجزء الجنوبي من البلاد وخاصة على ضفاف نهر النيجر، ثم حول نهر السنغال. وأهم القبائل في مالي هي:

١ ــ **الماندينغ**: وتقدر نسبتهم من ٤٠٪ من مجموع السكان، ويحملون أسماء مختلفة، فالعرب يسمونهم (مليل)، ويقول الفولانيون (مالي)، ويسميهم البربر (مليت)، والهاوسا يطلقون عليهم اسم (وانقاره)، ولعل هذا الاسم يطلق على فرعين منها وهما: «السوننكى والديولا». ويسميهم التكرور (المالنكى)، والغامبيون يسمونهم (ماندينغ). وهم يسمون أنفسهم (الماندى).

٢ ــ **السنغاى**: وهم زنوج يعيشون عند ثنية نهر النيجر، وتبلغ نسبتهم ١٢٪ من السكان، ويعملون بصيد السمك.

٣ ــ **الفولانى**: ولهم أسماء كثيرة أيضاً، ويشكلون ١٠٪ من سكان البلاد.

٤ ــ **البرنو**:

٥ ــ **التوكلور**: وتعيش في الغرب قرب السنغال.

٦ ــ **الموش**: وتعيش في الجنوب قرب فولتا العليا. وأكثرهم لايزال على الوثنية.

٧ ــ **السينوفو**: وتقطن هذه القبائل قرب ساحل العاج وفولتا العليا عند أعالي النيجر ونهر فولتا وتشكيل ٣,٥٪ من سكان بلاد مالي.

٨ ــ **الماركاكا**: ويشكلون ٦٪ من السكانا.

٩ ــ **الدوجون**: ويشكلون ٣,٥٪ من سكان مالي.

١٠ ــ **الطوارق**: ويعيشون في الشمال، ويعرفون باسم الملثمين.

١١ ــ وهناك مجموعة صغيرة من العرب تعيش بالقرب من (تومبوكو).

يشكـل المسلمـون ٩٣٪ من السكـان، على حين تبلغ نسبـة الـوثنيين ٦٪ ومعـظمهم من (البـامبارا) التي هي فرع من (الماندينغ) ومن قبائل (الموش)، ويشكل النصارى ١٪ فقط من السكان. ولكل مجموعة لغتها الخاصة، واللغة الفرنسية هي الرسمية، وقد فرضت بعد دخول الفرنسيين.

النشاط البشــــرى:

تعتمد مالي في اقتصادها على الزراعة التي تقوم على نهرى النيجر والسنغال. فيزرع الأرز، والفول السوداني، والدخن، والقطن، وتربى الحيوانات، وتصاد

الأسماك. ويستثمر بكميات قليلة الحديد، والذهب، والماس، والبوكسيت كما يوجد الملح.

ويقدر انتاج المحصولات والثروة الحيوانية كما يلي:

الأرز	١٧٠,٠٠٠ طن	الأبقار	٥,٠٠٠,٠٠٠ رأس
الفول السوداني	١٢٠,٠٠٠ طن	الأغنام	٣,٥٠٠,٠٠٠ رأس
القطن	٢٠,٠٠٠ طن	الماعز	٧,٠٠٠,٠٠٠ رأس

التـــاريخ

قامت في التاريخ عدة إمبراطوريات وممالك في المنطقة التي تشملها اليوم دولة مالي، دانت أكثرها بالإسلام وعملت له وأهمها:

١ ـ إمبراطورية غانا:

في القرن السابع قبل الهجرة قامت إمبراطورية (غانا) في منطقة مالي اليوم، أسستها جماعة بيضاء جاءت من الشرق أو من الشمال وغدت مع الزمن سوداء وهى التي عرفت فيما بعد باسم (الفولانيين)، وكان مقرها مدينة (كومبى صالح) التي تقع بين نهرى النيجر والسنغال، في منطقة (أوكار)، وسيطرت على جماعة (السوننكى) أصحاب النفوذ هناك، واعتمدت في حياتها على الزراعة والتجارة. وفي القـرن الهجـري الثاني طردت جماعة (السوننكى) الفولانيين نحو الغرب، وحكمت (غـانا) حتى جاء المرابطون في القرن الخامس الهجرى عام ٤٦٩هـ فانتشر فيها الإسلام، وكانت من قبل تدين بالوثنية.

تمكنت حماعة السوننكى أن توسع نفوذه وأن تسيطر على مدينة (أودغشت) حاضرة قبيلة (لمتونة) إجدى فروع قبيلة (صنهاجة) والتي كانت فيها حكومة بربرية شملت أجـزاء واسعـة من موريتانيا، والسنيغـال، وغينيا، ومـالي دول العصر الحديث. وكانت المنطقة بين الممالك تسيطر إحداها على جميعها عندما تزداد قوتها، ولا تقضى عليها، وإنما تكتفى بفرض الجزية، فإذا حدث أن قويت مملكة أخرى عادت وسيطرت على غيرها، وأصبحت المحكومة بالأمس حاكمة اليوم. وقد تعود

دولة منها للنهوض ثانيةً مادام لم يقض عليها، ولما كانت كل مملكة تسيطر على عدة ممالك لذا فقد عرفت باسم «امبراطوريات».

انتشر الإسلام قليلاً في إمبراطورية غانا قبل قدوم المرابطين بل ذكرت بعض الروايات أن أحد ملوك غانا قد اعتنق الإسلام عام ٣٣٣هـ . كما اعتنقه أحد ملوك التكـرور عام ٤٣٢هـ . وأصبح للمسلمين في قاعدة غانا ضاحية خاصة تعادل العاصمة أو تشمل نصفها وفيها اثنا عشر مسجداً، ولهم حرية في الدولة.

كان القتال مستمراً بين إمبراطورية غانا والملثمين في الشمال بزعامة قبيلة (لمتونة) والـذين كانت قاعدتهم مدينة (أودغشت)، وتمكنت غانا من إحراز النصر على الملثمـين الأمـر الـذي جعـل (لمتونة) تتخلى عن الزعامة لأختها (جدالة) التي استـطاعت أن توقـف زحف إمبراطورية غانا نحو الشمال. ثم تأسست جماعة المـرابطين الأساسية من قبيلة (جدالة) عندما جاء «عبدالله بن ياسين» إليهم، وعندما قوي أمرهم تمكنوا من استعادة مدينة (أودغشت) عام ٤٤٦هـ من غانا، وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام، إلا أن زعيمهم (يحيى بن إبراهيم الجدالى) قد استشهـد في المعركة التي فتحت إثرها مدينة (أودغشت) وتولى بعده زعامة المرابطين (أبو بكر بن عمر اللمتونى) ابن عمه وزيعم قبيلة (لمتونة)، وتمكن من دخـول قاعدة امبراطورية غانا مدينة (كومبى صالح)، وكانت غانا قد ضعف أمرها، وتفككت وذلك عام ٤٦٩هـ ، وفرض اللمتونى الإسلام على سكان غانا.

ثم ضعف أمر المرابطين بعد وفاة (أبو بكر بن عمر اللمتونى) عام ٤٨٠هـ ، فعاد للسوننكى قوتهم فاستقلوا وأعلنوا عن ارتباطهم بالدولة العباسية. ثم ساد الجفاف المنطقة وارتحلت عدة قبائل نحو الجنوب فانهارت إمبراطورية غانا وقامت مكانها امبراطورية (الصوصو)، وكان لارتحال القبائل نحو الجنوب أثر في تعمق الإسلام نحو خليج غانا.

٢ ــ امبراطورية الصوصـــو:

هاجرت جماعة من الفولانيين من بلاد التكرور واتجهت نحو الشرق، واستقرت في منطقة (كانياغا) في أعالى نهر النيجر، ثم سيطرت على شعب الصوصو، ثم قوى أمرهم، وتمكنوا من دخول مدينة (كومبى صالح) عام ٦٠٠هـ ، ودمروها،

ومحوا أثرها، وتوسعوا حتى شملت دولتهم أكثر أجزاء إمبراطورية غانا. كما هاجموا مملكة (الماندينغ) في الجنوب الغربى، وقتلوا ملكهم (سومانجارو) ملك الماندينغ (نارى فامغان) وأولاده جميعاً باستثناء صغيرهم لمعرضه وهو (سندياتا) أو كما عرف باسم (مارى جاطه) وذلك عام ٦٢٨هـ .

٣ ـ مملكـة مالــي :

تمكن (مارى جاطه) عام **٦٣٣هـ** أن يؤسس جيشاً، وأن ينتصر على الصوصو، وأن يدخـل عاصمة غانا القديمة، وأن يزيل ما بقى منها، ولكنه عطف على المسلمين الذين فروا منها إلى الشمال في ولايته عندما هاجمهم الصوصو.

إن (مارى جاطه) هو ابن (نارى فامغان) الذي عرف بالصلاح والعمل على نشر الإسلام، والذي قتله الصوصو. وقد نقل (مارى جاطه) عاصمته إلى مدينة مالى التي أسسهـا، والتي تقع اليوم في غينيا قرب الحدود مع دولة مالى. وقد توسعت هذه المملكـة كثيراً حتى شملت أكثر أجزاء افريقية الغربية، واستمر حكمها حتى عام ٨٩٤هـ (١٤٨٨م). وقد ضعف أمرها أمام هجمات الطوارق في الشمال واستيلائهم على مدينة (تومبوكتو). وأعمال الغزو التي تقوم بها قبائل (الوش) الوثنية في الجنوب، وهجمات الفولانيين والتكارنة من الغرب، ثم استقلال مملكة (صنغاى) على نهر النيجر، وتوسعها حتى قضت على مملكة مالى إلا أن المـاليين قد حاولـوا استعادة نفوذهم ضد (صنغاى) فاستنجدوا بالعثمانيين عام ٨٨٦هـ (١٤٨٠م) وطلبـوا المساعدة من البرتغاليين فساعدوهم ضد الفولانيين وأجلوهم عن الأجزاء الغربية. وقاموا بثورة عام ٩٤٠هـ ضد صنغاى غير أنهم فشلوا وقمعت ثورتهم. ثم استطاع السلطان (محمد الثالث) أن يستعيد بعض أمـلاكـه، ولكنـه هُزم في النهـاية عام ١٠٠٠هـ (١٥٩١م) أمام السعديين في مراكش، والـذين دخلوا مدينـة (تـومبـوكتـو)، ثم عاد لدولة مالى أهميتها عام ١٠٨١هـ (١٦٧٠م)، ثم تفرق أمراء الأسرة الواحدة واقتسموا السلطة، واستقر آخرهم في مدينة (باماكو). ومن الأسر التي حكمت مملكة مالى أسرة (كيتا) وأسرة (تراورة).

٤ ـ إمبراطورية الصنغاى :

الصنغاى مجموعة من القبائل الزنجية كانت تعيش في منطقة نهر النيجر الواقعة اليوم في دولة النيجر ثم انتقلت أو تحركت قليلاً نحو الشمال واستقرت حول مدينة (غـاو)، وخضعت هذه القبائل لقبيلة لمتونة بعض الزمن. ثم خضعت لمملكة (مـالى) وأعـطت رهـائن لتبقى تحت النفوذ المالي، غير أن (علي كولن) وأخاه (سليمان) فرا من حاضرة مالي وهما من الرهائن، ووصلا إلى (غاو)، وطردا منها الحامية المالية عام ٧٤٠هـ (١٣٣٩م)، وأسسا مملكة جديدة بدأت تتوسع على حساب دولة مالى. ثم عادت للخضوع لمملكة مالي، ولكن عاد أمرها فقوي فاستقل (محمد دوغو) عام ٨٢٣هـ (١٤٢٠م)، وخلفه ابنه (مسنا علي) الذي يعد مؤسس دولة الصنغاي فاستولى على (تومبوكتو) عام ٨٧٣هـ (١٤٦٨م)، وتوسعت مملكتـه حتى غدت امبراطورية شملت أكثر المنطقة، قاومت المغاربة في أواخر عهدها ثم تفككت وانتهت عام ١٠٠٤هـ (١٥٩٥م).

٥ ـ مملكـة البامبـارا :

البامبارا جماعة من الماندينغ تقيم في حوض نهر النيجر الأعلى، خضعت لمملكة مالي، ثم لامبراطورية الصنغاى، ثم أسست إمارة في مدينة (سيغو) خضعت لإمارة (تومبوكتو)، ثم استقلت عنا عام ١٠٧١هـ (١٦٦٠م)، وتوسعت، وأخيراً حكمتها أسرة (ديارا) التي استمرت في الحكم حتى عام ١٢٧٨هـ (١٨٦١م) حيث خضعت لسلطان الحاج عمر الذي قاوم الفرنسيين.

٦ ـ دولة الحاج عمر الفولانى :

ظهـر الحـاج عمـر عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م)، واستطاع أن يوحد السودان الغربى تحت سلطانه، وأوقف الفرنسيون تقدمه نحو الغرب، وليزيد من قوته دخـل إمـارة (سيغـو) عام ١٢٧٨هـ (١٨٦١م)، و (مـاسينـا) عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م)، و (تـومبـوكتو) عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م)، وقاوم الفرنسيين مقاومة عنيفة، وأخيراً ثار عليه (البامبارا) في (سيغو) والفولانيون في (ماسينا) وأخيراً قتل عام ١٢٨١هـ (١٨٦٤م)، واختلف أبناؤه على السلطة، وهزم آخرهم وهو الأمير أحمد أمام الفرنسيين وتوفي عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وتمكنوا بعدها من احتـلال البلاد.

٧ ـ ساموری توری :

بقي الماينديغ منقسمين على أنفسهم بعد زوال دولة (البامبارا) حتى ظهر فيهم عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) زعيم قوى هو (ساموری توری) إذ استطاع أن يبسط نفـوذه على جميع قبـائـل (المـاينـدنغ) في خلال عشرين سنة ١٢٨٧ـ١٣٠٧هـ (١٨٧١ـ١٨٨٩م) وأن يوحد صفوفهم إلى الجنوب من دولة الحاج عمر، واتخذ لقب إمـام وتصـدى لمقـاومة الفرنسيين من عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) إلى عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وقد تمكن الفرنسيون من دخول مدينة (سيغو)، ومدينة (تومبوكتو) عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، واضطر ساموری توری أن يفر من وجههم إلى أعـالى نهر فولتـا العليا، واستمـر في المقـاومـة فقبض عليه عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) في شمالى ساحل العاج، ونفي الى الغابون حيث توفي عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م)، واستقر الفرنسيون في المنطقة.

الاستعمـــــار :

كانت أولى الـرحـلات الأوروبية إلى داخـل إفريقية موجهة إلى حوض نهر النيجر، وقد انطلقت عام ١٢١٠هـ (١٨٥٩م) من غامبيا، واستطاع (منجو بارك) أن يصل إلى مدينة (سيغو). ثم توغل إلى أكثر من ذلك في رحلته الثانية عام ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م)، وكثرت الرحلات بعد ذلك وخاصة الفرنسية منها، ولما تم لهؤلاء الرحالة التعرف على أوضاع البلاد السياسية والاجتماعية بدأت الحملات العسكرية، واتجهت فرنسا بثقلها نحو إفريقية الغربية. وتمكنت من التوغل على طريق نهري النيجر والسنغال بعد مقاومات عنيفة وحيث استطاعت القضاء على مملكة الحاج عمر الفولاني، وسلطان ساموری توری عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، ومن ثم بسـطت نفـوذهـا على معـظم السودان الغربى، وعن طريق الإرهاب والـوحشية أخضعت السكـان، وفتحت أبـواب المـنطقـة للإرساليات التنصيرية المدعومة بكل الإمكانات المادية والمعنوية، ففتحت المدارس، وأقامت المشافى، وقدمت المساعدات وجعلتها في خدمة من يعتنق النصرانية. وأوصدت أبوابها أمام المسلمـين. ومـع هذا فلم تنجح لذا بقى الشعب في حالةٍ من الجهل والفقر والمرض، فنشأت جماعة من أنصار الاستعمار مهيأة لتسلم الحكم مكانه، وتنفيذ

مصالحه، وتتبع خطواته.

وقد تعرضت إفريقية الغربية التي خضعت للاستعمار الفرنسى إلى عدة تغييرات في الحدود والأقسام السياسية، وظلت كل مستعمرة خاضعةً لحاكم فرنسى عام يتلقى تعليماتـه من وزير المستعمرات الفرنسى، ثم فكرت فرنسا بجمع بعض المستعمرات في تجمعات اتحادية ومن هذه الوحدات كان إفريقية الغربية الفرنسية التي تضم موريتانيا ـ السنغال ـ غينيا ـ ساحل العاج ـ فولتا العليا ـ مالي ـ النيجر ـ داهومى.

وفي عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) شكلت فرنسـا إقليماً في منـطقة مالى وسمى (السنغال العليا والنيجر) ثم أصبح هذا الاسم عام ١٣٣٩هـ (١٩٢١م) السودان الفرنسى.

وأفادت فرنسا في الحرب العالمية الأولى من السكان فكان وقود الحرب في كل المعارك التي خاضتها. وكان كل تجمع سياسي يجب أن يخضع لفرنسا سياسياً واقتصادياً وثقافياً، ووجد في البلاد تجمعان هما:

١ ــ حزب الاتحاد السودانى الذي يدعو لإقامة حكم شبيه بحكم الحاج عمر الفولانى.

٢ ــ حزب التجمـع الديمقراطى الافريقي، وكان في غربى إفريقية كله وله فروع في كل مستعمرة.

ونص دستور فرنسا عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) على تكوين مجلس عام في كل اتحاد، ينتخب أعضاؤه من بين الجمعيات الإقليمية في وحدات الاتحاد، وجرت الانتخابات الأولى.

وعدل الدستور عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، وأصبح بجانب المجلس الوطنى الإقليمي مجلس تنفيذي يمثل السلطة، ويرأس هذا المجلس حاكم الإقليم، وهو الذي يعين قسماً من المجلس بينما يتم أخذ القسم الثاني بالانتخاب.

وفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) عقد موتمر في باماكو يضم أقليم إفريقية الغربية، وقد اعترف هذا المؤتمر بحق تقرير المصير، اعترفت فرنسا بذلك لانها خشيت انـدلاع ثورة في البلاد، كما حدث في الجزائر إذ كانت الثورة مشتعلةً هناك،

وأصدر رئيس وزراء فرنسا يومذاك قانون الإصلاح الإدارى الذي ينص على إجراء انتخابات في كل إقليم لتأسيس جميعات عامة تتولى تشكيل الوزارة.

وفي عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) جاء ديغول إلى حكم فرنسا، وعرض مشروعه فوافقت عليه أغلب الأقـاليم، فنـالت مالي-الاستقلال الذاتي ضمن المجموعة الفرنسية، وألغيت وظيفة الحاكم، وتشكلت الوزارة برئاسة (موديبوكيتا).

وفي عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) تم اتحاد بين السودان الفرنسي «مالي» والسنغال أطلق عليه اسم مالي، وانتخب (موديبوكيتا) رئيساً لهذا الاتحاد، ونال الاستقلال ضمن المجمـوعـة الفرنسية عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، ولكن لم يلبث أن حل الاتحاد بعد ثلاثة أشهر من قيامه، وأعلن السودان نفسه جمهورية مستقلة استقلالاً تامـاً مع الاحتفاظ باسم (مالي)، وانتخب (موديبوكيتا) رئيساً للجمهورية عام ١٣٨هـ (١٩٦١م)، وجـرت مفاوضات مع فرنسا بشأن القواعد العسكرية في مالي. [وينتمى موديبوكيتا إلى أسرة كيتا التي حكمت مالي منذ عام ٦٣٣هـ].

وفي عام ١٣٣٨هـ (١٩٦٨م) انتهت مدة رئاسة موديبوكيتا، وقد نحى عن الحكم بعد حركة عسكرية قادها الملازم الأول (موسى تراورى) الذي ينتمى إلى أسرة تراورى التي حكمت مدة مملكة مالي.

النيجـــــر

لمحة جغرافيـــــة:

تبلغ مساحة النيجـر (١,٢٦٧,٠٠٠) كيلو متر مربع، فهى من الدول التي تشغل مساحة واسعة في القارة الإفريقية. ويتألف سطحها من هضبة واسعة يبلغ معدل ارتفاعها ٣٦٥م عن مستوى سطح البحر، ويصل أقصى ارتفاع في الوسط ٢٠٠٠م ومتمثلاً في كتلة (آبر) ذات الصخور القديمة، ومن هذه الكتلة تميل الأرض نحو الغرب والجنوب الغربى حيث تجرى أودية جافة باتجاه مجرى نهر النيجر، كما تميل نحو الجنوب الشرقى باتجاه بحيرة تشاد حتى يسير وادى (دليا)، وتمتد هذه الكتلة نحـو الشمال حيث تتصل بالمرتفعات الجزائرية متمثلة بجبال تاسيلى.

وقد قطعت المياه الجارية هذه الكتلة وجزأتها فأصبحت على شكل كتل منفردة، تفصل بعضها عن بعض أودية واسعة، وتقع مدينة (أغاديس) وسط هذه الكتل في وادٍ عريض، إن هذا الانخفاض العام في هذه الكتلة الجبلية، والأودية التي تقطعها جعل المواصلات تجتازها بشكل سهل فهناك طرق رئيسية بين بلاد الجزائر في الشمال ومدينة (زندر) في الجنوب مارة من (اغاديس) وتعد صلة الوصل بين البلدان المتوسطية والأجزاء السودانية في القارة الإفريقية.

أما المنطقة الشرقية والمحصورة بين المرتفعات الوسطى والشمالية فتمتد منطقة واسعة تغطيها الرمال التي تعرف بالعرق الكبير، وتقوم وسط هذه الرمال سلسلة من الـواحات تمتد من الشمال إلى الجنوب، تصل بينها طريق تصل أيضاً بين البلدان المتوسطية في الشمال وبين بحيرة تشاد. وكذلك توجد الرمال في الجهات الغربية وتقطعها الحدود السياسية مع مالي.

أمـا في أقصى الشـمال الشرقى وعـلى مقربة من الحدود الليبية فنجد حمادة (مانغوني) ونجد (دجادو) الذي يشمل عدداً من الواحات الصغيرة.

أمـا في الجنـوب فتنخفض الأرض وتنبسط، وتقـل المـظاهر الجبلية، وتزداد الأودية، وتظهر آثار المياه فيها، وتقوم المدن، وتسود الحياة الزراعية.

وتمتد بحيرة تشاد في أقصى الجنوب الشرقى، أما في الجنوب الغربى فيجرى نهر النيجر مسافة ٢٩٦ كم في بلاد النيجر، ويدخل من بلاد مالى، ويكون صالحاً للملاحة، ثم يدخل بلاد نيجيريا.

المنـــــاخ:

تقع النيجر بين خطى عرض ٢٤, ١٢ و ٢٣,٣٠° إذ يمر مدار السرطان من نقطة التقاء الحدود الليبية ـ الجزائرية ـ النيجرية، وبذا فإن النيجر تشتمل على منطقتين مناخيتين هما:

١ ــ منطقة السافانا في الجنوب بين خطى عرض ١٢,٢٤ عند الحدود الجنوبية وخـط عرض ١٨° شمال مدينـة (أغـاديس)، وتـنـمــو في هذه المنـطقـة الحشاش القصيرة، كما توجد مجموعات من الشجيرات مثل: الباؤباب، والماهوجينى، والكابوك. وتكون الحرارة مرتفعة طيلة العام، وأشد الأشهر

حرارة هى أشهر نيسان وأيار وهى الأشهر التي تسبق الفصل الماطر، حيث تخفف الأمطار من ارتفاع الحرارة إذ يذهب بعضها في تبخير كميات من المياه المتجمعة نتيجة الأمطار أو الهاطلة. ويبلغ معدل كميات الأمطار ٢١٧ مم في مدينة زندر، و ٧٥٠مم في مدينة نيامى. وإن موسم الأمطار هو فصل الصيف بين حزيران وأيلول.

٢ ــ منطقة الصحراء في الشمال بين خطى عرض ١٨-٢٣,٣٠، وتكون الحرارة مرتفعة طيلة العام، وتتباين درجاتها بين الليل والنهار، وقلما تهطل الأمطار إذ يتبخر أكثرها قبل سقوطة على الأرض. ولا تهطل إلا على المناطق المرتفعة. ولاتنمو إلا بعض الحشائش الجافة، ونباتات الترب الملحية، إثر هطول الأمطار، وتنمو في بطون الأودية الجافة بعض الشجيرات الصحراوية، كما تتناثر بعض المجموعات من الواحدات وخاصة في المنطقة الشرقية بين الرمال على شكل خط طولانى من الشمال إلى الجنوب.

الميـــــاه :

تتكون بعض المجارى المائية عقب سقوط الأمطار، وتجرى مع ميل الأرض فتنجه نحو الجنوب الغربى لتنتهى في نهر النيجر، ومنها ما يتجه نحو نيجيريا لتؤول إلى وادى (سوكوتو) الذي يصب في نهر النيجر، كما أن بعض هذه الأودية يسير نحو بحيرة تشاد، ومنها ما يغيض في الرما وخاصة أودية نجد (دجادو).

أما نهر النيجر في الجنوب الغربى فيكون مجراه عميقاً، الأمر الذي يدعو إلى رفع المياه منه بواسطة المضخات من أجل العمل الزراعى، كما أن المشروعات الاروائية إنما يقوم أكثر عليه.

الســـكـان :

لما كانت المنطقة الجنوبية هى البقعة التي تتوافر فيها المياه بسبب الأمطار لذا فهى الجزء المأهول ففيه المدن الرئيسية مثل: نيامى العاصمة، وزندر، ومارادى، وتاهوا، ودوسو، وهو مركز النشاط البشرى.

يقدر عدد سكان النيجر بستة ملايين نسمة، وبذا لاتزيد الكثافة على خمسة

أشخاص في الكيلو المتر المربع الواحد، وهى كثافة قليلة جداً. وتعد من الكثافات القليلة في العالم.

وأشهر القبائل التي تقيم أو تنتقل في أرجاء النيجر هي: الهاوسا، والفولانى، والغرما، والسنغاى، والطوارق وكلهم من المسلمين. ولكل قبيلة لغتها الخاصة بها، أما اللغة الفرنسية فهى الرسمية، وتنتشر العربية في الأوساط الشعبية وعند أهل العلم من المسلمين.

النشط البشــــــرى:

تمتـد الصحراء على نصف مساحة النيجر، وتحتل المناطق الشمالية، وتشمل الأجزاء الواقعة إلى الشمال من الخط الممتد من خط عرض ١٥° في الشرق شمال بحيرة تشاد إلى الخط :٣,٧٠° عند حدود مالى، وَلا تضم هذه المنطقة الا بضع واحـات بعضها يقع في الشمال الشرقى بين الرمال ويعتمد على المياه الجوفية، وبعضها في الوسط بسبب بعض الأمطار التي تتساقط على المنطقة نتيجة الارتفاع ووجود الأودية المحمية بتلك المرتفعات ايضاً.

وإلى جنوب المنطقة الصحراوية توجد منطقة مراع تمتد من خط عرض ١٣ على بحيرة تشاد وحتى خط عرض ١٦° عند حدود مالي، وتكثر الواحات في هذه المنطقة وخاصة في الوسط في المنطقة المرتفعة وأشهرها (أغاديس) و (عين غال) إلى الغرب من الأولى، وتربى في هذه المنطقة الإبل، والأغنام، والماعز.

وإلى الجنـوب من المنـطقـة الثانية توجد منطقة مراعى موسمية حيث تنتشر الأعشـاب في موسم الصيف بسبب سقـوط الأمـطار وتربى هنا من الحيوانات الأغنام، والماعز، والأبقار، والحمير، والخيول.

وإلى الجنوب من المنطقة الثالثة تقوم الحياة الزراعية، فيزرع الأرز على طول مجارى الأنهار والأودية، مثل نهر النيجر، والأودية التي تدخل أرض نيجيريا حيث تكون منطقة قرب الحدود منطقية مستوية تتجمع فيها المياه وتصلح لهذا النوع من الزراعة، وحول مدن مارادى، وزندر.

ويزرع القـطن جنوب شرقى مدينة (مارادى) وحتى حدود نيجيريا، وشمال (ماداوا)، وفي منطقة الرعى الموسمى، ويصدر الإنتاج كاملاً.

ويجمـع الصمـغ العربى من المنطقة القريبة من بحيرة تشاد وعلى مساحات واسعة.

أما الفول السوداني فيزرع في المناطق التي تقع على طول الحدود مع نيجيريا تقريباً، وتزداد المساحة المزروعة بهذا النوع شمال (مارادى) إلى منطقة (زندر) و (غورى)، كما تكثر في منطقة (دوسو)، وعلى نهر النيجر بين (تيلايرى) ومنطقة خروج النهر من البلاد عند الحدود مع (بنين) ونيجيريا، وفي الأقسام الجنوبية الواقعة قرب الحدود مع فولتا العليا، وقد دخلت زراعته حديثاً إلى البلاد وذلك حوالى عام ١٣٨٠هـ .

كما تزرع الذرة الصيفية والدخن وكلها تذهب في الاستهلاك المحلى، كما يزرع البندق، والكاساقا، ويصاد السمك من نهر النيجر، ويقدر إنتاج أهم الحاصلات بما يلي:

الفول السوداني	١٣٥,٠٠٠	طن
الدخن	٥٠٠,٠٠٠	طن
الذرة الصيفية	٥٧١,٠٠٠	طن
القطن	٧,٠٠٠	طن
الأبقار	٣,٥٠٠,٠٠٠	رأس
الأغنام	١,٨٠٠,٠٠٠	رأس
الماعز	٥,٠٠٠,٠٠٠	رأس
الإبل	٢٥٠,٠٠٠	رأس
الخيول	٨٦,٠٠٠	رأس
الحمير	٣٠٠,٠٠٠	رأس
السمك	٦,٠٠٠	طن

لقـد اكتشفت ثلاثة مناجم لليوارنيوم عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م)، إثنان منها شمال مدينة (أغاديس)، والثالث بالقرب من (ارليت) على بعد ٢١٠ كيلومترات شمال (أغاديس)، كما يوجد في المنطقة القصدير والتنغستين وقرب مدينة (أغاديس) أيضاً. وتعد واحة (بيلما) من أشهر مناطق الملح.

ولعل أهم مشكلة تعانيها النيجر بعد الموانىء، وهى في الوقت نفسه لاتتبعها.

التـــاريخ

توغل الرومان جنوب الصحراء، ولما جاء المسلمون كانوا يجتازون المنطقة إلى بحيرة تشاد فنشروا الإسلام أثناء رحلاتهم عن طريق الدعوة والتجارة أو على الأقل عرف السكان المستوطنون في تلك الجهات الإسلام عن طريق تلك الرحلات.

وفي القـرن الخـامس الهجرى أخضع الطوراق الأجزاء الشمالية اليهم، كما أخضع الهاوسا بقية المناطق من النيجر اليوم إليهم وكلا الجماعتين من المسلمين. فبدأ الإسلام ينتشر على نطاق واسع بين الجماعات المستوطنة هناك. وشكل الحكام إمارات متعددة في تلك الجهات.

وفي ٩٢١هـ (١٥١٥م) سار جيش (غاو) من مملكة (سنغاى) بقيادة (اسكيا محمـد الأول) إلى المنـطقة فأخضع الدويلات فيها سواء دويلات (الهاوسا) في الجنوب أم الإمارات البربرية في الشمال حيث.تمكن من دخول مدينة (أغاديس) البربرية، وبعد مدة انسحب السنغانيون من البلاد، وعادت الإمارات إليها.

دخلت قبيلة (غرما) مع قبائل بدوية أخرى المنطقة من الشمال، وتمكنوا بزعامة الطوارق أن يقيموا تكتلاتٍ قوية في هضبة (آير) وأن يقفوا في وجه الفولانيين الذي بدأوا يتدفقون إلى المنطقة وذلك في بداية القرن الثاني عشر الهجرى. إلا أن (عثمان بن فودى) قد استطاع إخضاع إمارات (الهاوسا) إلى سلطانه في المدة الـواقعـة من ١٢١٩ـ١٢٢٥هـ (١٨٠٤ـ١٨١٠م) كما استطاع خلفاؤه من بعده الاحتفاظ بهذه السلطة بصفتهم زعماء دينيين.

وفي عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م) وصـل إلى المنـطقـة المقـدم (دنهم) والمـلازم (كـلابرتن) الموفدان من قبل الحكومة البريطانية لمعرفة نهر النيجر، والتقيا بابن (عثمان بن فودى)، ودرسا المنطقة دراسة جيدة.

واتفقت فرنسا وإنكلترا عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م) على تعيين الحدود واقتسام مناطق النفوذ بينهما وسط إفريقية، وكانت النيجر من نصيب فرنسا، فأرسلت حملة تمكنت من السيطرة على الأجزاء الجنوبية من البلاد إلا أنها لاقت مقاومة عنيفة في الشمال من قبل قبائل الطوارق، غير أن التعاون الإنكليزي ـ الفرنسي في العمليات العسكرية قد خفض من شوكة المقاومة، واستطاعت فرنسا السيطرة على

البلاد كلها عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وعدتها مستعمرة لها منذ ذلك العام.

شكل سكان النيجر أول حكومةٍ وطنيةٍ عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، وقد صوتت إلى جانب دستـور ديغول عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م)، وشكلت حكومة جديدة برئـاسـة (هـامـانى ديورى) زعيم الحزب التقدمى النيجرى الذي كان يناصره الرؤساء المسلمون.

وفي عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) شكل النيجر، وداهومى، وساحل العاج، وفولتا العليا رابطة لتنسيق السياسة الاقتصادية والخارجية لهذه الدول، وانتخب السيد (هامانى ديورى) رئيساً لهذه الرابطة في السنة الأولى حيث كانت الرئاسة بالتناوب سنوياً، إلا أن النيجر فتحت باب المفاوضة مع فرنسا للحصول على الاستقلال التام وفعلاً فقد حصلت عليه عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، واسوة بالبلدان الأخرى المشتركة في الرابطة فقد رفضت الانضمام إلى الجماعة الفرنسية.

بوركينافاسـو « فولتا العليا »

لمحـة جغرافيـة :

تبلغ مساحة فولتا العليا (٢٧٤,٢٠٠) كيلو متر مربع، ويتألف سطحها من هضبةٍ قديمة هى هضبة (موسى) التي تتركب من صخور من الغرانيت والغنايس، وتغطيها صخور رسوبية تعود إلى الزمنين الأول والثاني، ويصل أقصى ارتفاع لها في الغرب، وفي الوسط شمال العاصمة إلى ٧٤٩م فقط. وتنحدر الهضبة نحو الجنوب حيث تجرى عدة أنهار تقطعها منها: نهر الفولتا الأسود الذي يشكل الحدود بينها وبين غانا، والفولتا الأحمر، والفولتا الأبيض اللذان يلتقيان بعد أن يسيرا مسافة في غانا، ثم تشكل الأنهار الثلاثة بحيرة غانا والتي يخرج مها نهر الفولتا. كما تميل الهضبة نحو الشرق حيث تجرى بعض الأودية نحو نهر النيجر، وتغيض بعض السيول في الرمال شمال الكتل الانكسارية المنعزلة الواقعة شمال العاصمة.

المنـــــاخ:

تقع فولتا العليا بين خطى عرض ٩,٣٥-١٥° شمالاً فهى إذان ضمن المناخ المدارى ذى الأمطار الصيفية، والشتاء الجاف.

تتناقص الأمطار من الجنوب الغربى نحو الشمال الشرقى فتكون ١٥٠٠ مم في الجنـوب الغربى، ويكون المناخ أقرب إلى الغينى، وتقل إلى ٥٠٠ مم في الشمال الشرقى، ويأخذ المناخ الصفة القريبة من الصحراوية شمال خط عرض ١٤° تقريباً.

وتهب في الشتـاء رياح الحرمطان الشمالية الشرقية الجافة التي تحمل الأتربة والغبـار، وتنمـو في الجنوب الغابات المدارية وتتدرج نحو الشمال إلى حشائش السافانا التي تتخللها الأشجار، ثم الأشجار المتناثرة بين الأعشاب القصيرة في الشمال الشرقى.

السـكـــان :

يقدر عدد سكان فولتا العليا عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) بستة ملايين نسمة وبذا تزيد الكثافة على عشرين شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وإن كانت هذه الكثافة تختلف بين جهة وأخرى، فهى في هضبة (الموسى) تزيد على المائة في حين تنخفض في الجنوب الشرقى على حدود بنين والتوغو إلى خمسة أشخاص بسبب انتشار الأمراض هناك.

وأشهر القبائل التي تعيش في فولتا العليا هي: الموسى وتعيش في الوسط من الشمال إلى الجنوب مارة بالعاصمة، وتشكل أكثر من نصف السكان، ولاتزال أعداد منها على الوثنية، ثم هناك قبائل الماندينغ، والهاوسا، والفولانى، والطوراق في الشمال وأغلب هذه القبائل من المسلمين.

تقدر نسبة المسلمين بخمسة وستين في المائة، ويوجد بين السكان مايقرب من مائة ألف نصرانى، والباقى لايزالون على الوثنية.

النشاط البشـــرى:

يعتمد السكان في حياتهم الاقتصادية على الزراعة ثم الرعى. فيزرعون الأرز،

والذرة، والفول السودانى، والقطن، والسمسم. ويربرون ٢,٥ مليون رأس من الأبقار، و ٣,٥ مليون من الأغنام والماعز.

ويوجد في أرض فولتا العليا المنغنيز، والبوكسيت، والنحاس، والنيكل ولكن بكميات قليلة.

التـــاريخ

يعتقد أن أهم قبائل بوركينافاسو وهى قبائل (الموسى) قد جاءت من شرقى إفـريقية، ونـزلت هذه الديار وذلك في القرن الرابع الهجرى. وأسست ممالك صغـيرة، وكانت على الوثنية رغم أن مايحيط بها ذو أكثرية مسلمة، وخضعت لمملكة (مالى) المسلمة، كما غدت جزءاً من إمبراطورية (صنغاى) المسلمة أيضاً فيما بعد وذلك في القرن الثامن الهجرى، وكانت تنقض على المسلمين أحياناً حتى يمكننا أن نعدها سبباً من أباب ضعف تلك الدول المسلمة.

ولما ضعفت الدول الإسلامية في تلك الأنحاء، وتقدم الفرنسيون، كانت مملكة لقبائل (موسى) قائمة في (واغا دوغو) عاصمة بوركينافاسو اليوم، فوقعت فرنسا مع حكام تلك المملكة معاهدة عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م)، وبعد ثماني سنوات من سيطرة فرنسا على تلك البقعة ضمتها إلى بلاد النيجر فيما عرف بمستعمرة السنغال العلوى والنيجر، ثم عادت وجعلتها مستعمرة مستقلة عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م) وعرفت باسم مستعمرة فولتا العليا.

قام المسلمـون في فولتا العليا يطالبون بالاستقلال، فرأت فرنسا أن تجزىء المستعمرة كى تخف المقاومة، وحتى لاتتكرر، فأعطت السودان الفرنسى (مالى) جزءاً، والنيجـر جزءاً ثانياً، وسـاحـل العـاج جزءاً ثالثاً وذلك عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م)، ثم عادت فأعـادتهـا بالحـدود السابقة نفسها وذلك عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٦م) ولم ينته العام حتى جرى انتخاب جمعيه وطنية. وبعد عشرة أعوام أعطيت الحكم الذاتي، وبعد عام آخر أى عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) أصبحت عضوا في الجماعة الفرنسية بعد مشروع ديغول، ولم يمض عام حتى وضع دستور وجرت الموافقة عليه. ثم استقلت عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وانتخب (موريس باميغو) رئيساً للجمهورية، وقبلت الدولة عضواً في هيئة الأمم المتحدة.

وفي عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) أى بعد الاستقلال بست سنوات قام رئيس الأركان العقيد (سانغولى لاميزانا) بأول انقلاب عسكرى، فأطاح بالحكم السابق، وعلق الدستور، وأعلن نفسه رئيساً للدولة، وفشلت محاولة عودة السلطة إلى المدنيين التي قادها الرئيس السابق عام ١٣٨٧هـ .

لقد وصل الإسلام إلى فولتا العليا في وقت متأخر عن طريق الممالك الإسلامية التي قامت في المنطقة وعن طريق تحرك القبائل المسلمة نحو الجنوب واستمر ذلك الانتشار حتى جاء الفرنسيون حيث توقف المدُّ الاسلامي بسبب السياسة الفرنسية، وتدفق سيل الإرساليات التنصيرية التي تملك الامكانات الضخمة، والتي مسموح لها بالتصرف داخل البلاد كما تشاء. فلما أخذت البلاد الاستقلال عاد المدُّ الاسلامي من جديد رغم الحكم النصرانى، وبقاء الإرساليات النصرانية، وإذا كانت نسبة المسلمين قبيل مجىء الفرنسيين لم تكن لتزيد على ٥٠٪ كثيراً فإن هذه النسبة قد ارتفعت إلى مايقرب من ٦٠٪ بعد زوال الاستعمار الفرنسي بعشر سنوات، وهى الآن تزيد على ٦٥٪ من عدد السكان.

جمهورية إفريقية الوسطى

تبلغ مساحة جمهورية إفريقية الوسطى ٦٢٢,٩٨٤ كيلو متراً مربعاً، وتقع وسط إفريقية وتبعد أكثر من ألف كيلومتر عن أقرب نقطة لها من المحيط. وتتألف من هضبة قليلة الارتفاع يبلغ معدل ارتفاعها ٦٠٠م، وهى هضبة قديمة سوتها عوامل التعرية وتقطعها الأنهار الكثيرة، وتعد أجزاؤها الوسطى من الغرب الى الشرق نقاط توزع المياه بين نهر الكونغو في الجنوب وبحيرة تشاد في الشمال. كما أن حدود الدولة الشرقية هي خط توزع المياه بين النيل والكونغو.

تقع بين دائرتى عرض ٤-١١ فالأجزاء الجنوبية منها إذن تقع ضمن نطاق المناخ الاستوائي ذى الأمطار الغزيرة، والحرارة الدائمة على حين تقع الأجزاء الشمالية ضمن نطاق المناخ المدارى ذى الفصلين الماطر صيفاً، والجاف شتاءً مع وصول رياح الحرمطان القارية في الفصل الحاف.

تغطى الغابات المدارية الأجزاء الجنوبية، وحشائش السافانا الأجزاء الشمالية،

وتتكلف الغابات على طول مجارى الأنهار.

تعتمد في اقتصادها على الزراعة فتنتج القطن، والبن، والكاكاو، وهي غنية بالثروة الخشبية، واكتشف فيها الماس في الجنوب الغربى قرب (بربراتى) وفي الشمال الشرقى قرب (ببراو).

يقدر عدد سكان جمهورية إفريقية الوسطى بمليوني نسمة، وبذا فالكثافة صغيرة لاتتعدى أربعة أشخاص في الكيلو المتر المرابع الواحد. وينتمى السكان إلى شعب البانتو وأهم قبائل هذا الشعب (الباندا)، ويشكلون ثلث السكان، و(البايا) في الغرب، و(المانغا) في الوسط، و(اللندا) في الشرق، و(الزاندى) في الجنوب الشرقى وفي الشمال الشرقى توجد قبائل سودانية مستعربة، كما تعيش قبائل (البيل) و (البورورو) في المرتفعات الغربية، ولاتزال في غاباتها ترتع بعض مجموعات الأقزام التي تحيا حياة بدائية.

وتسود لغة (الأوبانغى) في التجارة، بينما لكل قبيلة لغتها الخاصة، واللغة الرسمية هي الفرنسية.

انتشر الإسلام في جمهورية إفريقية الوسطى في مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) عندما بدأ الدعاة يفدون إلى المنطقة. ومن أشهرهم محمد بن عبدالكريم المغيلى الذي جاء من شمالي إفريقية، كما خضعت أجزاؤها الشمالية، والشمالية الشرقية للممالك الإسلامية التي قامت في منطقة تشاد وفي غربى السودان فزاد انتشار الإسلام، كما وصل إليها الدعاة السنوسيون من ليبيا والدعاة الذين أرسلهم المهدى في السودان وذلك في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر الهجري.

ومع تقدم الإنكليز في السودان للقضاء على المهديين كان الفرنسيون يتقدمون في أراضى إفريقية الوسطى، ووصلت طلائعهم عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) إلى العاصمة بانغى. ولم يلبثوا أن حولوا المنطقة التي كانت معروفة آنذاك باسم (أوبانغى ـ شارى) إلى إقليم تحت استعمار الفرنسي، ثم ضم إلى تشاد عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م)، وبعد أربعة أعوام أصبحت إفريقية الإستوائية الفرنسية مؤلفة من أربعة أقاليم هي: تشاد ـ أوبانغى شارى ـ الغابون ـ الكونغو واستمر

هذا الوضع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ظهر (برثلومى بوغندا) كزعيم سياسي بعد الحرب العالمية الثانية، وتولى رئاسة أول حكومة عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م)، وصوتت البلاد لصالح مشروع ديغول، وأصبح اسم البلاد: جمهورية إفريقية الوسطى بعد أن كان (اوبانغى ـ شارى)، وقد حصلت على الاستقلال عام ١٣٨٠هـ .

وتوفي «بوغندا» بحادث طائرة، وانتخب رئيساً للبلاد (دافيد داكو).

الفصل العاشر
دول غربى إفريقية

١ - السنغال

لمحة جغرافية :

سنغامبيا حوض رسوبي واسع، تجرى فيه أنهار من الشرق إلى الغرب أهمها: نهر السنغال، ونهر غامبيا، وهر كازامانس، والرأس الأخضر الذي تقع عليه العاصمة «داكار» مخروط بركانى اتصل بالبر بترسبات رملية.

تبلغ مساحة البلاد ٢١٢ ألف كم٢ تقريباً، ويزيد طول الساحل على ٦٠٠ كم. تمتد البلاد بين خطى عرض ١٢,١٢ - ١٦,٢٠ فهى ضمن نطاق المناخ المدارى، ويتكون الحرارة مرتفعة على مدار السنة، وتهطل الأمطار في فصل الصيف على حين يكون الشتاء جافاً، وتتناقص الأمطار من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق، فهى ٢٠٠٠ مم في الجنوب و ٥٠٠ مم في الشمال.

يقدر عدد سكان سنغامبيا عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) بحوالى خمسة ملايين ونصف المليون، فتكون الكثافة ٢٥ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد. وأشهر القبائل هي: «الولوف» ويشكلون ثلث الشكان، و «السرير»، و «التوكلور»، و «الماندنيغ»، و «البيل»، و «الفولانى»، و «الديولا»، و«الساركوليه». وتبلغ نسبة المسلمين في السنغال ٩٥٪ من مجموع السكان.

تعد لغة «الولوف» هي اللغة السائدة ولغة التجار. أما المجموعات فلكل لغتها، واللغة الفرنسية هي الرسمية عدا (غامبيا) التي تتكلم اللغة الانكليزية.

تنتج البلاد الفول السودانى، والذرة، والقطن، والأرز، والصمغ العربى. وتربى الحيوانات، كما تنتج الفوسفات والألمنيوم.

بدأ الإسلام ينتشر في بلاد السنغال منذ أن أقبلت عليه قبائل تلك الديار وخاصة قبيلة صنهاجة التي انتشر فيها الإسلام منذ أيام عقبة بن نافع فكانت هذه القبائل تنتقل نحو الجنوب، وينتقل معها الإسلام، وزاد أيام دولة الأدراسة التي قامت عام ١٧٢هـ إذ انضوت ديار الملثمين تحت ظلها، وأصبحت جزءاً من أملاكها، وتحالفت قبائل الملثمين بزعامة (لمتونة)، وبدأت تتجه نحو الجنوب، وساعدها في هذا الاتجاه ضعف دولة (غانا) آنذاك، كما كان خط الانتشار يتجه نحو الغرب، حيث كانت عدة ممالك في المنطقة أشهرها: مملكة (بامبوك) ومملكة (التكرور) وهذه الأخيرة اعتنق ملكها الإسلام حوالى عام ٤١٦هـ .

وانطلقت دولة المرابطين من جزيرة عند مصب نهر السنغال، وهاجمت القبائل المجاورة، وأرغمتهم على الإسلام، وتوسعت الدولة حتى قضت على دولة غانا، ونشرت الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية، ومن هذه القبائل الفولانى التي تحولت إلى الإسلام حوالى عام ٤٦٩هـ في منطقة السنغال.

ومن أوائل القرن السابع الهجرى وحتى القرن الحادى عشر الهجرى كانت أرض السنغـال ضمن مملكة مالى الإسلامية، وإن كانت قبيلة «التوكلور» هى صاحبة النفوذ في منطقة السنغال تحت إشراف مملكة مالى حتى عام ٦٣٨هـ ، حيث حكم الفولانيون الذين جاءوا (من كانياغا) حتى عامة ٧٥١هـ ، وتلاهم شعب الولوف الذي استمر حكمه حتى القرن التاسع حيث رجع التوكلور إلى الحكم وقوى مركزهم إذ كانت مملكة مالى آخذة بالضعف، وكانت هذه الحكومة كلها تقوم تحت إشرافها، وفي عام ١١٩٠هـ (١٧٧٥م) أسس الفولانى حكومة اتسعت رقعتهـا، وظهـر عام ١٢٥٤هـ ١٢٣٨م) الحاج عمر الفولانى فحاول التوجه نحو الغرب ولكنه اصطدم بالفرنسيين، وتمكنوا من القضاء على سلطانه عام ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م)، وإن استمر حكم أبنائه حتى عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م) حيث دخل الفرنسيون البلاد.

التـــاريخ

وصـل بعض البحارة الأوروبيين إلى نهر السنغال عام ٧٤٧هـ (١٣٤٦م)، وزاروا الرأس الأخضر، ولكنهم لم يقيموا فيه، وبعد مائة عام احتل البرتغاليون

جزيرة (أرغين) الصغيرة، كما احتل الهولنديون جزيرة (غورية) مقابل (داكار)، وظلّ هؤلاء وأولئك في هاتين المنطقتين اللتين دخلاها حتى نهاية القرن الثامن، حيث بدأ الفـرنسيون يترددون على الشواطىء، وينشئون بعض المراكز للإقامة فيها. ولم يكن المسلمون يدرون ما الاستعمار! كما لم يكن لهم نواحى عدوانية ضد أى نوع من بنى البشر، ومادام يعيش بالقرب منهم إناس وثنيون فما يضيرهم لو أقام نصارى! حيث لم يكن تطبيق الإسلام كاملاً عندهم، فقد دخلت قبائلهم في الإسلام حديثاً، ومعلوماتهم لاتزال ضحلة.

وصـل البرتغاليون إلى الرأس الأخضر، وتسللوا منه إلى الداخل نحو نجد (بـامبـوك) بحثاً عن الذهب، وفي عام ١٠٣٦هـ (١٦٢٩م) أسس الفرنسيون مستعمـرة لهم عنـد مصب نهر السنغـال، وفي عام ١٠٧٠هـ (١٦٥٩م) أقام الفرنسيون حصن (سان لويس)، ثم طردوا البرتغاليين من ممتلكاتهم جنوب الرأس الأخضر، وأصبحت شواطىء بلاد السنغال كلها بأيديهم.

وقعت الحروب بين فرنسا وإنكلترا، واستمرت قرنين متواليين من أجل الصراع على السيطرة وامتـداد النفـوذ، فاحتلت انكلترا مستعمـرة (سـان لويس) عام ١١٧٢هـ (١٧٥٨م)، ثم عاد السنغـال إلى فرنسـا بموجب معاهدة ١١٩٨هـ (١٧٨٣م)، ثم عاد الإنكليز واحتلوا المنطقـة، وعقـدت معـاهدة باريس بين الـدولتين المتحاربين عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) حيث عادت المنطقة إلى فرنسا، وانتهى كل تدخـل أوروبى في ذلـك الجزء منذ ذلك التاريخ. وكانت المراكز الأوروبية على شواطىء غربى إفريقية تقتصر يومذاك على الرقيق والتجارة فيه.

وعنـدمـا تولى نابليون الثـالث حكم فرنسا عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) وضع مشروعاً لتوسع داخل السنغال، وعين الجنرال (فادهرب) حاكماً على المنطقة فجرد حملات كبـيرة لاخضاع المنطقة الداخلية، واشتبك مع الإمارات القائمة هناك بحروب دامية استمرت عشرات السنين انتهت بتوطيد السيادة الفرنسية، واتخذت السنغـال كقـاعدة للعمليات الحربية الاستعمارية الفرنسية. وأعيد تنظيم إقليم السنغال عام ١٢٧٧هـ.

وقع خلاف بين الإنكليز والفرنسيين على حدود السنغال من جهة (غامبيا)، فعقد الجانبان معاهدة عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) سوى بموجبها الخلاف فتنازل

الإنكليز عن جزيرة (غورية) للفرنسيين، وتنازل هؤلاء لهم عن منطقة واسعة على جانبي نهر (غامبيا) عرفت باسمه، وغدت مستعمرة انكليزية.

وفي عام ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) صدر مرسوم نظم فيه أوضاع السنغال حيث شكل من (داكار) ومن المنطقة المحيط بها منطقة خاصة، وقسمت بقية أجزاء الإقليم إلى أربع مقاطعات، وكان سكان السنغال يحملون بطاقة الرعية الفرنسية، ويؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية في الجيش الفرنسي، كما ينتخبون لهم نوّاباً عنهم في المجلس النيابي الفرنسى، فكانوا هم الزنوج الوحيدون الذين يتمتعون بمثل هذه الحقوق السياسية.

وفي عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) صدر مرسـوم آخـر أعـاد منطقة (داكار) إلى السنغال، وبعد عام جرى انتخاب أول جمعية عامة للبلاد، وبعد عشر سنوات تألفت أول حكومة ذاتية للسنغال.

وعنـدمـا صدر قانون (ديغول) عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) أصبحت السنغال عضواً في الأسرة الفرنسية، لأنها صوتت إلى جانب القانون. وبعد عام انضمت إلى السودان الفرنسي ليؤلفها اتحاد (مالي)، ولم يمض سوى ثلاثة أشهر حتى فصم عرى هذا الاتحـاد، وعادت السنغال جمهوريةً مستقلةً ضمن الأسرة الفرنسية، وانتخب (ليوبولد سنغور) رئيساً للجمهورية و (محمد ضيا) رئيسا للوزارة لمدة خمس سنوات. وفي عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) اتهم محمد ضيا بمحاولة انقلاب، وذلك عند وصوله إلى البلاد وكان في رحلة خارجها اعتقل مع أربعة من وزرائه، وأصبح سنغور، يمثل السلطـة التشريعية والتنفيذية.

وفي عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) تنازل (سنغور) عن الرئاسة إلى (عبده ضيوف)، وفي عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) جرى اتحاد بين غامبيا والسنغال باسم دولة «سنغامبيا».

وغامبيا كانت تمثل وتداً داخل السنغال على جانبى نهر غامبيا، وتبلغ مساحتها عشرة آلاف كيلومتر مربع، ويقدر سكانها بنصف مليون، تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٨٤٪، ويعملون في الزراعة، وقبائلهم القبائل نفسها التي تعيش في السنغال.

وكانت هذه المنطقة مجال صراع بين فرنسا وإنكلترا، واحتل الفرنسيون الضفة الأولى من النهر على حين احتل الإنكليز الضفة الثانية وبنوا حصن (سان جيمس)، ونشروا تجارة الرقيق.

وفي عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) أعطيت السنغال لفرنسا فترك الإنكليز حصن (سان جيمس) وبنوا مدينة (باثورست) على جزيرة (القديسة مارى) في مدخل النهر. ثم عقدت معاهدة تسوية بين الطرفين عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) نصت على أن تمتلك انكلترا قطعة من الأرض ستة أميال على كل ضفة من النهر ولمسافة ٢٥٠ ميلاً من الداخل مقابل أن تتنازل لفرنسا عن جزيرة (غورية) الواقعة مقابل (داكار)، وتكون بعدهامحمية (غامبيا) بعد عقد معاهدات مع الزعماء المحليين، وفي عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) نالت هذه المحمية الاستقلال الداخلى. وحصلت على الاستقلال بعد عام، وأصبحت عاصمتها (باثورست) تسمى «بانغول». وفي عام ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) اتحدت مع السنغال باسم «سنغامبيا».

٢ ـ غينيا ـ بيســاو

دولة صغيرة تبلغ مساحتها ٣٦,١٢٥ كيلو متراً مربعاً، أى مايقرب من مساحة فلسطين ولبنان مجتمعتين، ويسكنها ما يقرب من ثلاثة أرباع المليون، وهم من قبائل «البيل»، و «الماندينغ» ويعيشون في الداخل وهم مسلمون، و «البالانت» ويعيشون في المناطق الساحلية وتبلغ نسبة المسلمين ٦٠٪ من مجموع السكان، بينما النصارى الكاثوليك لاتزيد نسبتهم على ٥٪ والباقى من الوثنيين.

والمنطقة سهلية منخفضة تحيط بمصبات أنهار خليجية، وتتبعها مجموعة جزر «بيجاجوس» وجزيرة «بولاما».

تقع بين خطى عرض ١١-١٠,١٢° فهى ضمن نطاق المناخ المدارى الغينى فتتراوح درجة الحرارة بين ٢٧° في الفصل المطير، و٣٠° في فصل الشتاء الجاف.

تقوم زراعة الارز التي توسعت في المدة الأخيرة، والفول السودانى، والنخيل الزيتى، وتعصر محصولات هاتين المادتين، وتصدر هاتان المادتان وزيوتهما.

انتشر الإسلام في هذه المنطقة منذ أيام المرابطين، وغدت في القرن السابع ضمن دولة مالي الإسلامية.

عرفت أوربا أرض غينيا ـ بيساو عام ٨٥٠هـ (١٤٤٦م)، وفي القرن الحادى عشر الهجري كان الأوربيون وخاصة البرتغاليين ينقلون إلى أرض غينيا بيساو القبائل الوثنية أو مجموعات نصرانية لتحل محل القبائل المسلمة التي تثور على الأوربيين.

أصبحت غينيا ـ بيساو مستعمرة برتغالية منذ عام ١٢٩٧هـ (١٨٧٩م) وحددت حدودها باتفاقية بين فرنسا والبرتغال ولاتزال كماهى. وغدت عاصمتها «بيساو» منذ عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

وفي عام ١٣٧١هـ (١٩٥١م) أصبحت المستعمرات البرتغالية تسمى الأراضى عبر البحار. وكل إقليم له حاكم عام، ويتمتع باستقلال ذاتى في الشؤون الإدارية والمالية، وتخضع ميزانيته لاعتماد وزير شؤون الأراضى عبر البحار.

وفي عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) منح الأفريقيون الجنسية البرتغالية كاملة، ثم ألغيت الرسوم الجمركية بين البرتغال والأراضى عبر البحار عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م).

تشمل أراضى عبر البحار (غينيا ـ بيساو) و (جزر الراس الأخضر) و (أنغولا) و (موزامبيق) و (ساتومى وبرنسيب) و (غوا) و (مكاو) و (تيمور).

وقامت ثورة في غينيا ـ بيساو عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) ضد البرتغاليين، وقد كان لها صداها الكبير في العالم، ولقد قمعت بشدة من قبل الحاكم العام «سالازار» الذي تولى المنطقة منذ عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) حتى توفى عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٩م)، وخلفه (سبيبولا».

وفي عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) اعترف بالحزب إفريقي الذي يطالب بالاستقلال من قبل لجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة.

٣ ـ غينيــا

تبلغ مساحة غينيا «٢٤٥,٨٥٧» كيلو متراً مربعاً. وتتألف من منطقة سهلية ساحلية تجرى فيها الأنهار باتجاه المحيط الأطلسي، ومنطقة داخلية مرتفعة هى مرتفعات فوتاجالون والتي تعد المجرى الأعلى لنهر النيجر والذي يجرى ضمن حوض واسع.

تقع غينيا بين خطى عرض ١٠,٧-١٢,٣٠ شمالاً فهى ضمن النطاق المدارى ذى الصيف الماطر والشتاء الجاف، وتهطل الأمطار بغزارة فتكون بمعدل أربعة أمتار في الغرب، و ١,٥م على الهضبة ومايقرب من ٧٠٠مم في الحوض الداخلى.

يقرب عدد سكان غينيا من ستة ملايين نسمة، وأشهر القبائل هى: «المادندينغ» و «الصوصو» و «الساراكوليه» و «البيل» و «الفولانى». وتزيد نسبة المسلمين على ٨٨٪ من مجموع السكان، ويقيم الونثنيون في الغابات.

دخل الإسلام إلى غينيا منذ وصل إلى إمبراطورية «غانا» القديمة، ثم خضعت لنفوذ المرابطين، وبعدها أصبحت ضمن أراضى مملكة مالى المسلمة.

وصل البرتغاليون إلى سواحل غينيا في القرن التاسع، ودخل الفرنسيون أفراداً وبالحيلة إلى الداخل ووصلوا إلى «تومبوكتو» في دولة مالى اليوم، وقرر الأوربيون في مؤتمر برلين عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) أن هدفهم هو نشر الحضارة - حسب زعمهم - في القارة الإفريقية السوداء، وقررت فرنسا التوغل إلى الداخل، ودخلت قواتها مدينة «كوناكرى» عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) واضطر حاكم «فوتاجالون» قبول الحماية الفرنسية، إلا أن «ساموى تورى» قد أعلن الجهاد، وقاتل الفرنسيين حتى وقع في أيديهم عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م).

أصبحت غينيا مستعمرة فرنسية منذ عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م)، واستمرت في ذلك حتى عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) حيث انضمت إلى الاتحاد الفرنسي.

وعندما أعلن ديغول عن مشروعة، رفضته غينيا وأبت الانضمام إلى الجماعة الفرنسية، وغدت منذ عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) دولة مستقلة وفي العام التالي انضمت لعضوية الأمم المتحدة، وكان سيكوتورى رئيساً للجمهورية، ولا يزال

إلى الآن في هذا المنصب. وتعرضت البلاد عام ١٣٩٠هـ لغزو من المرتزقة ولكنه كان غزواً فاشلاً.

تشتهــر غينياء بزراعــة البنـدق، والبن، والمـوز، والأنـانـاس، والكـاكـاو، والحمضيات، وقصب السكر، والبطاطا، ويشتغل بالزراعة ٨٠٪ من السكان.

ويستخرج البوكسيت من أرضها، وتعد خامس دول العالم بانتاج الألمنيوم، كما وجد الحديد وبعض المعادن الأخرى وفيها إمكانات ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية.

٤ - سيراليــون

لمحـــة جغرافيـــة :

سيراليون منطقة صغيرة لاتزيد مساحتها على «٧٢,٦٦٤» كيلو متراً مربعـاً، ويبلغ طول سواحلها ٣٣٥ كيلومترا، ويعود ضيقها لاحاطة المستعمرات الفرنسية لها سابقاً.

تتـألف أرض سيراليون من سهـل ساحـلي تكثر فيه المستنقعات والبحيرات الساحلية وخط الساحل رملي كثير التعرجات، ويزيد عرضها على ٣٢ كيلومتراً، وقد استصلح بعضها في الشمال، وفي الشرق تنمو السافانا إثر موسم الفيضان في الصيف، وفي الجنوب أشجار نخيل «الرافيا»، وإلى الشرق يمتد سهل بعرض ١٦٠ كيلومتراً، ولايزيد ارتفاعه على ١٣٠م، ثم تبدأ الأرض بالارتفاع شرقاً حيث السفـوح الغـربية لكتلة «فوتاجالون» ذات الصخور القديمة، وتغطيها الغابات الاستوائية، ويصل علو المرتفعات إلى ١٩٤٨م.

انتشـار الإسلام :

انتشر الإسـلام أيام المـرابـطين (٤٥٠-٥٢٥هـ) نتيجـة الـدعاة الذين كانوا يرسلونهم، وفي القرن السابع خضعت لحكم مملكة مالي الإسلامية، ويجب ألا ننسى أثـر التجّـار الصـالحـين الـذين كانوا يصلون إلى سواحل سيراليون من موريتانيا، والسنغال، وغينيا، ونيجيريا ويتصلون بالسكان.

وفي القرن الثاني عشر الهجرى حدثت معارك بين المسلمين والوثنيين بسبب تخريب المسلمين طبل الوثنيين، وعدّ المسلمون هذا القتال جهاداً مقدساً فانتصروا انتصاراً بيناً فطاردوا الوثنيين واحتلوا مناطقهم واستوطن كثير من المسلمين في هذه الجهات.

وفي اقرن الثالث عشر خضعت منطقة سيراليون لحكم مملكة «فوتاجالون» التي أسسها «التوكلور»، وقادها الحاج عمر، وبعد ذلك بسط (ساموری توری) نفوذه على جميع قبـائـل «المـاندينغ»، واستمر ذلك حتى قضى الفرنسيون عليه عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م).

ومـع هذا فلم تزد نسبـة المسلمين على ٢٥٪ في مطلع القرن الرابع عشر الهجري. ثم بدأت تزداد بسرعة بسبب الإقبال الشديد على الدخول في الإسلام، ووصلت إلى ٤٠٪ ولم ينتصف القرن، إلا وتزيد الآن على ٧٥٪.

السـكان :

يزيد عدد سكان «سيراليون» اليوم على ثلاثة ملايين نسمة، وبذا تكون الكثافة ٤٠ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد، وينتمى السكان إلى عدد من القبائل هى:

١ ـ **التمنى** : وينتشر أفراد هذه القبيلة في الشمال، ويؤلفون ٢٥٪ من السكان، وكانوا يشكلون السكان الرئيسيين لشبه الجزيرة التي كانت نواة الاستعمار الإنكليزي في المنطقة، أو المستعمرة الأولى، عندما تأسست مدينة «فريتاون».

٢ ـ **الماندى** : وينتشر أفراد هذه القبيلة في الأقسام الجنوبية من البلاد، ويصل عدد أبنائها إلى ثلث السكان، ويقع الخلاف بين هاتين القبيلتين الرئيسيتين.

٣ ـ **الفولانى** : ويعيشون في شرقى البلاد.

٤ ـ **الكربول** : وهم مولودون في جزر الهند الغربية، أعيدوا إلى هذه المنطقة بعـد إلغاء تجارة الرقيق، وقد أعيدوا بدفع من المنصرين، واشترت لهم الحكومة الإنكليزية شبه الجزيرة الواقعة جنوب مدينة «فريتاون» من ملك

«التمنى»، وتعهدتهم الكنيسة والحكومة معاً ويشكلون اليوم ربع سكان مدينة «فريتاون».

٥ ـ السوسو : ويسكنون في شمال السهل الساحلي، ويعملون في زراعة النخيل الزيتي. وهناك مجموعتان أخرى مثل: «الجالينا، وليمبا، والفاى، والكرو، الكونو، والكورنكو، والكوكو، والشبرو، والكيسى».

ويوجـد في سيراليون جالية شامية من منـطقة لبنان يزيد عدد أفرادها على الثلاثين ألفاً.

إن اللغة الرسمية في «سيراليون» هى الإنكليزية، ويتفاهـم الناس جميعاً بلغة جماعة «الكربول»، وهى لغة إنكليزية محرفة ومتطورة، إذ دخلتها كلمات من لغات هولندة، وفرنسا، والبرتغال، والدانمارك إضافة إلى العربية، ولغات القبائل التي توجد في تلك الجهات.

تزيد نسبـة المسلمـين في سيراليون على ٧٥٪ من مجموع السكان، وينتشر الإسـلام في القبـائـل كلها دون استثناء، وإن كانت النسبة تزيد لدى قبائل «الماندى»، وتقل عند «الكربول». أما النصارى فلا تزيد نسبتهم على ١٠٪، وأكثر أبنائها من «الكربول»، أما الوثنيون فيعيشون في الغابة منعزلين لاتساعها ويؤمنون بقوةٍ شيطانية خفية كامنة وراء الأشجار، الأمر الذي يجعلهم يتصورون أن للغابة ملكاً لايخرج إلا في الليل، فيرون من الضرورة التحالف معه اتقاءً لشره. ويلاقى المسلمون الأمرين في الإرساليات التنصيرية ذات الإمكانات الهائلة والتي تدعمها الدول النصرانية، ومن القاديانية المؤيدة من الاستعمار لزعزعة عقيدة المسلمين، ومن الفقر والجهل الذي ينتابهم، وليس من المسلمين من يهتم بأمرهـم أو يتعرف على الأقل على أحوالهم.

تزرع البلاد الفول السودانى، والنخيل الزيتى، والأرز، والذرة، والبندق، والكـاكـاو، وجـوز الهنـد، والبن، والكـاسافا، والموز، والحمضيات، والكولا، والكتان، والزنجبيل، وتستثمر الأخشاب من الغابة.

الاستعمـــار :

وصـل الـبرتغـاليون إلى سواحل سيراليون عام ٨٦٧هـ (١٤٦٢م)، وأطلق

الرحالة البرتغالى «داسنترا» هذا الاسم عليها لأنه حين وصل إلى تلك الجهات كثرت الغيوم وومضات البرق، وارتفعت أصوات الرعد التي تشبه زئير الأسد، فأطلق عليها هذا الاسم، ويعنى جبال الأسد حيث ترتفع سواحل شبه جزيرة جنوب «فريتاون» إلى ٦٥٠ متراً. ولم تمض مدة حتى أصبح للبرتغاليين مراكز على تلك السواحل.

وجاء الإنكليز أيضاً إلى تلك الجهات وقد امتهنوا تجارة العبيد، وتمكنوا من أن تكون لهم موطىء قدم. ثم اشتروا في بداية القرن الثالث عشر، قطعة أرض من أحد زعماء البلاد لتكون مستعمرةً لهم يسكنون فيها الزنوج المسرحين من الجيش والبحرية وذلك بعد انتهاء حرب الاستقلال الأمريكية، وينقلون إليها أيضاً الزنوج الذين التجأوا إلى لندن، وأقاموا في ضاحيةٍ من ضواحيها. وكان نواة سكان هذه المستعمرة التي تشمل شبه جزيرة صخرية تقع جنوب مدينة «فريتاون» الحالية أربعمائة زنجى وستين أوربياً معظمهم من النساء السيئات السيرة والسلوك، وكان لهذا الإنشاء هدف معين ومخطط مدروس، إلا أن هذه المستعمرة قد فشلت فشلاً ذريعاً.

وفي عام ١٢٠٦هـ (١٧٩١م) أنشئت مستعمـرة جديدة من قبـل شركـة سيراليون، وجلب إليها ١١٠٠ زنجى للعمل فيها، ولكن الفرنسيين قد نهبوا هذه المستعمرة التي عرفت باسم «فريتاون».

وفي عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م) نقلت الشركة حقوقها إلى التاج البريطانى، وفي العام التالي ألغيت تجارة الرقيق، فنقل إلى المستعمرة الزنوج الذين قبضت عليهم أيدٍ انكليزية من جهات متعددة، وكانوا على بواخر إنكلزية في طريقهم إلى البيع، الأمر الذي جعل سكان المستعمرة يزداد.

كان الصراع دائماً يحدث بين رجال القبائل أصحاب البلاد وبين هؤلاء الغرباء وأسيادهم من المستعمرين، واشترت إنكلترا أراضى جديدة مجاورة للمستعمرة من زعماء القبائل تارة بالإغراء وأخرى بالتهديد، وضمت هذه الأراضى إلى المستعمرة.

وفي عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٢م) بدأ الإنكليز بالتوسع نحـو الشمال الشرقى،

وضموا إليهم منطقة «فالابا» على حين كان الفرنسيون قد ضموا الأراضى المجاورة إليهم، الأمـر الذي جعل مناطق النفوذ الإنكليزي محصورة، فأسرعت إنكلترا وأعلنت حمايتها على الأجزاء التي وقع زعماء القبائل على معاهدات معها، وعلى الأجزاء التي أخـذتهـا نتيجـة الغـارات المتكـررة، وأطلق على المجمـوع اسم «سيراليون» وتتألف من:

١ ــ المستعمرة وتضم شبه جزيرة صغيرة لاتزيد مساحته على ٦٦٤ كيلو متراً مربعاً.

٢ ــ المحمية وتشمـل باقى أجزاء دولة «سيراليون» اليوم، وتقدر مساحتها بـ «٧٢» ألف كيلو متر مربع.

وفي عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) وقعت معاهدة بين فرنسا وإنكلترا لتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين الاستعماريتين. وكانت إنكلترا يومذاك مثقلة بالأعباء المالية. لذا فقد رأت أن يستمر حكام المناطق في تسيير شؤون مناطقهم تحت إشراف منـدوبـين إنكليز، وذلـك كى لاتتحمـل إنكلترا أى نفقات للجهاز الإدارى، وقسمت البـلاد إلى ١٤٤ وحـدة إدارية، يشرف على كل منها زعيم من أبناء البلاد، ويساعده في الإدارة مجلس محلى.

وفي عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) حكمت المحمية والمستعمرة عن طريق مجالس تشريعية وأخرى تنفيذية موحدة، فكان يمثل «فريتاون» ثلاثة أعضاء عن طريق الانتخاب، ويمثل المحمية ثلاثة أعضاء من رؤساء القبائل، واستمر ذلك حتى الحرب العالمية الثانية. وبعد تلك الحرب رفض «الكربول» مشروعاً للانتخاب العـام، وإقامة حكومة تمثل جميع السكان بصورة متساوية لأنهم رأوا في ذلك إضاعة لسيطرتهم، وكانوا يشعرون بالتفوق على بقية السكان بثقافتهم التي هيأها لهم المستعمرون.

كان المجلس التشريعي يتألف من الحاكم، ونائبه، وعضوين يمثلان المصالح التجارية، واثنى عشر عضواً يمثلون القبائل، وينتخب باقى الأعضاء انتخاباً وعددهم خمسة عشر عضواً وبذلك يصبح عدد أعضاء المجلس التشريعي «٣١» عضواً.

أما المجلس التنفيذي فيتألف من ثمانية أعضاء ينتخب نصفهم انتخاباً، ويعين الباقي، وقد حصل «الكربول» على أربعة أعضاء، وحصل حزب الشعب السيراليونى الذي نشأ حديثاً على عضوين، وعين الحاكم عضوين من الحزب نفسه، وانضم «الكريول» إلى حزب الشعب، وبذا تقاسم الحزب والكربول أعضاء المجلس التنفيذي.

وفي عام ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) سمى أعضاء المجلس التنفيذى وزراء، وتخلى الحاكم الإنكليزي عن السلطات التي كان يتمتع بها.

وفي عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) حدثت ثورة الفلاحين التي طالبت بالاستقلال والحد من سلطة زعماء القبائل. وفي العام التالي حدثت انتخابات حصل فيها حزب الشعب السيراليونى على ستة وعشرين مقعداً من أصل ٣١ مقعداً، وتأسست أحزاب أخرى بلغ عددها تسعة أحزاب منها: حزب الشعب الوطنى، والمجلس الإسلامى، والحزب الاشتراكى. وقد اتفقت جميعها على المطالبة بالاستقلال، وألفت جبهةً واحدةً في سبيل ذلك، وسافر وفد يمثلها إلى لندن عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وعند عودة الوفد تألفت حكومة ائتلافية حصلت على الاستقلال عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م).

وجرت انتخابات عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) نجح فيها حزب المؤتمر الشعبى العام، وأصبح زعيمه «سيكا ستيفنز» رئيساً للوزراء إلا أن انقلاباً عسكرياً قد حدث يوم تسلم الحزب الحكم، وقاد الانقلاب «دافيد لانسانا»، وبعد يومين فقط حدث انقلاب مضاد بقيادة الجيش والشرطة، وألفوا المجلس الوطنى الإصلاحى الذي أطاحوا به بعد عام، وشكلوا حركة ثورية، وألفوا وزارة من الحزبين الكبيرين (حزب الشعب الوطنى السيراليوني) و (حزب المؤتمر الشعبى العام) وأصبح «سيكا ستيفنز» رئيساً للوزراء مرة ثانية.

ويرفض النصارى إجراء احصاء عام يتبين منه نسبة أصحاب العقائد لأنهم يعلمون ارتفاع نسبة المسلمين، في حين يرغبون في إبقاء السيطرة على البلاد، ويصرون على أن نسبة المسلمين منخفضة، ومن وراء ذلك تعمل الإرساليات التنصيرية.

٥ ـ ساحل العاج

لمحة جغرافية :

تبلغ مساحة ساحل العاج ٣٢٢,٤٦٣ كيلومتراً مربعاً، وتتألف الأرض من هضبة غرانيتية قديمة في الشمال تصل إلى ارتفاع ١٢٠٠م في الغرب في إقليمي (مان) و (أودين)، وتخترق الهضبة عدة أنهار تجرى من الشمال إلى الجنوب لتصب في المحيط الأطلسى. ومن سهل ساحلى متسع.

تقع ساحل العاج بين دائرتى عرض ٢٠, ٤°-٢٠, ١٠° شمالا وهذا مايجعله يقع ضمن نطاق المناخ شبه الاستوائي في الجنوب والمدارى في الشمال. وتنتشر الغابة في الجنوب بعرض ٣٠٠ كم، أما الشمال فتقل كثافتها في الشمال، وتنتشر بينها حشائش (السافانا).

تنتج البلاد الأرز، والبن وتعد ثالثة دول العالم بإنتاجه، والكاكاو وتعد خامسة دول العالم بإنتاجه، والموز، والأناناس، وتستثمر الأخشاب من الغابة.

ويوجد في أرض ساحل الغاج المنغنيز، والحديد، والبوكسيت، والقصدير، والذهب، والماس.

السكان :

يبلغ عدد سكان ساحل العاج حسب إحصاء ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) ستة ملايين نسمة، وتختلف الكثافة بين منطقة وأخرى فبينما هى لاتزيد على ١٤ شخصاً في الأجزاء الشمالية تراها ترتفع في الجنوب حتى تصل إلى أكثر من ٦٠ شخصاً في الكيلو المتر المربع الواحد.

وأشهر القبائل هى: الماندى، وسينوفا، والديولا في الشمال وهى بأغلبيتها مسلمة. أما الجنوب فأكبر القبائل هى: الأغنى، والاشانتى، الكرو، والكوا وأكثريتها لاتزال وثنية، كما توجد بعض بطون من قبائل الفولانى، والبمبارا في الشمال.

تبلغ نسبة المسلمين ٦٠٪ في ساحل العاج بينما لاتزيد نسبة النصارى على

١٢٪، والباقى لايزالون على الوثنية، ويصر النصارى من الحكام والمسؤولين على الإرساليات التنصيرية على أن نسبة المسلمين أقل مما هى.

انتشـــار الإســلام :

انتشر الإسـلام أيام المرابطين عن طريق الدعاة الذين وصلوا إلى الأجزاء الشمالية وذلك في القرن الخامس الهجرى، ثم أصبحت الأجزاء الشمالية الغربية تحت نفـوذ مملكـة (فـوتـاجالون) التي أسسها إبراهيم سامبيو في القرن السابع الهجرى، واستمر ذلك مدة القرن الذي يليه، فانتشر الإسلام أيضاً.

وخضعت الأجزاء الغربية لمملكة مالى الإسلامية أيضاً، كما خضعت الأجزاء الشمالية أيضاً لنفوذ (ساموری توری) ولم يتمكن الفرنسيون من دخول المنطقة إلا بعد هزيمة هذا الزعيم المسلم عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م). ومن هذا نلاحظ أن انتشار الإسلام إنما كان في الأجزاء الشمالية، لذا فإن نسبة المسلمين تزداد في تلك الجهات، بينما تقل في الأقسام الجنوبية.

الاستعمـــار:

في الوقت الذي كان الإسلام ينتشر في الشمال طلع المستعمرون من الجنوب، إذ وصل البرتغاليون إلى شواطىء ساحل العاج في القرن التاسع الهجري، ثم تبعهم الفرنسيون.... كما أن العرب قد عرفوا شواطىء ساحل العاج وأطلقوا على الأقسام الشرقية من تلك السواحل اسم (البسام الكبير).

وفي القـرن الثاني عشر الهجري وصلت قبائل (الأغنى) و (الأشانتى) من الشرق، واستقرت في جنوبى البلاد، وأسست ممالك لها. وقد عقد الفرنسيون عام ١٢٥٩هـ (١٨٤٣م) معـاهدة مع ملك (الاغنى) في منطقة البسام الكبير فرضت فرنسا بموجبها الحماية على تلك الأجزاء من البلاد. وبعد القضاء على (سـامـوری توری) خضعت المناطق الشمالية للحماية الفرنسية أيضاً وذلك عام ١٣١٦هـ (١٨٩٨م)، وبذا أصبحت المناطق التي تحمل اسم ساحل العاج اليوم كلها تحت الحماية الفرنسية، ثم غدت مستعمرة فرنسية، ثم جزءاً من إفريقية الغـربية الفـرنسية، واستمـر ذلـك حتى نشبت نار الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م).

وفي عام ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) ضمت فرنسا إلى ساحل العاج مقاطعات من فولتا العليا، ثم رجعت عن ذلك عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٦م) إلا أنه بعد الحرب العالمية الثانية ١٣٦٥هـ (١٩٤٤م) صارت ساحل العاج ضمن (الاتحاد الفرنسي) وانتخبت أول جمعية وطنية عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م). ثم قامت بعد عشر سنوات أول حكومة وطنية تمتعت باستقلال ذاتي.

وأعلنت الجمهورية في ساحل العاج بعد أن وافقت على مشروع ديغول، وفي عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) أصبحت جمهورية مستقلة ضمن الجماعة الفرنسية، وقبلت عضوا في الأمم المتحدة في ذلك العام أيضاً. وأنتخبت الجمعية الوطنية وعدد أعضائها خمسة وثمانون عضوا، وكلهم من حزب (التجمع الديمقراطى الافريقي) وهو الحزب الوحيد في البلاد.

ويسيطر النصارى على جميع الوظائف المهمة في الدولة بسبب العلم الذي حصلوا عليه أيام المستعمرين ومنع عنه المسلمون، حيث كانت المدارس بيد الإرساليات التنصيرية.

واللغة الفرنسية هى الرسمية في البلاد، ولكل مجموعة قبلية لغتها الخاصة، وأخيراً سمح بتعلم اللغة العربية وفتح المدارس لها في المناطق الشمالية من البلاد.

٦ - التوغـــو

لمحـــة جغرافيـــــة:

تبلغ مساحة التوغو ٥٦,٠٠٠ كيلو متر مربع، وهى عبارة عن مستطيل لايزيد عرضه بين الشرق والغرب على ١٠٠ كيلومتر على حين يزيد طوله بين الشمال والجنوب على ٦٠٠ كم، ويبلغ طول الساحل ٥٥ كم.

تتألف من سهل ساحلى يصل عرضه إلى ٥٠ كم، ثم ترتفع هضبة قديمة يصل ارتفاعها إلى أكثر من ١٠٠٠م.

الســـكان:

يصـل عدد سكـان التوغو حسب إحصاء ١٤٠٢هـ (١٩٨٢م) إلى مليونين

ونصف المليون. وتكثر الكثافة في الشمال والجنوب وتقل في الوسط.

تعيش في الجنـوب (الايوى)، و (الـواتـاشى)، و (المينا) وتتحدث كلها لغة (الايوى) أو تتفاهم فيما بينها، أما في الشمال فتسود لغة (الهاوسا)، وتعيش قبائل (الهاوسا)، و (الغرما) و(البيل).

تبلغ نسبة المسلمين ٥٥٪ من مجموع السكان، وتزيد هذه النسبة بين قبائل الشمال، وتقل بين قبائل الجنوب.

انتشار الإسلام:

وصـل الإسـلام إلى منطقة التوغو عن طريق القوافل التجارية القادمة من الشـمال، ثم عن طريق الـدعاة الذين كانت ترسلهم دولة المرابطين في القرن الخـامس الهجرى، ثم أيام الموحدين في القرن السادس، كما انتشرت الطرق الصوفية وخاصة التيجانية في شمالي البلاد وغربيها، ويجب ألا ننسى دور الفولانيين في نشر الإسلام بين قبائل الهاوسا وخاصة أيام (عثمان بن فودي).

وصلت قبائل (الايوى) قادمة من أرض النيجر في القرن الخامس، واستقرت في الأجزاء الجنوبية من التوغو. وفي القرن التاسع وصل البرتغاليون إلى سواحل التوغو وتبعهم بعد مدة الفرنسيون الذين أسسوا مراكز لهم هناك في القرن الحادى عشر الهجرى.

ودخلت ألمانيا مجال الصراع الاستعمارى، واستطاعت أن تسيطر على أجزاء التـوغـو كلهـا عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م)، واعـترفت بهذه السيطرة فرنسـا عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) وإنكلترا عام ١٣١٧هـ (١٨٩٩م)، ولكن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى قد أعطى إنكلترا ثلث البلاد من جهة الغرب، والباقى إلى فرنسا، وتأكد هذا التقسيم عام ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م) في عصبة الأمم، وعرفت باسم (توغو البريطانية)، و (توغو الفرنسية)، ووضع الجزءان تحت الوصاية بمعرفة الأمم المتحدة عام ١٣٦٥هـ (١٩٣٦م)، وبعد انتخابات عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ضمت إنكلترا القسم الغـربى إلى غانـا، بينما نالت توغو الفرنسية الحكم الذاتى، ونالت استقلالها عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، وهى التي تعرف اليوم باسـم (توغو). وحدثت فيها عدة انقلابات عسكرية ١٣٨٣، ١٣٨٧ و...

٧ ـ بنـين

لمحـة جغرافيـة :

تبلغ مساحة بنين ٢١١,٦١٢ كيلومتراً مربعاً، وتمتد بطول ٧٥٠ كيلومتراً من الجنوب إلى الشمال، ويبلغ طول ساحلها ١٢٥ كيلومتراً، ولكن يزداد عرضها في الأقسام الشمالية. ويمتد في الجنوب سهل ساحلى، وترتفع الأرض في الشمال فتكون هضبة تقطعها الأنهار. وفي الشمال الغربى تمتد جبال (اتاكورا).

يبلغ عدد سكان بنين ثلاثة ملايين، ويتركز السكان في الجنوب حيث تصل الكثافة إلى أكثر من ٢٠٠ شخص في الكيلو المتر المربع الواحد، بينما تقل في الشمال عن ١٥ شخصا.

وأشهر القبائل في الجنوب (الفون)، و(اليوروبا)، و(الناغى)، أما الشمال فهناك قبائل (الباريباس)، و(الهاوسا)، و (الفولانى).

تبلغ نسبة المسلمين في بنين ٦٠٪ من مجموع السكان، ولا تزيد نسبة النصارى على ١٠٪ اكثريتهم من الكاثوليك وأقلهم من البروتستانت، أما الوثنيون فهم ٣٠٪ من مجموع السكان، ويكثرون في المناطق الجنوبية على حين يكثر المسلمون في الشمال.

انتشار الإسلام

انتشر الإسلام في الشمال قديماً عن طريق التجار القادمين من الشمال، وعن طريق الدعاة الذين كانوا يصلون إلى المنطقة قادمين من الشمال الغربى الافريقى من دولـة المرابطين، ثم من دعاة الموحدين ومن جاء بعدهم سار على طريق المرابطين وإن كان على نطاق أضيق، وفي العصور الحديثة انتشر الإسلام عن طريق قبائل الفولانى وخاصة أيام (عثمان دونفوديو) الذي عمل على نشر الإسلام بين قبائل (الهاوسا)، كما انتشر الإسلام من قبل بين قبائل (الباريباس).

لم تقم ممالك في منطقة بنين كما قامت في غيرها. وأول مملكة قامت إنمـا هى مملكة (داهومى) في القرن الحادى عشر الهجري. وتعنى كلمة «داهومى» (بطن

دان). و (دان) اسم ملك قديم للقبيلة، وكان هذا الملك يأكل معارضيه وأعداءه. والدهومى في الأصل قبيلة شرسة مقاتلة، اختصت بفرق مدربة من النساء الجنود، وتسمى (الامازون)، وبلغ عددهن في وقت من الأوقات ثمانية عشر ألفا، وكن شرسات وشجاعات لدرجة كبيرة، وقد بلغت هذه المملكة أوجها عام ١٢٣٤هـ (١٨١٩م). عندما تبوأ الحكم الملك (جيزو) الذي حكم أربعين عاما.

الاستعمار الفرنسى

وفي عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) وقعت فرنسا معاهدة مع الملك (جيزو) الذي خلفه ابنه (جلجيل)، وفي عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) استولت فرنسا على مدينة (بورتونوفو) بعد أن استولت انكلترا على (لاغوس) في نيجيريا، وجلاء الألمان إلى (بنين) لكنهم وافقوا على حصر أنفسهم في (التوغو) وذلك حسب التفاهم بين الدول الاستعمارية، وسويت الحدود بين مناطق نفوذ الدول الأوربية عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) باتفاقية تنازلت فيها انكلترا عن مدينة (كوتون) المدينة الساحلية في (بنين).

حصل قتال عنيف بين سكان البلاد والمستعمرين من الفرنسين لعبت فيه فرق الامازون دوراً بارزاً، وكان نتيجة ذلك أن وقعت اتفاقية بين الملك (جلجيل) والفرنسيين عام ١٣٠٨هـ (١٨٩٠م)، فخصص للملك راتباً تقاعدياً، وتنازل عن الحكم لابنه (بنهانزن) الذي قاتل الفرنسيين عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ولكنه هزم أمامهم، فأحرق عاصمته وهرب إلى الشمال ثم سلم نفسه عام ١٣١٢هـ (١٨٩٤م). فقسم الفرنسيون المنطقة الساحية من بنين إلى قسمين: الأول منها مركزة مدينة (أبومى) شمال (ألادا) بخمسة وسبعين كيلومتراً، ونصبوا عليه شقيق الملك المنفي إلى الكونغو، ووضعوا القسم الثاني وحاضرته (ألادا) تحت سيطرتهم المباشرة.

وفي عام ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) أنشأ الفرنسيون في بنين حكومة شبه مستقلة، وبعد عشر سنوات أعطيت استقلالاً داخلياً، وفي عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) حصلت على الاستقلال التام، ولم تنضم إلى جماعة الشعوب الفرنسية بعد استقلالها، وإنما وقعت اتفاقيات للتعاون الاقتصادى والعسكرى والفنى. وحدث انقلاب عسكرى عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) ثم تتابعت الانقلابات وكان آخرها عام ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م) حيث رأى قائد الانقلاب الأخير أن تكون الرئاسة دورية بين الزعماء الذين تساندهم القبائل.

٨ ـ نيجيـــريا

لمحـــة جغرافيـــة :

تبلغ مساحة نيجيريا ٩٢٣,٧٦٨ كيلو متراً مربعاً، وتعد عملاقة إفريقية من حيث السكان الذين يصل عددهم إلى مائة مليون، وبذا في أكثر دول إفريقية سكانا وكثافة. وأشهر قبائل نيجيريا الهاوسا والفولانى في الشمال، والكانورى في الشمال الشرقى وهذه القبائل مسلمة. أما في الغرب فنجد قبائل اليوروبا التي دخل إليها الإسلام وإن لم يصبح أكثرية الأفراد من أتباعه، وكذا تنتشر النصرانية، كما لاتزال الوثنية منتشرة. وفي الشرق نجد قبائل الايبو التي كثرت النصرانية فيها.

تبلغ نسبة المسلمين ٨٠٪ من مجموع السكان وهى تزيد في الشمال، وتقل في الشرق. ويتقاسم الباقى النصرانية والوثنية.

تقع نيجيريا بين دائرتى عرض ٤,١٤ شمالاً، ونلاحظ المناخ الاستوائي في الجنوب بأمطاره الدائمة وغاباته الباسقة، والمناخ المدارى بأمطاره الصيفية وشتائه الجاف وحشائشه التي تتخللها الأشجار، وتنتج البلاد الأرز، والذرة، والكاسافا، والفول السوداني والقطن، وخاصة في الشمال، والموز، والمطاط، والنخيل الزيتى، والكولا، والكاكاو في الجنوب.

كما تعد نيجيريا مصدرة للنفط، وهي من دول «الأوبيك» وتنتج كذلك القصدير، الكريوليت.

لمحةتاريخيـــة

يمكن أن نلاحظ فروقاً في التاريخ بين الأسًام الشمالية والجنوبية. فقد انتشر الإسلام في الشمال الشرقى بين قبائل الكانورى، كما بدأت قبائل الهاوسا تتحول إلى الإسلام في القرن السابع الهجرى، وانتشر بينهم انتشاراً واسعاً في القرن التاسع الهجري، وكان لهذه القبائل سبع إمارات، وهي: كانو، رانو، زاريا، دورا، كاتسينا، جوبير، زامفارا.

ومنذ القرن السابع الهجري بدأت قبائل الفولانى تتدفق من الغرب، وتقيم شمالي نيجيريا، وتختلط بشعوب الهاوسا، وقد كثر عددهم. وفي مطلع القرن

الثـالث عشر الهجـري ظهر بينهم عثمان دانفوديو الذي وحد شعب الفولانى وفرض سيطرته على (الهاوسا)، واتخذ من مدينة (سوكوتو) قاعدة له، وتلقب باسم (أمير المسلمين)، وعمل على نشر الإسلام، وقاوم إمارة (جوبير) الوثية، وانضم تحت لوائه الهاوسا والفولانى على حد سواء، وتوسعت إمارته بين أخيه عبدالله، وابنه بيلو، وتوفي عثمان عام ١٢٣٢هـ (١٨١٧م) بعد أن غزا (اليوروبا) وعمل على نشر الإسلام ضمن منطقة الغابات، وبقيت أسرته تحكم شمالي نيجيريا، وإن كانت قد ضعفت بعد مدة، وجاء الانجليز مستعمرين من الجنوب.

أما في الجنوب فقد قامت مملكة (اليوروبا) التي امتدت من مصب نهر النيجر حتى بلاد الداهومى، وانتشر الاسلام فيها نتيجة الاحتكاك مع الفولانيين. كما قامت مملكة (بنين) في أقصى الجنوب. ولكن ممالك الجنوب لم تكن بمستوى إمارات الشمال.

وصل البرتغاليون إلى شواطىء نيجيريا عام ٨٩٢هـ ، وأصبحت بنين بعد ذلك مركزاً للتجارة بين أوربا ومملكة اليوروبا، وبدأ الرقيق ينقل من شواطىء نيجيريا إلى الغرب.

وكانت زيارة الإنكليز الأولى لبنين عام ٩٧٠هـ (١٥٦٢م)، وحملوا على تجارة الرقيق أيضاً، وعرف الساحل النيجيرى باسم ساحل العبيد، ثم حرمت هذه التجارة واقتصرت العلاقة على تجارة النخيل الزيتى والعاج، واقتصرت العلاقات الأوروبية على المنطقة الساحلية، ثم جاء الرحالة (مانغوبارك) الذي عرف نهر النيجر للأوروبيين. وتبعه (دنهام) و (كلابرتن) وهما أول من بلغ دول الهاوسا من الأوروبيين وقام الاخوان (لاندر) وتتبعا مجرى النهر، ولم يأت عام ١٢٤٥هـ (١٨٣٠م) إلا وقد عرف نهر النيجر كله، وأصبح طريقاً للتوغل من الجنوب نحو الشمال من قبل المبشرين النصارى، والتجار، والرواد.

وفي عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) ضم الانكليز جزيرة (لاغوس) إلى ممتلكاتهم، فاتسع عمل المنصرين والتجار الإنكليز ابتداءً من لاغوس وعلى ضفاف نهر النيجر. ولما بدأت المنافسة الاستعمارية بين إنكلترا، وألمانيا، وفرنسا دمجت انكلترا جميع شركاتها التجارية في مؤسسة واحدة هى (شركة إفريقية المتحدة) وامتدت أعمالها إلى (سوكوتو) في الشمال، وكان حكم الفولانيين (أسرة عثمان دانفوديو) قد

ضعف، ومنحت انكلترا هذه الشركة الانكليزية حق ممارسة القانون والقضاء في منطقة عملها.

أسست انكلترا محميةً توسعت تدريجياً حتى شملت جميع أراضي اليوروبـــا باستثناء منطقة (ايلورين) التي يحكمها الفولاني. ثم قامت انكلترا بحملة عام ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) ضمت إليها (بنين)، وبعد عام وقعت معاهدة مع فرنسا لتحديد الحدود الغربية والشمالية، وألغت امتياز (شركة إفريقية المتحدة) وتسلمت الحكومة الإنكليزية السلطات الإدارية في الجنوب.

- بدأ الانكليز يقنعون الأمراء الفولانيين في الشمال بقبول الحماية الانكليزية إذ يستطيعون أن يحموهم من الفرنسيين الذين يريدون التوسع من الشمال والغرب. والألمان الذين يرغبون في التقدم من ناحية الشرق، وأن الانكليز يتعهدون بإبقاء الأمـراء الفـولانيين في مراكـزهم، ولن يتـدخـل الانكليز مطلقاً بشؤون الدين الإسلامي، والتقاليد المرعية في إمارات الشمال، واستطاعت انكلترا إغراء بعض الأمراء بعقد اتفاقات خاصة.

في عام ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) أعلنت انكلترا عن قيام محمية الشمال، وعينت (فـريدريك لوغـادر) مندوباً سامياً لها. وأرسلت الحملات العسكرية لإخضاع الأمراء الذين رفضوا توقيع إتفاقات معها، وتمكنت عام ١٣٢١هـ (١٩٠٣م) من احتلال كانو، وسوكوتو. وعام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) من احتلال بورنو، واستمر حكم محمية نيجيريا الشمالية بيد الأمراء الفولانيين ويساعدهم ضباط بريطانيون. ثم أدمجت مستعمـرة (لاغوس) بالمحمية الجنوبية، وأطلق عليها اسم مستعمرة ومحمية نيجيريا الجنوبية.

وفي عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) دمج البريطانيون المحميتين الشمالية والجنوبية وجعلوا منهما مستعمرة ومحمية نيجيريا، وعين (لوغارد) حاكماً لها، وكانت من قبل مقسمة إلى مقاطعتين شمالية وجنوبية، كل منهما تحت إمرة مساعد إداري، وكانت مستعمرة (لاغوس) بإدارة متصرف.

نشبت الحرب العالمية الأولى وجرفت نيجيريا بتيارها بسبب قربها من الكاميرون التي كانت تحت السيطرة الألمانية. ونجحت الحملة النيجيرية ضد الكاميرون عام

١٣٣٥هـ (١٩١٦م)، وفي عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) بسط البريطانيون حكمهم على الأجزاء الغربية من الكاميرون تحت اسم وصاية عصبة الأمم المتحدة، وبعد عامـين تولت إدارتها كجزء من نيجيريا وقسمت في الوقت نفسه إلى مقاطعتين شمالية وجنوبية.

ومنــذ عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) ألغى المجلس الاستشــارى الـذي أنشأه (لوغارد)، الذي تقاعد عام ١٣٣٨هـ (١٩١٩م)، وحل محله مجلس دستورى، ولكن المقاطعة الشمالية لم تمثل في هذا المجلس.

وبعـد الحـرب العـالمية الثانية عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م)، قسم الجنوب إلى مقـاطعتين غربية وشرقية، وأقيم مجالس نيابية للمقاطعات الثلاث: الشمالية - الغربية - الشرقية، ويشرف على هذه المجالس مجلس تشريعي مركزى، إلا أن هذه المجالس لم يكن لها إلا صفة استشارية.

انعقد مؤتمر في (ايبادان) حاضرة المقاطعة الغربية، وطالبت المقاطعة الشمالية بأن يكـون لها في أي تشريع مركـزى عدداً مساوياً لعدد المقاطعتين الأخريين الشرقية والغربية بسبب عدد السكان الذي يبلغ أكثر من ضعف المقاطعتين، فتم الاتفاق على ذلك، وصدر دستور بقيام حكومة اتحادية مسؤولة تتمتع بقدر أعظم من الاستقلال الإقليمى، وجعلت لاغوس) أرضاً اتحادية.

ووجدت أحزاب محلية سيطرت على الأقاليم الموجودة فيها، ففى الشمال ظهر حزب (مؤتمر الشعوب الشمالية) بزعامة أحمد بيلو أحد أحفاد عثمان دنفديو. وفي الغرب ظهر حزب (جماعة العمل)، وفي الشرق حزب (المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون). الذي يرأسه (ناندى أزيكوى) النصرانى وذلك إثر انتخابات جرت عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م).

وتوالت الانتخابات، وعقد مؤتمر في لندن ١٣٧٨هـ، و١٣٧٩هـ (١٩٥٨م، ١٩٥٩م وتشكلت إثر المؤتمر الأول حكومة اتحادية برئاسة أبو بكر تفاوه بيلو النائب الأول لحزب مؤتمر الشعوب الشمالية. وعقب المؤتمر الثاني حصل الاقليم الشمالي على الاستقلال الذاتى.

وحصلت البلاد كافة على الاستقلال عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) ضمن رابطة

الشعوب إلبريطانية (الكومنولث)، وبقيت الدولة تحت رئاسة ملكة بريطانية، بينما عين (نآندى ازيكوى) حاكماً عاماً بصفته من الذين أشرفت على تعليمهم إنكلترا أثناء سيطرتها على البلاد، وهو من النصارى. وبقى أبوبكر تفاوه بيلو رئيساً للحكومة.

وفي عام ١٣٨٣هـ (١٣٦٣م) وافق المجلس النيابى على دستور جمهورى يعلن نيجيريا جمهورية اتحادية ضمن رابطة الشعوب البريطانية، وبموجب هذا الدستور فقد تنازلت ملكة بريطانية عن رئاسة دولة نيجيريا، وتقرر أن يتم انتخاب الرئيس من قبل جميع أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب، وأن تكون مدة رئاسته خمس سنوات: كما لايجوز لرئيس الدولة ـ أن يعزل رئيس الوزراء أو يسحب الثقة، وإنما الذي يسحب الثقة هو المجلس النيابى. وانتخب المجلس النيابى الاتحادى (ناندى ازيكوى) رئيساً للجمهورية، وبقى (أبوبكر تفاوه بيلو) رئيساً للوزراء.

وكانت نيجيريا أربعة أقاليم هى :

الإقليم الشمالي	:	وأغلبية سكانه من المسلمين، إذ تبلغ نسبتهم ٩٩٪ من مجموع سكانه.
الإقليم الغربى	:	وسكانه من المسلمين والنصارى والوثنيين.
الإقليم الغربى الأوسط	:	وسكانه من مجموعات الديانات.
الإقليم الشرقى	:	ومعظم سكانه من النصارى

وحدث انقلاب عام ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م) قتل فيه أحمد بيلو زعيم المسلمين في الشمال، وأبوبكر تفاوه بيلو رئس الوزراء الاتحادي، ويبدو أن الانقلاب كان موجهاً ضدهما، وتمكن قائد الجيش (ايرونسى) من السيطرة على المتمردين حسب خطة مدروسة محكمة للتخلص من الزعماء الشماليين. وحدث انقلاب آخر عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) قادة (يعقـوب غاوون) وهو من الشمال من قبائل الهاوسا المتنصرين. وتسلم زعـامـة البـلاد باسم الشماليين، ولكن عقيدته تختلف عن عقيدتهم الأمر الذي يرتبط فيه مع الشرقيين النصارى، وهم الذين قادوا الانقلاب الأول، وهم اكبر رتب الجيش رتباً.

وحـدثت حركة انفصالية في الشرق، وأعلنت عن قيام دولة (بيافرا) بقيادة

الجنرال (اوجوكو) إلا أن قبائل الايبو المتمردة قد هزمت في حرب أهلية استمرت من ١٣٨٧هـ - ١٣٩٠هـ (١٩٦٧-١٩٧٠م)، وحدثت إثر ذلك عدة انقلابات إلا أن الشماليين بصفتهم أكثر السكان عدداً لابد من أن يبقى أثرهم، ويضطر الآخرون إلى الاعتراف بوزنهم رغم مايبيتون لهم، ومعظم الانقلابات كان هذا الامر أساسها.

٩ - الكاميرون

تبلغ مساحة الكاميرون ٤٧٥,٤٤٢ كيلومتراً مربعاً، ويقدر عدد السكان بستة ملايين نسمة، والعاصمة هى مدينة (ياوندى). تعيش في الشمال قبائل (الشوا) وهى عربية، والكوتوكا، والماسا، والتوبورى وهى من قبائل الكانورى وجميعها تدين بالإسلام، وتشكل مايزيد على ربع سكان البلاد. وفي الهضاب الغربية تعيش قبائل زنجية أشهرها: الباMليكة، والبامون، وهى مزيج من البانتو. وفي السهول الجنوبية الغربية تعيش قبائل الفانج، ونجد الأقزام في الغابات.

واللغة الرسمية هي الفرنسية، كما توجد العربية، والبانتو، والسواحلية إضافة إلى أن لكل قبيلة لغتها الخاصة.

يقدر عدد المسلمين بثلاثة ملايين وستمائة ألف أى أن نسبتهم تبلغ ٦٠٪، وما بقى من السكان هم من أتباع النصرانية والوثنية.

تمتد الكاميرون بين خطى عرض ٢-١٤ شمالاً فالمناخ الاستوائي يوجد في الجنوب، والسودانى في الشمال. وتغطى الغابات المناطق السهلية وتقل الأشجار في المرتفعات، كما تقل كلما اتجهنا شمالاً.

انتشر الإسلام في الكاميرون أيام المرابطين نتيجة الدعاة الذين كانوا يرسلونهم، ثم أيام الموحدين، وخضع شمالي الكاميرون إلى مملكة بورنو، وقامت ممالك في الشمال أشهر سلاطينهم: سلطان غاروا، ولاميدو، ورى بوبا. أما الجنوب فقد كان أهله يعيشون على شكل قبائل تدين بالوثنية حتى جاء الاستعمار.

وصل البرتغاليون إلى سواحل الكاميرون في أواخر القرن التاسع، ومع وصول الاستعمار إلى تلك الجهات وصلت فرق الإرساليات التنصيرية التي رافقت الاستعمار، ولكن ذات لم يتعد الساحل، أما الداخلى فقد بقى مجهولاً لدى الأوروبيين مدة ثلاثة قرون أخرى.

وفي عام ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) وصل الرحالة الانكليزي (بارتون) بتحديد معالم البلاد، وتلاه الألمان الذين توغلوا إلى الداخل عام ١٢٩٠هـ (١٨٧٢م) حيث فرضوا حمايتهم على المنطقة عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م)، واستمرت تلك الحماية حتى عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) حيث قامت الحرب العالمية الأولى.

قامت الحرب، وهزمت ألمانيا، وتمكنت انكلترا من احتلال الأجزاء الغربية عن طريق نيجيريا، وبقوة أبنائها، واحتلت فرنسا بقية الأجزاء. وبانتهاء الحرب تقاسمت انكلترا وفرنسا البلاد وجزأتها إلى شطرين. أخذت كل منهما شطراً، وصدق هذا التقسيم بمعاهدة فرساى عام ١٣٣٨هـ (١٩٢٠م)، ثم صدقته عصبة الأمم المتحدة عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان نصيب فرنسا ٤٣٢,٠٠٠كم٢ ، أما نصيب إنكلترا فهو ١٤٥,٢٦٥كم٢، وقد ضم هذا إلى نيجيريا، واستمر ذلك حتى الحرب العالمية الثانية.

وضعت الكاميرون تحت وصاية الأمم المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م)، وبقيت فرنسا تحكم الكاميرون باسم الوصاية الدولية حتى عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩م) حيث منحتها الحكم الذاتي تحت وطأة المقاومة الوطنية، وحاولت فرنسا تهيئة الأوضاع بتأليف حكومة يرأسها (أندرية مارى مابيدا) الموالى للحزب الكاثوليكي النصرانى الفرنسى إلا أن المقاومة قد استمرت ثم حصلت على الاستقلال عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، واختير أحمد (اهيجو) رئيساً للجمهورية بعد أن نال تأييد المسلمين جميعهم، وهو يرأس حزب الاتحاد الكاميرونى. ثم اندمجت بقية المنظمات السياسية في حزب الاتحاد الكاميرونى، وشكل رئيس حزب الكاميرون التقدمى (شارل عاسل) الوزارة.

أما جزء الكاميرون الذي خضع للسيطرة الإنكليزية والذي ضم إلى نيجيريا. وكان ضمنها جزأين. وهما الاقليم الشمالي والاقليم الجنوبي، فالإقليم الشمالي قرر

الانضمام إلى نيجيريا باستفتاء عام تم سنة ١٣٨١هـ (١٩٦١م)، أما الجزء الجنوبى فقد صوت سكانه للانضمام إلى الكاميرون بالاستفتاء نفسه، وتكونت نتيجة ذلك جمهورية الكاميرون الاتحادية.

وفي عام ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) حل الحزب السياسي المسمى (اتحاد الشعب الكاميرونى) وعد حزباً شيوعياً موالياً للصين، وأصبحت البلاد تتبع سياسة الحزب الواحد.

الفصل الحادى عشر
الدول الاسلامية في شرقى إفريقيـة

على الرغم من كثرة المسلمين في شرقى إفريقية، وإتصال هذا القسم مع بلاد العرب منذ القديم، وزيادة العلاقات التجارية أيام الإسلام، والانتقال الدائم بين القسمـين إلا أنه لاتوجد سوى ثلاث دول إسلامية غير عربية، ومتباعدة بعضها عن بعض وذلك لأن المسلمين تكاثروا في المناطق الساحلية ولم يتعمقوا في البرَ الإفريقي إلا في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ولأن أكثر الانتقال إنما كان إلى بلاد الصومال التي هى ضمن البلدان العربية، وإلى زنجبار التي تعد اليوم جزءاً من تانزانيا وإلى المناطق الساحلية في كل م كينيا، وتانزانيا، وكذا إلى جزائر القمر. والدول الإسلامية اليوم هى:

١ ـ الحبشــة

ومع أن ثلثى سكان الحبشة هم من المسلمين إلا أن الشائع لدى الناس ان الحبشة بلاد نصرانية، وذات أغلبية نصرانية، وذلك لأن الحكام الذين هم من النصارى يفرضون نوعاً من الهيمنة على المسلمين هذا من جهة، ونوعاً من الاعلام من جهة ثانية هذا بالإضافة إلى الجذور التاريخية للنصرانية في هذه البلاد.

تبلغ مساحة الحبشة ١,٢٢١,٩٠٠ كيلومتر مربع. وتشغل أكثر أراضيها هضبة مرتفعة يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠م، تنتصب بين حافتى الاخدود، وهذا الارتفاع يجعلها غزيرة الأمطار فتنحدر منها الأنهار التي تغذى نهر النيل، وأشهرها النيل الأزرق، وتقل الأمطار كلما اتجهنا شرقاً، وتزرع البن، والذرة، والقطن، وتكثر تربية الحيوانات.

يبلغ عدد سكان الحبشة ٢٧ مليون نسمة، وتقدر نسبة المسلمين بثلثى السكان، والباقى من النصارى الأقباط، وقد انتشرت النصرانية في الحبشة في القرن الثالث قبل الهجرة، ومن قبل قامت مملكة (أكسوم).

وهاجر أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة عندما اشتد أذى قومهم عليهم، وأسلم النجاشى، ولكن من قام بعده بأمر الحبشة وقف موقفاً غير ودى بالنسبة إلى المسلمين، وهذا ماجعل المسلمين يفكرون في غزو الحبشة، وقامت عدة حملات بأوقات مختلفة، وبدأ ينتشر الإسلام في المناطق الشرقية حتى عم الأجزاء الشرقية، وقامت ممالك إسلامية وإمارات على حين تحصنت النصرانية في المرتفعات، وحدثت حروب بين أصحاب الديانتين كان النصر في أغلب الأحيان بجانب المسلمين، ولم يبق للأحباش سوى أجزاء بسيطة في أعالى الهضبة.

كان للأحباش اتصال دائم مع ملوك أوربا للعمل سويةً ضد المسلمين، وقد ظهر هذا خلال أوقات متباعدة، فعند الغزو الصليبى قدم الأحباش المساعدات وأصبح لهم دير خاص في بيت المقدس، وحرصت الحبشة على مساعدة ملك قبرص النصرانى وتحريضه على غزو مصر، وكان إثر ذلك غزو الإسكندرية عام ٧٦٧هـ وأقدمت الحبشة على القيام ببعض الأعمال التخريبية إلا أن تحرك الجيوش المملوكية قد حال دون استمرار أعمال الأحباش.

وعندما فتح المماليك في مصر جزيرة قبرص عام ٨٣٠هـ (١٤٢٧م) اتصل الأحباش بملوك أوربا للعمل ضد المماليك، وقد تجاوب مع ذلك ملك فرنسا وملك أرغونة وهدد ملك الحبشة المماليك بالقيام بغزو لبلاد العرب والأماكن المقدسة وتحويل مجرى نهر النيل.

واتصلت الحبشة بالبرتغاليين طلائع المستعمرين الذين قدموا من الجنوب بعد التفاهم حول إفريقية، ووعدت البرتغال بتقديم مساعدات للأحباش في قتالهم ضد المسلمين، ولكن لم يلبث أن وقع الخلاف بين الفريقين بعد دخول البرتغاليين إلى الحبشة عام ٩٢٨هـ (١٥٣٤م) إذ حاولوا فرض المذهب الكاثوليكي، وترك البرتغاليون الحبشة بعد هزائمهم أمام المسلمين بعد ست سنوات.

وفي مطلع القرن العاشر حملت راية الجهاد في شرق الحبشة إمارة عدل ووصل

نفوذها إلى حافة الهضبة في الوقت الذي كان العثمانيون يدخلون مَن الشمال بلاد العرب ليوحدوا المسلمين ويقفوا في وجه البرتغاليين وأطماعهم في المنطقة. إلا أن حكام إمارة عدل قد اضطروا فيما بعد إلى مسالمة الأحباش بعد أن هزموا أمامهم.

ثم حملت إمارة هرر راية الجهاد وأسلمت الشعوب البدوية مثل الدناقل وغيرها وشجع الهرريين وصول العثمانيين إلى المنطقة ووقوفهم في وجه الخلف البرتغالى الحبشى إذ دعموا سطان هرر أحمد بن إبراهيم الملقب بالقرين وأمدوه بالأسلحة فاستمرت غزواتهم في الحبشة خمسة عشر عاماً، وكانت النتائج أن دخل سلطان هرر أجزاء من هضبة الحبشة، وعاد إلى الإسلام عدد من الذين سبق لهم أن تنصروا تحت ضغط الأحباش، كما بدأت قبائل الجالا الوثنية تدخل في الإسلام، كما أن هذه القبائل قد استغلت الخلاف الذي حدث بين الأحباش والبرتغاليين فشقت طريقها إلى الهضبة من الجنوب.

وازداد عدد المسلمين في القرن الحادى عشر الهجرى، ودخل التجار الكانميون إلى بلاد الحبشة فأسلم على أيديهم كثيرون، واتجه المظلومون من الأحباش إلى عدالة الإسلام، وكان المسلمون من الأحباش ذوى مكانة اجتماعية وثقافية وخلقية، معروفين بالجد في العمل والأمانة في المعاملة. وقد عرف لهم هذا الأحباش حتى الذين كانوا على غير دينهم غير أن بعض المتعصبين من النصارى كثيراً ماكانوا يسيئون إلى المسلمين، ويصرون على إقصائهم عن الوظائف الرسمية، ومع هذا فقد وجد الإسلام طريقه إلى قلوب كثير من الزعماء، وكان أحد رؤوس من نواب الملك في القرن الثالث عشر مسلماً وهو (الرأس على)، وفي عهده تحول نصف أهالى الولايات الوسطى إلى الإسلام.

واهتم المهديون في السودان بالإسلام في الحبشة، واتخذون بلدة (القلابات) في شرقى السودان مركزا للدعوة، ورغم الاجراءات الصارمة التي اتخذها ملوك الحبشة النصارى ضد المسلمين فقد دخلت قبائل كاملة في الإسلام وكانت من قبل تدين بالنصرانية، وقد أثار هذا حفيظة الحكام الأقباط فأصدر الملك عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م) قراراً يجعل التعميد إجبارياً للسكان سواء أكانوا من النصارى أم من المسلمين. وقد أجبر أكثر من خمسة وخمسين ألفاً من المسلمين على التعميد، وأخرجت ألوف أخرى من منازلهم، وأبيدت جماعة ثالثة.

مات الملك يوحينا عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وخلفه منليك الثاني فاستعـ
بنفوذ الأوربيين ليبتلع الإمارات الإسلامية التي تقوم على الأرض التي تشكل الـ
جزءاً من الحشبة في هرر، والأوغادين وغيرها.

إن افتتـاح قنـاة السويس جعل الدول الأوربية تتطلع للسيطرة على شر
إفريقية، فعملت على استرضاء الملك منليك الثاني ومده بالسلاح فأمعن في ق
المسلمين. وعندما قسم شرقي إفريقية أعطى حرية العمل بل والدعم لضم منط
الأوغادين وهرر من الصومال إلى الحبشة.

أما إيطاليا فقد وقفت موقفاً آخر في علاقتها مع الأحباش، فادعت شراء مي
عصـب عام ١٢٨٨هـ (١٨٧١م)، واستـولت على مصـوع عام ١٩٠٣
(١٨٨٥م)، ووقعت الحرب بين الأحباش والطليان، وانتصرت إيطاليا، ثم هزم
عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م)، واعترفت باستقلال الحبشة التي قبلت في عصبة الأ
عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م)، إلا أن إيطالليا لم تترك الحبشة نهائياً فعندما قام الحـ
الفاشى فيها أيام موسولينى هاجم الحبشة. وتمكن الجيش الإيطالي من دخـ
العـاصمـة أديس ابابـا عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م)، وفـر أمـبراطـور الحبشـ
(هيلاسلاسى) إلى بريطانيا، وأعلن ملك إيطالليا نفسه امبراطوراً على الحبشة.

عاد هيلاسلاسى عام ١٣٦٠هـ (١٩٤١م) إلى البلاد مع القوات البريطا
الـزاحفـة على الحبشة لقتال الإيطاليين ولينظم الإمبراطور مقاومة حبشية تؤا
القوات البريطانية في قتال الطليان، وهزمت إيطاليا، وعاد هيلاسلاسى أمبراطـ
للحبشة.

تمكن منليك الثاني بدعم الأوروبيين أن يؤسس الإمبراطورية الحبشية بعد
استـولى على الامارات الإسلامية، وقد سار على طريقة وحشية مع المسلمير
وتـوفى عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م)، وخلفـه حفيده (ليج اياسـو)، وقـد اعتـ
الإسلام، وعندما قامت الحرب العالمية الأولى وقف بجانب الأتراك بحكم صلا
العقيدة، وفي عهده رفع الظلم عن المسلمين، أما النصارى الأحباش فيقولود
إن «ليج اياسو» كان مفتوناً بالإسلام، إذ لم يعترفوا بإسلامه، وعدوه خائناً وطنيـ
وأعلنوا الحرب عليه، وبرأ البابا زعماء النصارى من قسم الطاعة للإمبراطو
ونتيجة ذلك حدث انقلاب عليه عام ١٣٣٦هـ (١٩١٨م)، وتولت الحكم بعـ

ابنة منليك الثاني (زاوديتو)، وأصبح (رأس تافارى) وصياً على العرش، ثم توج ملكا عام ١٣٤٧هـ (١٩٢٩م)، وإمبراطوراً عام ١٣٤٩هـ (١٩٣١م) إثر وفاة (زاوديتو)، وحمل اسم (هيلاسلاسى).

منح الامبراطور (هيلاسلاسى) بلاده الدستور عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، وأسس مجلساً نيابياً له صفة الاستشارية فقط، أما الحاكم الحقيقى فهو الامبراطور. وهو من قبيلة (امهرة) التي عّدت القبيلة الحاكمة، وغدت لغتها اللغة الرسمية، كما أن النصرانية هى دين الدوة في الحبشة.

سار هيلاسلاسى في سياسة معادية للإسلام أشد المعاداة فلم يكن بين وزرائه سوى وزير واحد لاوزن له في مجلس الوزراء مع ان المسلمين يشكلون ٦٧٪ من السكان، ولم يكن للمسلمين أي نصيب في الخارجية، والمناصب العليا، والضباط الكبار، ولم تزد نسبتهم بين صغار الضباط على ٢٪. وأغلق مراكز الثقافة الإسلامية، ومنع تعليم اللغة العربية، وألزم المسلمين بدفع جزية للكنيسة باسم «منفسى كوبى» أى الدخل الأدبى، وأمر بتشييد الكنائس عند مداخل القرى الإسلامية ليوهم الغرباء عن المنطقة أن القرية أو تلك الجهة نصرانية. وقد أسلم زعيم قبيلة (غويه) وأفراد قبيلته الذين يقيمون في ناحية (سيدامو) فألقى كبارهم في السجن، وأذيقوا مر العذاب، ولم يفرج عنهم حتى أعلنوا عن ردتهم، فأعيدت لهم ممتلكاتهم التي حجزت عندما أشهروا إسلامهم. وفر سلطان (غراد) إبراهيم سابو زعيم قبيلة (غوتى)، والتجأ إلى الصومال، بعد أن عذب سبعة أشهر، وكذلك فر زعماء بارزون غير الذين فتنوا بدينهم - نعوذ بالله - واضطرت مدينة هرر للقيام بثورة عام ١٣٦٧هـ (١٩٤٨م) فأصابها الدمار والخزاب والويل وانتهاك الحرمات، وألغيت المحاكم الشرعية عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م). ولم يختلف الأمر عندما حدث انقلاب ضد هيلاسلاسى إذ أن (منغستومريام) يسير على الخط نفسه في عدائه للإسلام ومحاربته للمسلمين.

أما اريتريا فإنها المنطقة الساحلية، ولما كانت هضبة الحبشة التي يعتصم النصارى فيها فإنها تقترب في الشمال من المنطقة الساحلية، ولما كان سكان الساحل من المسلمين، وسكان أعلى الهضبة من النصارى لذا فان الاختلاف تم، والتباين قد وضح فكان كل قسم يسير في خط، ولما حاول الطليان احتلال الحبشة

كانوا قد احتلوا اريتريا وتمركزوا فيها، ولما هزمت إيطاليا في الحرب العالمية الثانية، وضعت مستعمراتها تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة ومنها اريتريا على حين أعلن استقلال الحبشة، وكلفت انكلترا لإدارة اريتريـا من قبل الأمم المتحدة، وفي عام ١٣٧٠هـ (١٩٤٩م) نقلت إلى السلطات الحبشية إدارة ارتيريا بموجب قرار صدر عن الأمم المتحدة دون علم سكانها، وبالفعل فقد تم تسليم اريتريا للحبشة عام ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) على أن تتمتع بالحكم الذاتي في ظل اتحاد (فيدرالى) يضم إريتريا والحبشة تحت التاج الحبشى. ولكن هذا الاتحاد تحول إلى دمج وابتلاع عام ١٣٨٢هـ (١٩٦٢م) الامـر الذي أدى إلى قيام ثورة في الحبشة، ولاتزال مشتعلة إلى الآن.

٢ - تانزانيا

لمحـــة جغرافيـــــا :

تبلغ مساحة تانزانيا مليون كيلو متر مربع، ويسكنها مايقرب من أربعة عشر مليوناً، وأكثر السكان الأصليين من الزنوج والأقزام - ثم جاءت موجة من قبائل البانتو من الشمال، وغدوا يؤلفون القسم الأعظم من السكان ومن أهم قبائلهم (المـاسـاى) و(النـانـدى).. كما جاءت أعداد من العرب وأقامت مراكز لها على الساحل، وأخيراً جاء عدد من الهنود والإيرانيين.

وتتألف أرض تانزانيا من:

١ ــ السهل الساحلى: ويترواح عرضه ١٥-٨٥ كيلومتراً، ويضيق في الشمال والجنوب.

٢ ــ الهضبـة الـوسـطى: وتـرتفع بعد السهل الساحلى، ويصل ارتفاعها إلى ١٤٠٠م، وتقبع فوقها بعض الجبال البركانية التي يصل ارتفاعها إلى أكثر من ٦٠٠٠م.

٣ ــ نجد مرتفع: وهو جزء من مرتفعات إفريقية الشرقية وتنتشر فيه البحيرات مثل: بحيرة فيكتوريا، وتنجانيقا، ومالاوى.

وتوجد قرب الساحل ثلاث جزر هى: زنجبار، وبمبا، ومافيا.

ويختلف سكان الجزر عن سكان الداخل من حيث الأصل والعقيدة، فسكان

زنجبار التي تتألف من جزيرتي زنجبار وبمبا من حيث الأصل نلاحظ أنهم يتألفون مما يلي:

١ ـ شيرازيون	ويؤلفون ٥٦٪ من مجموع السكان وعددهم	٢٨٠,٠٠٠
٢ ـ عرب	ويؤلفون ٢٠٪ من مجموع السكان وعددهم	١٠٠,٠٠٠
٣ ـ إفريقيون	ويؤلفون ١٨٪ من مجموع السكان وعددهم	٩٠,٠٠٠
٤ ـ هنود	ويؤلفون ٦ ٪ من مجموع السكان وعددهم	٣٠,٠٠٠
٥ ـ أوربيون	ويؤلفون ـــــ	٠,٥٠٠
	١٠٠٪	٥٠٠,٥٠٠

أما من حيث العقيدة فنجد مايلي:

١ ـ مسلمون	وسبتهم ٩٠٪	وعددهم ٤٥٠,٠٠٠	نسمة
٢ ـ نصارى	ونسبتهم ٤ ٪	وعددهم ٢٠,٥٠٠	نسمة
٣ ـ وثنيون	ونسبتهم ٤ ٪	وعددهم ٢٠,٠٠٠	نسمة
٤ ـ هندوى	ونسبتهم ٢ ٪	وعددهم ١٠,٠٠٠	نسمة
		٥٠٠,٥٠٠	نسمة

أما سكان الداخل (تنجانيقا) فنلاحظ مايلي :

١ ـ إفريقيون	ويؤلفون ٩٧,٦٪	وعددهم ١٣,١٩٦,٠٠٠
٢ ـ هنود	ويؤلفون ١,٢ ٪	وعددهم ١٥٢,٠٠٠
٣ ـ وثنيون	ويؤلفون ٠,٨ ٪	وعددهم ١٠١,٤٠٠
٤ ـ أوربيون	ويؤلفون ٠,٤ ٪	وعددهم ٥٠,٦٠٠
	١٠٠٪	١٣,٥٠٠,٠٠٠

أما من حيث العقيدة فنلاحظ مايلي:

١ ـ مسلمون	ونسبتهم ٦٠٪	وعددهم ٨,١٠٠,٠٠٠	نسمة
٢ ـ نصارى	ونسبتهم ٢٧٪	وعددهم ٣,٦٤٥,٠٠٠	نسمة
٣ ـ وثنيون	ونسبتهم ١٣٪	وعددهم ١,٧٥٥,٠٠٠	نسمة
	١٠٠٪	١٣,٥٠٠,٠٠٠	

واللغة الرسمية في تانزانيا هي الانكليزية، وتعد السواحليـة هى اللغة الشعبية، ثم تأتى اللغة العربية والتي أثرت على السواحلية حتى أن ثلثى مفردات الأخيرة من أصل عربى، ولا تكد تمر على سطر واحد باللغة السواحليـة إلا وتجد فيه كلمات عربية. وتكثر اللغة العربية في المناطق الساحلية وبعض المراكز الداخلية التي يكثر فيها المسلمون مثل: (عروشه) و(طابوره). وكانت زنجبار مركزاً للعربية وثقافتها بالنسبة لشرقى إفريقية كله، ثم ضعفت بمزاحمة الانكليزية لها. وإلى جانب ذلـك هنـاك لغـات محلية تتكلمهـا بعض القبـائـل مثل: (الماساى) و (الشامبولا) و(نياموبزى) و(جندا).

وتـانـزانيا بلاد زراعية تنتـج البطاط، والأرز، وهما غذاء السكان، والنخيل الزيتى، وجوز الهند، والسيزال، والكاكاو، وقصب السكر، والموز، والقرنفل، والبطن، والقطن.

وتوجد فيها بعض المعادن مثل: الماس، والذهب، والفضة، والقصدير.

تاريخ تانزانيـــا :

قامت صلات تجارية بين العرب وشرقى إفريقية من قديم، فلما انتشر الإسلام في بلاد العـرب انتقل إلى شرقى إفريقية مع أفراد وأسر قليلة، وتزايد انتقال المسلمين إلى شرقى إفريقية نتيجة الأحداث والظروف السياسية، واجتذبتهم إليها الصـلات القـديمـة، ويسر المواصلات إلى سواحلها، فقد خرجت جماعة من الخوارج أيام عبدالملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) بعد أن هزمهم المهلب بن أبى صفرة، واتجهوا نحو شرقى إفريقية، واستولوا في طريقهم على جزيرة سوقطرى، كما انتقلت جماعة من أنصار آل البيت أيام الأمويين، واستقرت في شرقى إفريقية، وفرت جماعات من الأمويين عندما دالت دولتهم على أيدى العباسيين، وكانت

نهاية مطافهم في شرقى إفريقية أيضاً. وذهبت أعداد من شيراز من بلاد فارس إلى سواحل إفريقية الشرقية وتفرقوا في أنحائها، كما هاجرت مجموعة من الإجساء في شرقى جزيرة العرب، واتخذت مقامها هناك.

استقر هؤلاء المسلمون جميعاً على طول الساحل الشرقى لإفريقية من القرن الإفريقي في شمالى بلاد الصومال وحتى مدينة (سفالة) في بلاد موزامبيق على خط عرض ٢٠ جنوباً، ولم يتاوغلوا إلى الداخل كثيراً، وكانت مهمتهم تجارية في أغلب أمرها، وإن كانت التجارة قد يسرت في كثير من الأحيان سبل الاتصال بالسكان ودعوتهم إلى الإسلام.

استطاع هؤلاء المسلمون أن يؤسسوا مراكز تجارية كبيرة من أشهرها «كلوة» و «دار السلام» و «سفالة»، وقد زار هذه المراكز الرحالة المسلم «ابن بطوطة»، ووصفها وصفاً جميلاً، كما أعجب بهذه المدن البرتغاليون عندما جاءوا مستعمرين نظراً لنظامها ونظافتها.

أسس المسلمون في هذه المناطق إمارات وممالك متعددة، ولم تكن ـ مع الأسف ـ متحدةً فيما بينها الأمر الذي جعلها ضعيفة لاتثبت طويلاً أمام قوة البرتغاليين الذين كانوا طلائع المستعمرين في تلك الجهات. ومن أشهر هذه الممالك مملكة الزنج التي تأسست في القرن الرابع، وكانت حاضرتها مدينة كلوة ففي جنوبى تانزانيا اليوم، وقد استطاعت هذه المملكة أن تنشر الإسلام في كل مما يسمى اليوم «زامبيا، وموزامبيق، ومالاوى» وبلغت جهودها في هذا السبيل روديسيا.

جاء البرتغـاليون مستعمرين في مطلع القرن العاشر الهجري فاستولوا على زنجبـار عام ٩٠٩هـ ١٥٠٣م)، واحتلوا مدينة كلوة عام ٩١١هـ (١٥٠٥م)، وأظهروا حقدهم الدفين، فقتلوا السكان، وأحرقوا الأبنية، وخربوا المدن، ولقد كان في مدينة كلوة ثلاثمائة مسجد دمر معظمها بأيدى البرتغالين مجرد أن دخلوا المدينة.

انسحب البرتغـاليون من أكثر مناطق شرقى إفريقية إثر هزيمتهم، وكانت القوى التي هزمتهم، انكلترا منافسةً لهم، والعثمانيون الذين دخلوا البلاد العربية ليحولوا دون أطماع البرتغاليين وأهدافهم في دخول الأماكن المقدسة الإسلامية،

وعمان التي قاتلت البرتغاليين دفاعاً عن الإسلام ومصالحها. وفي أيام سلطان عمان سيف بن سلطان الذي استطاع أن يقضى على نفوذ البرتغاليين في جميع المناطق الواقعة شمال موزامبيق دخل المذهب الأباضى إلى شرق إفريقية، وأصبح شرقى إفريقية يتبع عمان، إلا أن نفوذ العمانيين قد ضعف مع الزمن.

وفي عام ١٢٤٨هـ (١٨٣٢م) نقل سلطان عمان سعيد بن سلطان عاصمته من مسقط في عمان إلى زنجبار في شرق إفريقية لتقوية نفوذه هناك. وعندما توفي عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٦م) قسمت مملكته بين ولديه، وكان القطاع الافريقي من نصيب ابنه ماجد الذي استمر حكمه حتى عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م). وكان المسلمون قبل الاحتلال البرتغالي يلزمونه ولا يتعدونه إلى الداخل إلا موقتاً إما للتجارة أو للدعوة ثم لايلبثون أن يعودودا إلى مراكزهم الساحلية، وقد أدركوا فيم بعد خطأهم في عدم توفير عمقٍ استراتيجى لهم يمكنهم من مقاومة الهجوم عليهم وقد شرع المسلمون يغيرون طريقتهم بعد خروج البرتغاليين، فنقل من أجل ذلك السلطان ماجد بن سعيد عاصمته من زنجبار إلى دار السلام، وبدأ المسلمون يتوغلون في الداخل حيث أصبحوا يقيمون لهم مراكز دائمة للدعوة والتجارة والإدارة، وكان رؤساء القبائل الإفريقية في تلك البقاع يدفعون لهم الجزية أو يدخلون في عهد معهم، ومن ثم انتقل المسلمون إلى زائير ونشروا دينهم ولغتهم. ومع اتساع نفوذ الإسلام السياسي هناك زاد انتشاره.

وضعف الحكم العربي الإسلامي في شرقى المنطقة عندما توفي ماجد بن سعيد إذ خلفه أخوه الصغير «برغش بن سعيد» وفي الوقت نفسه أخذت السياسة الاستعمارية تنفذ، وتعمل على تقسيمها بين الدول الاستعمارية الكبرى.

أخذت انكلترا زنجبار، وأخذت المانيا تنجانيقا، وزاد ضعف دولة زنجبار وسيطرتها على ممتلكاتها بموت «برغش بن سعيد» عام ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م)، وقد شهد تقسيم بلاده في حياته، وخلفه «سيد خليفة». ولما هزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وقسمت مستعمراتها على الحلفاء المنتصرين كانت تنجانيقا من نصيب انكلترا بعد أن وضعت تحت وصاية عصبة الأمم.

استقلت تنجانيقا عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م) وأصبحت ضمن رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، أما زنجبار فقد توفي سلطانها «سيد خليفة» عام

١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) وخلفه ابنه «جلمشيد بن عبدالله خليفة»، وما أن تم الاستقلال عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) حتى حدث انقلاب عسكرى برئاسة (عبيد كرومى) الذي نصب رئيساً للجمهورية الزنجبارية، وخلع السلطان «جلمشيد»، ونكبت الأسرة العربية العمانية التي كانت تحكم زنجبار، وقتل ستة عشر ألفاً من العرب لأن الانقلابيين عدوا الأسرة الحاكمة مستعمرة دخيلة، وقتل معهم أربعة وخمسون ألفاً من المسلمين الآخرين.

وفي عام ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) انضمت زنجبار إلى تنجانيقا لتكون اتحاداً عرف باسم «تانزانيا»، وأصبح «بوليس نيريرى» رئيساً للجمهورية الاتحادية، وعين (عبيد كرومى) نائباً لرئيس الجمهورية.

وفي عام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) جرت محاولة لفصل زنجبار عن تنجانيقا، وادعت الحكومة أن المتآمرين من عرب كينيا وزنجبار، وصفت الذين أرادت التخلص منهم، ثم اغتيل (عبيد كرومى) لنفسه.

ويحكم تنجانيقا حزب الاتحاد الوطني الإفريقي الذي يرأسه (يوليوس نيريرى) رئيس الجمهورية، أما زنجبار فيحكمها الحزب (الأفرو شيرازى).

وعندما حدث الانقلاب العسكرى في أوغندا عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م) وتسلم زمام الأمر (عيدي أمين) فر الرئيس السابق (يلتون أوبوتى) إلى تانزانيا، وبقي فيها، ثم اصطنع خلاف بين الدولتين الجارتين وجرت الحرب بين الطرفين دخلت إثرها تانزانيا، أرض أوغندا ونصبت على أوغنده جوزيف بن عيسى رئيساً بعد أن فر عيدى أمين واختفى في جهة من البلاد، ثم أعيد ميلتون أوبوتى رئيساً لأوغندة بعد انتخابات جرتن وبدعم من تانزانيا.

٣ ـ جزر القمر

لمحة جغرافية:

تقع جزر القمر في شرقى إفريقية بينها وبين شمالى جزيرة مدغشقر وعلى بعد متساو تقريباً من كلا الجانبيين يقرب من ٢٧٥ كم، وعلى عتبة بحرية لايزيد عمقها على ٣٠٠م، وهى أربع جزر هي: جزيرة القمر الكبرى أو نجزيجة،

أنجوان أو قنبالو، موحلى، مايوت. تبلغ مساحتها جميعها ٢١٧٠ كم٢، ولا يزيد عدد سكانها على ثلاثمائة وخمسين ألفاً وبذا تكون الكثافة مرتفعة نسبياً ويزيد على ١٦٠ شخصا في الكيلو المتر المربع الواحد. وهي كثافة كبيرة إذا قارناها مع غيرها من تلك الأمصار الواقعة في تلك الجهات. ويدين السكان جميعاً بالإسلام رغم أنه وجدت قلة نصرانية مؤلفة من رجال الإرساليات النصرانية وجماعة من مدغشقر.

تقع هذه الجزر بين خطى عرض ١١-١٢ جنوباً فهى ذات مناخ موسمي تغزر أمطارها في فصل الصيف، وتقل في الشتاء والفصول عندهم معاكسة لفصولنا بصفتها بالنصف الثاني من الكرة.

لمحة تاريخية:

إن أول من سكن جزائر القمر جماعة من العنصر الماليزي، ثم وصل إليها الأدوميون وهم من الساميين وذلك أيام سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام، ثم توافد عليها زنوج قدموا من زنجبار في القرن الخامس، وتوالت جماعات تفد إليها من إفريقية، ومدغشقر، وبلاد العرب، وقد جاء العرب من جنوبي جزيرتهم، فيقول المسعودى : إن الأرز الأباضيين قد فتحوا قنبالو (انوان) عام ٢٠٨هـ ، هذا بالإضافة إلى من جاءها من الفرس.

احتل البرتغاليون جزائر القمر عام ٩٠٨هـ (١٥٠٢م) بعد أن تمكنوا من الالتفاف حول إفريقية وأطلقوا على سكنها المسلمين اسم «المورو» مثل بقية المناطق التي وجدوا فيها مسلمين، ولم يجد البرتغاليون صعوبة في دخول جزائر القمر، لضعف السكان وافتراق كلمتهم، إلا أن السكان لم يلبثوا أن ثاروا على البرتغاليين بسبب القسوة التي أبدوها والوحشية التي عاملوا بها الأهالي. ونزلت في ذلك الوقت بالذات جماعة من شيراز في جزيرة القمر الكبرى وذلك عام ٩١٢هـ (١٥٠٦م) وكانت بإمرة محمد بن عيسى فاحتلت الجزيرة، وأرسل محمد هذا ابنه حسناً فنزل في جزيرة (انجوان)، واستقر فيها، ثم لم يلبث أن أسس سلطنة إذ تزوج بابنة «فاني علي» زعيم «موتسامودو» حاضرة الجزيرة، وتلقب باسم السلطان حسن، ولما توفي خلفه ابنه محمد الذي تزوج بابنة زعيم جزيرة (مايوت) ثم ألحقها بسلطنته، ثم أضاف إليه جزيرة «موحلى» أيضاً، وأطاعه سلاطين جزيرة القمر الكبرى.

خلف محمد ابنه عيسى إلا أن أمره لم يلبث أن ضعف حيث أصبح نفوذه اسمياً على جزيرة القمر الكبرى، وعندما توفي عيسى خلفته على السلطنة زوجته «مولالانه» الأمر الذي أغضب الزعماء فانتفضت جزيرة «مايوت» عليها، واستأثر بأمر (انجوان) زعيم (موتسامودو)، ففرت الملكة إلى المدينة الثانية في الجزيرة وهي (دوموني)، ومات زعيم (موتسامودو) فخلفته زوجته «فاتنة» فغدا في جزيرة (انجوان) ملكتان إحداهما في (موتسامودو) وهي (فاتنة)، والثانية في (انجوان) وهي (مولالانة)، وبقي الخلاف قائماً بين المدينتين حتى أيام الملكة «عالمة» التي بنت الجامع الكبير في «موتسامودو» عام ١٠٨١هـ (١٦٧٠م).

اكتسحت جيوش جزيرة مدغشقر جزيرة (انجوان) وفتكت بأهلها، واستمر ذلك الحكم حتى قام الأمير أحمد حفيد الملكة، (عالمة) وجمع البلاد، وحكم من ١١٨٤-١١٩٩هـ (١٦٧٢-١٦٨٦م)، وفي أيامه أغارت قبائل (الساكافالا) المدغشقرية على البلاد، فاضطرب جعل الأمن، واستقلت جزيرة (مايوت) عن «انجوان»، وبعد موت الأمير أحمد خلفه الشيخ سالم الذي استمر حكمه حتى عام ١٢١١هـ (١٧٩٦م)، ثم جاء بعد ابنه أحمد، وكان صغير السن، فنازعه عمه «علوي» إلا أنه فشل ففر إلى زنجبار، ثم أعاد الكرة بعد عامين، وتمكن من خلع ابن أخيه أحمد، وتولى مكانه حتى عام ١٢٣٥هـ (١٨٢٠م)، وخلفه ابنه عبدالله الذي قاتل أهل مدغشقر، وجاءه أحد المتنازعين على الحكم في مدغشقر فأكرمه، وتمكن عبدالله من احتلال جزيرة «مايوت».

جاء إلى الحكم بعد عبدالله ابنه (علوي) ولكن عمه سالماً نازعه على الحكم وهرب علوي إلى موزامبيق حيث أسره الانكليز، ونفوه إلى (كلكتا)، ثم إلى (موريشيوس)، وبقي فيها حتى مات عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م)، وانفرد عمه سالم بالحكم.

أما جزيرة (مايوت) فقد انفصلت اسمياً عن (انجوان) على يد صالح بن محمد بن بشير من أهل عمان، إذ تزوج بابنة سلطان الجزيرة، فلما مات السلطان خلفه صهره صالح ابن محمد، وبقيت تتبع (انجوان) اسمياً حتى احتلتها فرنسا عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م). وهكذا عزلت (مايوت) عن بقية الجزر التي كان يحكمها سالم، وعند موته خلفه ابنه عبد الله الملقب بالكبير، وكان صديقاً للانكليز.

ثار على عبدالله الكبير أخوه محمد إلا أنه انتصر عليه، ولكن الحروب قد هدت قواه فطلب الحماية من فرنسا عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٧م) غير أن السكان قاموا بثورات ضد الفرنسيين ومات عبدالله مسموماً او مخنوقاً، وتولى مكانه أخوه عثمان بن سالم، ولكن أهالى مدينة (موتسا مودو) بايعوا ابن أخيه سالم بن عبدالله بن سالم، وجرى القتال بين الطرفين، فانتصر عثمان، والتجأ سالم إلى الفرنسيين، وطلب المساعدة منهم، واعترف بحمايتهم، وبقى عثمان يقاومهم أخيراً اضطر للاستسلام فنفى إلى كاليدونيا الجديد..

جىء بأحد أمراء (انجوان) وهو السيد عمر فجعل سلطاناً عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) فأمضى معاهدة مع الفرنسيين واعترف بحمايتهم على جزائر القمر عام ١٣١٠هـ (١٨٩٢م)، ولم يعيش السيد عمر بعدها طويلاً إذ مات بالنسبة نفسها، وخلفه ابنه «محمد بن عمر» على جزيرة (انجوان) وملحقاتها، وخلفه ابنه الآخر وهو «علي» على جزيرة القمر الكبرى.

كانت جزيرة القمر الكبى عندما جاءت فرنسا مقسمة إلى اثنتى عشرة مقاطعة لكل منها سلطان، وأكبرهم يعرف باسم سلطان (تيبه) ويخضع جميعهم له، وكان صاحب هذا النصب يومذاك السلطان أحمد، وهو أخو السيد عمر أحد وجهاء جزيرة (انجوان)، فلما مات أحمد خلفه بن أخيه (علي بن عمر) حسب وصية عمه أحمد، وكان صغير السن فلما جاء ليتسلم الأمر في جزيرة القمر الكبرى، ويخلف عمه في الأمر رفض بقية سلاطين الجزيرة الخضوع له، وثاروا عليه بإمرة السلطان، (موسى فومو) الذي أراد أن يكون مكانه، ووقعت الحرب بين الطرفين، وخرج علي منتصراً في الحرب لمساعدة جزيرة (موحلى) له، وكذا جزيرة (انجوان) إضافة إلى سلاطين بعض المقاطعات في جزيرة القمر الكبرى نفسها، كما أن انكلترا قد عرضت حمايته ولكنه رفض، وطلب من قائد القوات جزيرة (مايوت) المساعدة والحماية، وعندها عرضت انكلترا مساعدتها لخصمه السلطان (موسى فومو) فوافق.

وأصبح الخصمان المتنازعان في الجزيرة في حماية الدولتين الاستعماريتين المتنافستين انكلترا وفرنسا.

جاء الفرنسى «هامبولت» إلى المنطقة، واقترح على حكومته مساعدة السلطان

علي، فوافقت، وعقدت معه معاهدة حماية عام ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) غير أن الثورة اشتعلت في جزائر القمر إذ عد السلطان على خائناً لتصرفاته وخضوعه لفرنسا ولكن الثورة قد قمعت بشدة من قبل السلطات الفرنسية وذلك عام ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م)، وأقر السلطان علي سلطاناً على جزيرة القمر الكبرى في الوقت الذي كان أبوه عمر قد وقع معاهدة حماية مع فرنسا أيضاً، وأقرها ابنه محمد الذي خلفه على جزيرة (انجوان).

ادعت فرنسا أن محاولة جرت لاغتيال هامبلوت، واتهمت السطان علي أنه وراء المحاولة فقبضت عليه ونفته إلى (دياغو) ثم إلى (بوربون) واصبح الأمر للمقيم الفرنسي.

وفي عام ١٣٣١هـ (١٩١٣م) صدر قرار أصبحت بموجبه جزائر القمر مستعمرة فرنسية، وحتى ذلك الوقت لم تكن مستعمرة سوى جزيرة (مايوت)، ثم ألحقت هذه الجزر عام ١٣٣٣هـ (١٩١٥م) بجزيرة مدغشقر، وبقيت تتبعها مدة عامين، ثم عادت مستعمرة منفصلة، واستمر ذلك حتى مابعد الحرب العالمية الثانية إذ أصبحت تحكم جمعية منتخبة مؤلفة من ثلاثين عضواً.

وفي عام ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) وجد مجلس حكومى مؤلف من ٦-٨ وزراء، ويرأس هذا المجلس أحدهم ويعد بمثابة رئيس وزراء. وكان آنذاك سيد محمد الشيخ. وتتمثل في الجمعية الوطنية الفرنسية في باريس.

وكان المجلس النيابي القماري يتألف من ٣٨ عضواً، ويرأس الحكومة السيد أحمد عبدالله، وهو رئس حزب استقلال ووحدة جزر القمر، وذلك بعد انتخابات ١٣٨١هـ (١٩٦١م)، وأصبح لفرنسا مندوب سام، وبدأت المطالبة بالاستقلال منذ عام ١٣٩٢هـ (١٩٧٢م) بشكل واسع سواء من قبل الحكومة أم من قبل المعارضة التي يمثلها الحزب الاشتراكي وحزب الحركة القومية لتحرير القمر.

جرى الاستفتاء على الاستقلال عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م)، ودلت النتائج على أن ٩٥,٦٥م قد أيدوا الاستقلال التام عن فرنسا، وأن ٤,٤٪ أيدوا البقاء ضمن اطار المجموعة الفرنسية كأحد أقاليم فرنسا فيها وراء البحار. غير أن جزيرة مايوت قد كانت النتيجة فيها متباينة إذ أن ٦٤٪ قد أيدوا البقاء مع فرنسا نتيجة أثر

جنوب «الماهور» الذي يتنزعمه النصراني (مارسيل هنرى).

وفي عام ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) أعلن المجلس النيابي القماري استقلال الجزائر القمارية عن فرنسا، إلا أن ممثلى جزيرة «مايوت» لم يحضروا، وأعلن المندوب السامي الفرنسي حالة الطوارىء، واستقدم قوة دعم كانت ترابط في جزيرة (رينون). وأعلن المجلس النيابي اختيار أحمد عبدالله رئيساً للدولة الجديدة. وقد أعلم فرنسا أن مندوبها السامى قد اصبح سفيراً لها في البلاد، واعترفت بهذا الاستقلال عدة دول، كما قبلت فرنسا الاستقلال باستثناء جزيرة «مايوت».

حدث انقلاب من حزب المعارضة «الجبهة الوطنية المتحدة» الذي يتنزعمه «على صويلح»، واختير «سيد محمد غفار» رئيسا للدولة، وقد طالبت الحكومة بوحدة الجزر القمارية بما فيها «مايوت»، ثم اسندت رئاسة الدولة الى السيد «علي صويلح» عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).

لجأت فرنسا إلى الضغط السياسي والاقتصادي فقطعت المساعدات، وسحبت الخبراء والفنيين، وعدت (مايوت) إقليماً فرنسياً، وقد أجرت فيها استفتاء عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) كان لمصلحة فرنسا، وإن اعترضت عليه دولة جزائر القمر.

وحدث انقلاب عام ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) أطاح بحكومة الرئيس «علي صويلح»، وتولى زمام الأمر (سعيد أتوماني) وهو وزير سابق في حكومة أحمد عبدالله. ثم تولى رئاسة دولة جزر القمر الاتحادية الاسلامية أحمد عبدالله عبدالرحمن.

الفصل الثاني عشر
الأقليات المسلمـة في إفريقيـــة

يبلغ عدد الأقليات المسلمة في إفريقية مايزيد على خمسة وعشرين مليوناً، ولكن هذا الرقم لايمثل إلا نسبة قليلة بالنسبة إلى عدد الأقليات المسلمة في العالم وهذه النسبة هي ١١,٨٪، وذلك لأن الدول الإفريقي التي يعيش فيها مسلمون كأقلية ذات أعداد قليلة السكان وخاصة أنها في المناطق الوسطى والجنوبية من القارة، إضافة إلى جزر المتناثرة في المحيطين الأطلسي والهندي وتشكل هذه الجزر دولاً صغيرة.

شرقى إفريقيـــــة:

لقد انتشر الاسلام في شرقى إفريقية عن طريق التجارة، وإقامة الإمارات والمهالك، وعن طريق الدعوة، وانتقال الناس إليها للعمل، وتعد الأقليات المسلمة في هذا الجزء من القارة أكبر الأقليات ويبلغ عددها ١٤,٢٧ مليون، فتكون نسبتها ٥٤٪ من مجموع الأقليات المسلمة في القارة، ويتوزع المسلمون كأقليات في شرقي القـارة في خمس دول هي: كينيا، وأوغنـدة، وموزامبيق، ومالاوى، ومالاغاشى، وتزيد نسبة المسلمين فيها جميعا على ٢٥٪ من مجموع عدد سكان الدولة الواحدة.

انتقلت أعداد من المسلمين من جزيرة العرب ومن بلاد العرب ومن بلاد فارس في أوقات مختلفة، وفي ظروف متباينة وإن كان أهمها ماكان لظروف سياسية، أو للعمل في سبيل الله، أو للعمل في التجارة، وإن كان الأخير غالباً مايكون وسيلة للاتصال بالناس ودعوتهم. وأس هؤلاء المسلمون إماراتٍ كثيرةً امتدت على طول الساحل، وازدهرت، ولكن لم يكن أهلها ليتوغلوا في داخل القارة وذلك لظروف

الداخل الطبيعية من مناخٍ قاسٍ، وغابات متشابكةٍ، وحيوانات مفترسة، أو جبال شاهقة ترتفع فجأة، هذا بالإضافة إلى قلة السكان الذين هم مجال العمل التجارى أو الدعوة.

(١) كينيـــا :

وتبلغ مساحتها ٥٨٢,٦٠٠ كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانها على اثنى عشر مليوناً، يكثر المسلمون والعرب في المناطق الساحلية، ويقلون في الداخل. وقد كان الساحل يتبع سلطان زنجبار إلا أن السلطان «برغش بن سعيد» قد اضطر إلى التنـازل عن أملاكه هناك تحت ضغط الانكليز عام ١٣٠٥هـ وغدا محمية بريطانية، ثم ضمت بعد مدة إلى الأجزاء الداخلية التي كانت تحت الاستعمار الانكليزي، وتوحد الجزآن باسم «كينيا»، وأخيراً استقلت عام ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م).

تقدر نسبة المسلمين في كينيا بـ ٣٥٪ على حين لاتزيد نسبة النصارى على ١٦٪ أما الباقى وهو ٤٩٪ فهم من الوثنيين.

ويتكلم المسلمون اللغة السواحيلية، أما اللغة الرسمية فهى الانكلزية، وتعد المدن الساحلية ذات صبغة إسلامية تماماً وأشهرها: ومومباسا، ومالندى، ولامو، ويزيد عدد الجمعيات الإسلامية على أثنتين وخمسين جمعية متفرقة، كما يوجد عدد من القاديانيين، والبهائيين والإسماعيليين.

(٢) أوغنـــده :

تبلغ مساحتها ٢٤٣,٤١٠ كيلومترات مربعة، تأخر وصول الإسلام إليها، ثم وفد إليها التجار المسلمون في شرقى إفريقية في القرن الثالث عشر الهجرى، وأسلم على أيديهم عدد من سكان مملكة بوغندة.

ووصل الإسلام كذلك إلى أوغنده عن طريق الجيش المصرى الذي قدم لضم المنطقة الى مصر أيام الخديوى إسماعيل باشا عام ١٢٨١هـ (١٩٦١م) ولولا ضباط تلك القوات من اليهود والانكليز لتوسع انتشاره.

وجاء الرحالة «ستانلى» عام ١٢٩٣هـ (١٩٧٥م) فتوافدت إلى البلاد البعثات

التبشيرية، ووقفت في وجه انتشار الإسلام، وترك المصريون أوغنده عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) إثر الثورة المهدية في السودان، وعملت انكلترا على ضم أوغنده إلى ممتلكاتها في شرقي إفريقية. وأمام المخططات الاستعمارية توقف انتشار الإسلام قليلاً، وجاء العمال الهنود وفيهم عدد من المسلمين للعمل في السكك الحديدية وزراعة القطن.

يبلغ عدد سكان اوغنده أكثر من اثنى عشر مليوناً، وتبلغ نسبة المسلمين أكثر من ٤٠٪ من مجموع السكان، بينما تبلغ نسبة كل من النصارى والوثنيين ٣٠٪، ويتكلمون اللغة السواحيلية الخاصة باوغنده، وهي مزيج من لغة البانتو والعربية، أما اللغة الرمسية فهي الانكليزية. وهناك ثلاثة ملايين يتكلمون لغة «البانتو»، ولكل قبيلة لغتها الخاصة.

وعندما جاء «عيدي أمين» إلى الحكم عام ١٣٩٠هـ (١٩٧٠م)، وهو مسلم، اصطدم بمصالح البعثة الإسرائيلية، فطردها، واصطدم مع الإرساليات التنصيرية فأخرجها من البلاد، وهذا ماجعل الإقبال على الإسلام كبيراً فزادت نسبة المسلمين، وأغضب هذا كله الدوائر الاستعمارية فعملت على إزاحته بايجاد خلاف مع تانزانيا، فدخلت الجيوش التانزانية أوغنده ونكب المسلمون فقتل منهم مايقرب من نصف مليون، وشرد مثلهم.

(٣) موزامبيق :

وتبلغ مساحتها ٧٧١,٠٠٠ كيلو متر مربع، وتمتد على ساحل طوله ٩٠٠ كم، وتزداد نسبة المسلمين في الساحل، وتقل في الداخل، وهي بصورةٍ عامة ٣٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم سبعة ملايين، وقد دخل الإسلام عن طريق التجارة والدعوة، ومن المراكز الإسلامية المشهورة مدينة سفالة التي زارها الرحالة ابن طوطة، وهي آخر ميناءٍ إسلامي على سواحل شواطىء إفريقية الشرقية. كما انتشر الإسلام أيام مملكة الزنج التي قامت في القرن الرابع الهجري، وكان مركزها مدينة «كلوة» في تانزانيا اليوم.

وكانت موزامبيق تحت الاستعمار البرتغالي الذي جاء في مطلع القرن العاشر الهجري، واستمر حتى استقلال البلاد عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م).

(٤) مالاوى :

جمهورية صغيرة تمتد على ضفاف بحيرة مالاوى (نياسا) تبلغ مساحتها ١١٨,٤٨٤ كم٢، ويقدر عدد سكانها بخمسة ملايين تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٣٥٪. وقد وصل الإسلام إلى مالاوى عن طريق التجار والدعاة الذين وصلوا إلى البلاد أيام إمارة الزنج في القرن الرابع وأيام حكم لشرقى إفريقية في القرن الماضى.

حكمها البرتغاليون ثم خلفهم الانكليز عام ١٢٧٦هـ (١٨٥٧م) فاصطدموا بالمسلمين، واستمرت المعارك بين الطرفين زهاء عامين غلب إثرها المسلمون.

في عام ١٣٠٩هـ (١٨٩١م) أصبحت مستعمرة انكليزية، وجاء أول مندوب سام انكليزي وهو «هارى جونستون» فاضطهد المسلمين، وقتل أعداداً منهم ببنادق الصيد.

استقلت مالاوى عام ١٣٨٣هـ (١٨٦٦م)، وأعلنت فيها الجمهورية عام ١٣٨٦هـ (١٨٦٩م) بعد أن كانت ملكية.

(٥) مالاغاشى :

جزيرة كبيرة تبلغ مساحتها ٥٩٠,٠٠٠٢ ، ويبلغ عدد سكانها سبعة ملايين بينهم ٢٦٪ من المسلمين، وأما الوثنيون فيمثلون ٤٩٪، والباقى هم من النصارى ١٨٪ كاثوليك، ٧٪ بروتستانت.

وصل الإسلام إلى هذه الجزيرة عن طريق الدعوة والتجارة، وحكمت الجزيرة كلها من قبل المسلمين في القرن السابع عندما زارها الرحالة الأوروبى «ماركوبولو» عام ٦٨٠هـ (١٢٨٠م)، كما كانت اللغة العربية هي السائدة.

وصل البرتغاليون إلى مالاغاشى عام ٩١٣هـ (١٥٠٧م) وقاومهم المسلمون، وتمكنوا من دخولها بعد حروب ومقاومة، وأطلقوا على المسلمين اسم «المورو».

ثم جاء الفرنسيون عام ١٢٩٩هـ (١٨٨١م)، وأصبحت الجزيرة مستعمرة فرنسية عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م)، واستقلت عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م).

وقد كانت المسلمين أكثر من هذا بكثير، ويبدو أن أعداداً منهم قد تخلوا عن

ديانتهم نتيجة جهلهم وانقطاع الصلة بينهم وبين المسلمين، وبسبب الاضطهاد الذي وجدوه خلال عدة قرون، الأمر الذي جعلهم ينزوون في مناطقهم ولاتزال عندهم عادات الختان، وعدم أكل لحم الخنزير، ودفن الموتى على الطريقة الإسلامية، وزى النساء في اللباس المحتشم. كما لاتزال اللغة المالاغاشية تكتب بالحرف العربي، وهي اللغة الشائعة. أما اللغة الفرنسية فهى الرسمية ولكن لايفهمها أكثر من ٢٠٪ من السكان.

غربي إفريقيـــــة :

انتشر الإسلام في غربي القارة عن طريق الدعاة الذين كانت ترسلهم الدول التي قامت في غربى إفريقية وخاصة أيام المرابطين الذين وصلت دعاتهم إلى منطقة الغابون، ثم أيام الموحدين الذين جاءوا بعدهم. هذا بالإضافة إلى دولة الفولانيين التي قامت في العصر الحديث أيام «عثمان دانفديو»، وحركة الحاج عمر. كما أن حركة القبائل وانتقالها كان له أثره في انتقال الإسلام نحو الجنوب، والحياة القبلية لها دورها في دخول الإسلام بين أفرادها فيما إذا أسلم أحد أمرائها.

يبلغ عدد المسلمين الذين يعيشون أقليات في غربى إفريقية ٤,٣ مليون، وهذا يمثل ١٧٪ من مجموع الأقليات المسلمة في غربي إفرقية، ويتوزعون في أربع دول هي: ليبيريا، وغانا، والغابون، وغينيا الإستوائية، وتزيد نسبة المسلمين في كل دولة على ٣٠٪ إلا أن قلة عدد سكان الدول يجعل عدد المسلمين قليلاً.

١ ـ ليبيريا:

تبلغ مساحتها ١١١,٣٣٧ كم٢، ويقدر عدد سكانها بثلاثة ملايين ونصف المليون، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٣٠٪ من مجموع السكان، ويقيم أكثرهم في الداخل، أما الساحل فيقيم فيه الأمريكيون السود الذين اعتقوا، وهم الذين يسيطرون على الحكم، ولا تزيد نسبتهم على ١٪ من السكان. ويتكلم المسلمون لغات محلية حسب القبائل التي ينتمون إليها، وأهمها: الماندينغ، الكرو، الفانتى.

٢ ـ غانــــا :

تبلغ مساحتها ٢٣٧,٠٠٠ كم٢، ويزيد عدد سكانها على عشرة ملايين،

وتصل نسبة المسلمين إلى ٣٥٪، وأهم القبائل التي يكثر فيها المسلمون «الاشانتى».

كان للقبائل إمارات محلية في الداخل، ولكنها هزمت أمام الانكليز الذين بدأوا يتوسعون في الداخل عام ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)، ثم فرضوا عليهم الحماية عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م)، وضم الداخل إلى الساحل عام ١٣١٩هـ (١٨٩٧م) وقامت من ذلك مستعمرة ساحل الذهب.

استقلت البلاد عام ١٣٧٨هـ (١٩٥٨م) باسم غانا، واللغة الانكليزية هى الرمسية، ولكل قبيلة لغتها الخاصة.

٣ ـ غينيا الإستوائيــة :

وتبلغ مساحتها ١٢,٠٧٩كم٢، وتتألف من إقليمين رئيسيين هما:

(١) ريومونى: ويقع في البر الإفريقي بين الكاميرون والغابون، ويتبعه مجموعة جزر صغيرة، وتبلغ مساحتها ١٠,٠٤٥كم٢، ويبلغ عدد سكانه ٢٢٥ ألف نسمة.

(٢) فيرناندوبو: وهى جزيرة كبيرة وتتبعها بعض الجزر الصغيرة، وجزيرة انوبون في الجنوب، وتبلغ مساحتها ٢٠٣٤كم٢. ويصل عدد سكان هذا الإقليم إلى مائتى ألف نسمة.

كانت غينيا الاستوائية تتبع اسبانيا منذ عام ١١٩٤هـ (١٨٧٩م)، ومنحت الحكم الذاتي عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، ثم استقلت عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م)، وأصبحت تعرف باسم غينيا الاستوائية بعد أن كانت تعرف باسم الاسبانية.

تبلغ نسبة المسلمين ٣٥٪ من مجموع السكان، ويقيم أكثرهم في إقليم ريمونى. بينما أكثر سكان «فرناندوبو» من النصارى الكاثوليك، وهم أكثر علماً وتحضراً وبفكر سكان هذا الإقليم بالانفصال لتمزيهم دينياً.

واللغة الرسمية هي الاسبانية، بينما يتكلم السكان لغة البانتو وخاصة في «ريومونى».

٤ ـ الغابـــون :

وتبلغ مساحتها ٢٦٧,٦٦٧كم٢، ولا يزيد عدد سكانها على ستمائة ألف، وتبلغ نسبة المسلمين بينهم ٤٥٪، بينما تصل نسبة النصارى إلى ٣٥٪ أرباعهم من الكاثوليك، والباقى من البروتستانت، ولايزال هناك ٢٠٪ من الوثنيين.

وصل الإسلام إلى الغابون في عهد المرابطين، إذ أرسل أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين عام ٤٩٣هـ أحد الدعاة وهو «مولاى محمد» إلى منطقة الغابون للدعوة إلى الاسلام، واستمر وصول الدعاة طيلة أيام المرابطين والموحدين من بعدهم.

وصل المستعمرون إلى سواحل الغابون في أواخر القرن التاسع، وقد أقاموا مستعمرة لهم عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) على الساحل، وتقل من الغابون أكثر من نصل مليون من الرقيق.

امتد نفوذ الفرنسيين إلى الداخل، وضمت المنطقة إلى الكونغو، ثم انفصلت عنــه وأصبحت دولـة مستقلة عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م)، واللغـة الفـرنية هي الرسمية، ولكل قبيلة لغتها الخاصة.

وقد زاد انتشار الإسلام عندما أسلم رئيس الجمهورية «البرت برنارد بونغو» وتسمى «عمر بونغو» وذلك في عام ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م)، وأسلمت معه أسرته جميعاً، وتبعه عدد من المسؤولين وأفراد القبيلة التي ينتمى إليها وهى «البونغوى» وتعد أشهر القبائل في البلاد.

وسط إفريقيـــــــة:

تأخر انتشار الإسلام وسط القارة الافريقية ـ كما ذكرنا ـ لطبيعتها الخاصة، وجاء الاسلام إلى هذا القسم عن طريق الشرق عندما آل حكم زنجبار وشرقي إفريقية إلى ماجد بن سعيد عام ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م)، والذي نقل عاصمته من زنجبار إلى دار السلام، وقرر أن يتوغل في الداخل، فبدأت القوافل ومعها الدعاة يتجهون نحو الغرب. الأمر الذي وصل معه الإسلام إلى وسط القارة، وتركز في شرقى زائـير اليوم، ولكن لم يلبث أن جاء الـرحـالـة الأوروبيون، وأعقبتهم

الحمـلات، ودارت الحـرب بين المسلمـين والمستعمـرين ١٣١٠-١٣١٢هـ (١٨٩٢-١٨٩٤م) هزم إثرها المسلمون، ودالت إدارتهم هناك، ووجدوا اضطهاداً واسعاً، وتبلغ سبة المسلمين في دول وسط إفرقية مايلي:

بورندى ٢٥٪ من مجموع السكان.
رواندا ٦٪ من مجموع السكان.
زائير ١٠٪ من مجموع السكان.
الكونغو ١٪ من مجموع السكان.

وللمسلمين في هذه الأجزاء جمعيات خاصة بهم، ولهم مساجدهم ومدارسهم الضعيفة، وهم مختلفون يحتاجون إلى الدعم والتوجيه.

جنوبي إفريقيـــة :

لم يصل المسلمون إلى جنوبى افريقية على نطاق واسع سواء جكانوا على شكل تجار أو دعاة كما لم تكن لهم إمارات في تلك الجهات الأمر الذي أبقى نسبتهم ضعيفة وانتشارهم محدوداً. وان كان اتحاد جنوبي إفريقية قد نقل إليه أعداد من جنوب شرقي آسيا وخاصة من ماليزيا واندونيسيا وهم السجناء السياسيون أو الذين قاوموا الاستعمار هناك فعندما تمكن منهم نفاهم إلى هذه الأماكن - وهم غير الذين قتلهم - ظناً معه أن هذه مناطق مهجورة نائية فعملوا على نشر الإسلام كما جاء بعدهم أشخاص للعمل من سيلان والبنغال واندونيسيا وماليزيا وغربى الهند فازداد المسلمون هنا، ولكن نسبتهم بالنسبة إلى السكان ضعيفة، فهم في:

١ ــ زمبابوى: ٥٪ من مجموع السكان، ويبدو أن النسبة كانت عالية حيث جاء الإسلام عن طريق مملكة الزنج، وعن طريق سفالة في الشرق الا أن انقطاع الصلة بين المسلمين هناك في تلك الديار النائية وبين إخوانهم في العالم الاسلامي قد جعلهم يبتعدون قليلاً قليلاً عن الاسلام حتى غدوا في عداد الوثنيين ولاتزال بعض الأسر الوثنية اليوم تحمل الاسم العربى الإسلامي دلالة على ذلك مثل (البكرى) و (المصرى) و (الشريفى).
٢ ــ زامبيا: وتبلغ نسبة المسلمين فيها ٢٪ من مجموع السكان.
٣ ــ سوازيلند: ٥٪ من مجموع السكان.

٤ ــ بتشوانا: ٤٪ من مجموع السكان.
٥ ــ ناميبيا: أقل من ١٪ من مجموع السكان.
٦ ــ ليسوتو: ٥٪ من مجموع السكان.
٧ ــ انغولا: ١٥٪ من مجموع السكان وتزداد هنا النسبة بسبب الوضع الساحلي.
٨ ــ اتحاد جنوبي إفريقية: ويمثل المسلمون ٢٪ من مجموع السكان، ويجد المسلمون من آثار التفرقة العنصرية كثيراً من العنت إضافة إلى الحقد الكبير على الإسلام الذي يفوق كل ماعداه، وللمسلمين مايقرب من ١٣٠ جمعية تنتظم في المجلس الإسلامي لجنوبي إفريقية ومقره مدينة (دربان) على الساحل الشرقي.

الجــزر الإفريقية:

تقل نسبة المسلمين في الجزر الافريقية، وتقل هذه النسبة حسب بعد الجزيرة عن العالم الإسلامي فهي في غربي إفريقية كما يلي:

جزر آصور ٥٪.
وجزر ماديرا ١٠٪.
وجزر الخالدات (كناريا) ٧٪.
وجزر الرأس الأخضر ١١٪.

أما في جنوب غربي إفرقية كما يلي:

جزر ساتومي وبرنسيب ٢١٪.
جزيرة القديسة هيلانة أقل من ١٪.

وفي جنوب شرقي إفريقية كما يلي:

جزيرة ريونيون ٢٠٪.
وجيرة موريشيوس ٢٠٪ وفيها النشاط الإسلامي أكثر من غيرها.
جزر الديرا ٢٪.
سيشل أقل من ١٪.

المراجـع

أ ـ المراجع العربية

١ ـ أحمد صدقى الدجانى الحركة السنوسية

٢ ـ أحمد صدقى الدجانى ليبيا من الاحتلال حتى الاستقلال.

٣ ـ أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الحديث ـ القاهرة ١٩٧٠م

٤ ـ أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية الجزائرية ـ القاهرة ١٩٧٧م

٥ ـ أحمد شبلي موسوعة التاريخ الإسلامي حـ ٤، حـ ٥، حـ ٦، حـ ٧، القاهرة ١٩٧٧م.

٦ ـ أنور الرفاعى وشاكر مصطفى العالم الحديث ـ دمشق ١٩٥٠م

٧ ـ حسان حق تونس العربية ـ بيروت ١٩٧٠م

٨ ـ جامع عمر الصومالي تاريخ الصومال

٩ ـ جورج انطونيوس يقظة العرب ـ بيروت ١٩٧٧م

١٠ ـ جمال حمدان إفريقية الجديدة.

١١ ـ جمال حمدان العالم الإسلامي المعاصر

١٢ ـ جرجس زيدان تاريخ مصر الحديث

١٣ ـ جلال يحيى السياسة الفرنسية في الجزائر ـ القاهرة ١٩٥٩م

١٤ ـ حسين مؤنس الشرق الاسلامي في العصر الحديث

١٥ ـ حسن حسين عبدالوهاب خلاصة تاريخ تونس

١٦ ـ حسن جوهر، حسين مخلوف السودان

١٧ ـ حسين صبحى التنافس الاستعمارى الأوربى في المغرب ـ القاهرة ١٩٦٥م

١٨ ـ روم لاندو تاريخ المغرب في القرن العشرين

١٩ ـ زائر رياض استعمار إفريقية

٢٠ ـ زائر رياض الممالك الإسلامية في غرب إفريقية

٢١ ـ زاغية قدورة تاريخ العرب الحديث ـ بيروت ١٩٧٣م

ب ــ المراجع الإنجليزية .

1. Anis. M. England and the Suez-Route in the 18th Century.
2. Bullard: R. Britain and the Middle East.
3. Endre Sik. The History of Black Africa.
4. Glubb, V. B. Britain and the Arabs.
5. Trimingham, Spencer The history of Islam in West Africa.
6. Trimingham, Spencer The influence of Islam Upon Africa.
7. Tovnbee. Arnold J. Islamic World London 1927.


مطابع المكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت: ٢٢١١٠٧١ - ٢٢١١٠٧٢